

ياسر أحمد



جمهورية القرود الأحمر

رواية

المركز الثقافي العربي



ياسر أحمد

جمهورية القرد الأحمر

ياسر أحمد

جمهورية القرد الأحمر

رواية



المركز الثقافي العربي

الكتاب

جمهورية القرد الأحمر

تأليف

ياسر أحمد

الطبعة

الأولى، 2014

عدد الصفحات: 320

القياس: 21 × 14

الترقيم الدولي

ISBN: 978-9953-68-723-0

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحياس)

هاتف 0522 307651 - 0522 303339

فاكس: +212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 01 750507 - 01 352826

فاكس: +961 1 343701

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

تحذير

إذا كنت تقرأ هذا الكتاب الآن فهذا ربما يعني أنه ليس لديك شيء آخر تفعله أكثر أهمية. إذا قررت أن تستمر فإن هذا يعني بالضرورة أنك تتحمل المسؤولية الكاملة بأن تكون وسط الأحداث بلا دليل أحداث هذه الرواية وشخصياتها ليست حقيقية وأي تشابه بينها وبين أشخاص أو أفعال لا يمثل سوى الخيال. الآن، عليك أن تواصل وحدك.

«أما زال من حقنا أن نصدّق أحلامنا، ونكذّب هذا الوطن؟»

محمود درويش

الحلم

الوقوف على الحافة

هل تعرف حقيقتي؟

أنا الذي خدعتك طيلة الوقت وأنت صدقتني .

الآن أيضاً تصدقني مرةً أخرى عندما أقول لك : لا تصدقني!

أنت لا تتعلم!!!

من منا الذي لا يخطئ؟ عمرك مرّ من هنا بينما كنت تقف مكانك بلا حراك . عمرك كان يضيع بلا هدف وأنت تائهٌ تحت رحمة الأحلام المتساقطة محاطٌ بكل الأشياء التي لا تفهمها تعيش حياة الحلم الذي يأكله الواقع .

المطر ينهمر من سماءٍ رماديةٍ بينما تتجمد اللحظات في انتظار قدوم القدر . الطرقات تبيض انتظاراً للمجهول . يطالعونه أينما مرّ وكأنّه شيء عجيب . لا أحد يقترّب منه وكأنه محصن وغير قابل للمسّاس . من هذا القادم إلى هنا؟ يتقدم بين الأطلال التي خلّفها المعركة الكبرى بينما يطلون عليه من فوق الأسوار يتجمعون في مجموعات تحتل النواصي وتستتر خلف المتاريس . يقيمون على رؤوس المباني المتداعية التي أكلتها الحرائق . ينتشرون في أنحاء مملكتهم التي سيطروا عليها كلما مضى في طريقه تراجعوا أمامه ،

أزالوا الأفخاخ المنصوبة وفتحوا له الكمائن التي أقاموها وكانهم يدلونه على الطريق. لم يعلم إلى أين سينتهي؟ ولكنه كان يمرّ ويمر يهز عرش الطرقات وحده. يعلم أنه متورط في هذا العالم حتى النهاية وأنه لن يشفى منه أبداً يمضي إلى نهاية العالم وقلبه غائرٌ في مكمنه. إنه عالقٌ وحده يضرب في الأرض بلا غطاء، يجر خلفه الحمل الثقيل، مخترقاً تحت الاسم القديم الذي عاد إلى الحياة. الآن تطل عليه حياته كلها ويأتيه حدسه من بعيد ليقول «أنت الآن تقف على أعتاب النهايات». ينتشرون أمامه وخلفه، في كل ثقب بين الجدران وفوق كل شاهد على الأرض. مولودون بالقناعات على وجههم وشعار القرد الأحمر على صدورهم، ينتشرون في كل مكان وكانهم نسخ تنسخ بعضها من بعض. جيوش خرجت في زمن الطوفان الكبير واحتلت كل شيء. يمضي بخطوات هادئة في طرقات الخطر، كان قدره أن يواصل حتى النهاية.

سبع سنواتٍ في قلب العاصفة، تمرُّ عليه مشاهد الذكريات كلما اقترب. ها هو أول الطريق المؤدي إلى الميدان. منذ سبع سنوات مرَّ من هنا نحو الشرارة الأولى للثورة وها هو يعود الآن إلى حيث بدأ هنا كل شيء أكله الحريق. هنا أكلت المدينة بعضها بعضاً

يهطل المطر الثقيل بلا توقف ويدور السؤال في رأسه الشريد، أين الرفاق الآن؟ من منهم مقتع يقف وسط الحشود ومن منهم سقط شهيداً؟ من منهم صار هو الآخرين؟ من ينتظره في الساحة الأخيرة؟ هنا على العتبات يلوح الميدان وتضرب الثورة نفسها في سنواتها

البائسة وتخرج شيئاً آخر ها هو يعتلي كل شيء ويتضخم بجنون.
ياسين السحرتي، مرّ من الطريق نفسه من سبع سنوات مضت
أمام رجل طاعن في السن، ذو وجه مجعد كالزمن الغابر ليس فيه من
حياة سوى أعين تترقب بقلق الشارع الملبد بدخان القنابل. حرك
العجوز فمه الثقيل وكأنه يلتقط أنفاسه الأخيرة قبل أن يتهدج صوته
متسائلاً

- هو فيه إيه في الميدان؟

قلّب ياسين عينيه نحو الأرض والسماء وبينهما وجه العجوز
القلق، أشار هناك نحو فوهة الطريق دون كلمات وهرول نحو
الميدان. تعاقبت الأيام ومر من هنا من مرّ ولكن السؤال ظل قابلاً
هنا، وفي المكان نفسه، يقف على رأس الطريق ولا يتحرك. الآن
يتذكر وجه العجوز الذي استوقفه منذ سنوات، يتذكر البداية التي
تلوح الآن بعيدة. قدماء تعرف تلك الأرض، هنا تاريخه كله
مسطور. ها هو الميدان يناديه من جديد، اقترب.

مذكرات الغضب

بدأ يكتب دون توقف لتخرج الكلمات سريعة، متلاحقة ومصوّبة من جوف محترق، تطفو فوق السطور كأنها مصابة بجنون محموم. تنقر أصابعه الحروف بقسوة وكأنها تريد أن تدميها جنونه يتواصل فيكتب ويكتب ليغرق أكثر في غياهب الإعصار المظلم العتيد. «الكراهية، من أين تبدأ؟ وكيف تتوحش؟ هذه مذكرات الغضب والكراهية.

أسبح في بحيرة مياه راكدة.. عمري يدور في دوائر مغلقة وفي صدري وطيس معارك لم تضع أوزارها بعد.. أحزاني تنمو كل يوم كنبات البوص في المستنقع الآسن.. أينما نظرت حولي أطلت الوجوه كثيبة كالأرض الخراب.. الوطن لم يعد يعني سوى الرماد الذي يحترق أكلاً نفسه.. إنها الحقيقة التي انكشفت لنا.. ها هو عري الحقيقة يعترينا.. والحقيقة وجدناها عار.. عار يأكل قلوبنا كالنار.. نار أخرجت زبانية الشياطين لتتراقص فوق الجثث.. جثث المتساقطين على الدرب الطويل.

لا كلام يخرج مني.. أتلعثم.. أتعتع.. أتهته.. لا أتحرك ولا أبارح مكاناً.. مكبل إلى الأرض في انتظار حذفي.. لا أستطيع

أن أنطق عندما أراه قادماً نحوي.. يقف أمامي ليبتلعني ولا أعرف كيف أصرخ.. حشرجة فقط.. وجهي إلى الحائط والشيطان الأكبر يتجسد خلفي ويقترّب.. أنبش بأظفاري غرافيتي الأخير».

هو أينما كان، لم يختلف كثيراً عن الآخرين، بل كانوا مثله، ولكن لم يكن أحد ليعرف لماذا كان هو الأكثر معاناة؟ لماذا هو الذي جنّ جنونه ومات؟!

الأيام التي تمضي بك، هي حدث دائم متوالٍ، وأنت تحاول جاهداً أن لا تقودك بعيداً عن الأشياء التي تريدها قواعد اللعبة تحتمّ عليك أن تحتمل ما تفقده، وليس أن تفرح بما تكسبه. توالي الأيام مستمر دون توقف والأشياء تتبدل فيه من غير تفسيرات. في نهاية المطاف لن يتبقى لك سوى ما انتهت عنده، وحتى هذا ربما يكون قد تغيّر وأنت في خضم الأحداث. تموت وتحيا في داخلك أشياء وأنت تمضي في السياق. هي فصول خريف التساقط وشتاء الحزن وربيع الانتشاء وصيف القيظ، تُطوى الأيام قدماً وتهب الرياح كل يوم من صوب جديد.

حكاية مروان الناجي كما عرفها ياسين السحرتي وآخرون، تعاقب شتائين اثنين دارت بينهما الأحداث، عثر على أوراق مذكراته مطوية على مكتبه فحملها ياسين معه ورحل. خبأها في صندوق خشبي عابق بروائح بيت قديم، وجلس فوقها بكى في صمت، ولم يخرجها لأحد منذ ذلك الحين. ظلت سره الدفين ولم يعرف أحد أن

مروان كتب صفحات أخيرة قبل أن يرحل رقدت الكلمات في قرار مظلم ولكنها بقيت حية بإصرار داخل ياسين وفي أحداث حياته، كان يقلبها على ضوء خفيض ثم يعود يواربها في صندوق خشبي قديم. صندوق كان يُصدر عند فتحه وإغلاقه صوت الأنين.

وسط جنون الكلمات وبؤس المشاعر وصور تمر في ذاكرته، كان يعيد استحضار الأحداث التي مرّ بها على وقع مذكرات صديقه. يغيب تحت وطأة أفكار متشابكة ومشاعر معذبة. اختلطت أمامه كل الأشياء وطالع نفسه بأسئلة لم يقوَ على تحملها لم يعد كما كان من يومها، تغير ياسين بعد أن فقد صديقه. الأحزان التي أصابته تجمعت على مدار الشهور الأخيرة كجبل شاهق ثم أتى موت مروان الناجي كالبركان الذي انفجر عند قمة هذا الجبل.

لعبت به الأحزان لعبتها القاسية. سقطت فوقه المذكرات كضباب موحش، وغاب عن العالم من حوله. يسكنه عمر آخر كامل داخل عمره. نفق طويل معتم، يسير فيه وحده. ترن في عالمه أصداء المذكرات. تطالعه الكلمات كأنها نقوش سجين مسطورة على جدران زنزانه، خطوط هوجاء وطلاسم ترسم حكايات حزينة. تتشابه عليه أوجاع مروان وأوجاعه، مربوط كوتر ممتد كلما ضرب عليه في أول طرفه، أنّ في نهايته المشدودة.

يتحول تدريجياً ليصبح صديقه الذي غاب، يرى الأشياء بعينه وتسكنه الأحزان نفسها تقيّده الكلمات بظلمها وترن كرجع صدى يناجيه كل يوم. يتذكر الأحاديث التي دارت بينهما واللقاءات، كل ما مرّ طيلة عام الثورة. تتشكل الأرض من جديد تحت قدميه، تسقط

أشياء وتعلو أشياء أخرى. كلُّ شيءٍ يتغير الآن أمام عينيه، وتبدو كلمات صديقه الذي رحل كأنها ثقل الحقيقة التي لم تكن من قبل بهذا الوضوح.

تسَطَّر المذكرات الأحداث التي مرّت من جديد، ترسله إلى الوراء، تُعيد السرد. الشرارة الأولى، اللقاء الأول، الهدير الأول، أول حلم يأتي، أول دوي طليقة، أول رفيق، أول خيانة، أول صفة، أول صفة، أول كل شيءٍ لم ينتهِ واستمر

أنا الحلم الذي صفحك فجأةً عندما كنت تبتم له.

تجلده المذكرات الغاضبة كلما فتح الصندوق وأطلت الحروف. لم يكن مروان الناجي يتلعثم، كانت كلماته كالرصاصات، سريعة، قاتلة ولا تخطئ الهدف.

ياسين السحرتي

أنا البلورة المسحورة التي انكسرت

أنا الشيء نفسه ولكنه تغير

أنا الآن الشظايا التي تجرح.

كانون الثاني/ يناير يتطوح ثقيلًا كأنه لا يمر من دروب الأيام.

قبل الذكرى الأولى للثورة بأسبوعين وفي العاشر من كانون الثاني/

يناير 2012 دوى الخبر في كل مكان، لقد مات مروان الناجي!

صُفَع الباب الثقيل فوق ما كان، وانطفأت الومضات التي كانت

تضوي هناك في البعيد. انسدّ الأفق الذي كان يطلُّ منه على

الساحات، وعاد من حيث بدأ معتزلاً الصراع والأحداث. هناك

سقط كأن الزمن حفر له أخدوداً خفيّاً ليس له قاع.

ياسين السحرتي يجول في ذاته ولا يخرج منها، حبيس

المذكرات وأحزان الحداد. لم يكن الأول من كانون الأول/ ديسمبر

2011 يعني شيئاً له، ولكنه كان صدمةً للآخرين. كان ذلك هو اليوم

الذي وقف ياسين في مقر الجبهة وأعلن استقالته من الجبهة. الخبر

وقع كالصدمة على رؤوس الرفاق. بعضهم لم يعلق وبعضهم اعتبرها

خيانة كبرى في وقت عصيب، كانوا وقتها متجهين إلى الاعتصام

أمام مجلس الوزراء والبلد تفور بالأحداث .

عدّ قليلاً للوراء، بضعة ليالٍ . هناك وقف في شارع محمد محمود على رأس المشهد وأطل انتهى بلا رجعة، حسم قراره ولم يجد شيئاً يبقى من أجله . لم يجد ما يفعله للفتى المندفع بالحجر، تركه لهدير المجهول، تركه حيث الفخ المنصوب، تاه منه في ظلمة الشارع الدموي .

لم يثنيه الشبح الأخير الواقف وسط الضباب عندما مضى متراجعاً، كان الشبح الهزيل يقف على الناصية عندما فرغ ياسين من أحلامه . هذا هو اليوم الذي غيّر كل شيء، كانت آخر مرة يراه فيها واقفاً على قدميه، كانت آخر مرة يتحدث إليه .

مروان كان يضعف في الشهور الأخيرة من حياته، استسلم للمرض ونمّت لحيته وصار قليل الحديث . منذ انقسام الجبهة في تموز/ يوليو وهو شارد الذهن . في آب/ أغسطس أخرجوه من معركة فضّ الاعتصام الأولى وهو يتلوى ويصرخ، أبعده عندما كانوا هم يتلقون ضرب الهروات على ظهورهم، أحسّ بالخيبة والضعف وبأنه بلا حول أو قوة بين رفاقه الثوار . في الشهر التالي حدث شيءٌ ما لا يعرفه أحد، شيءٌ ما غريب، اختفى مروان على أثره لأسابيع ثم عاد غامضاً وكأنه شبح، ذلك الشبح الأخير الذي قابل ياسين السحرتي على ناصية شارع الفلكي المؤدي لمحمد محمود، يقف وحده كأنه على حافة نهاية العالم .

في تشرين الثاني/ نوفمبر، وقف مروان الناجي أمام ياسين السحرتي وأمامهما المعركة . هناك دوى كل شيءٍ بعنف وهوت

الأحلام كأنها مدنٌ من رماد. الصديقان اللذان تنازعا في الرمح الأخير من الحلم.

لم ينم ياسين لأيام بعد هذا اللقاء، صدره كان يحترق بلا توقف. ذهب بعدها إلى بيت مروان في المنيل ولكن مروان لم يفتح الباب ولم يجب. هاتف أخته في فرنسا فاستحلفتها أن يرعى أخاها حتى تصل إلى القاهرة، ستأتي على أول طائرة، هكذا قالت، لكنها لم تأتِ إلا بعد الوفاة. في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ذهب ياسين إلى مقر الجبهة بوسط البلد وأعلن على الملأ انسحابه منها بعدها مضى مجدداً إلى منزل مروان وقد عقد العزم على أن لا يتركه. شيء ما في داخله كان يقول له، صديقك يموت. كسر الباب واندفع إلى الداخل.

كان مروان هناك جالساً على كرسيه يتطلع نحو الفراغ، عيناه بهما قصةً غائرة تنزف دون أن تنطق بشيء. حملته إلى المستشفى ومنها إلى غرفة العناية المركزة حيث تجمهر حوله الأطباء يتفحصونه، رافضاً للطعام وللكلام وعيناه تنظران إلى ياسين، يعاتبانه بأسى مرير لا يطاق.

حاول ياسين طويلاً معه وحاول الأطباء، ولكن لم يكن أحدٌ ليردع الموت الذي توغّل في خلايا هذا الجسد الهش الضعيف. الحياة عندما تجفّ يناعيها، تحيط قشرتها الصلبة بكل شيء. صمت مروان يقف على الأعتاب ولا يترك أحداً يمر

في ليلة ممطرة من ليالي كانون الثاني/ يناير، مات مروان الناجي.

زنازين البداية

أنا القصة السجينة

أنا وقع الأشياء التي لا تنسى .

القصص التي لم تُروَ هي وحدها القصص التي لها نهايات . أما القصص التي تروى لا تموت وليس لها نهايات ، وكلما حُكيت عادت أحداثها لتعيش حياةً جديدةً في مخيلة آخرين جُدد . القصص التي تُحكى تعيش ويمتدّ عمرها وتمر من أبوابها الأزمان ، تفتح دروب الخيال في الأذهان ويراهها كل مارٍ بها بعين ذاته ، فيطرح تساؤلاته ويصوغها كما مضت به .

مروان يعيش كلَّ يوم في حياة ياسين ، يعودُ إليه كهاتفٍ بعيدٍ ليسأله ، مَنْ أنت؟ فيذهب ياسين بعيداً ويعود دون إجابات ، وكأنه كان ينقب أرضاً خراب . مروان يُطل من المذكرات ، حاداً غاضباً وجارحاً كسكين إن مسسته مساً سيغوصُ فيك جراحاً

«في ظلمة الزنزانة وقف يصلي.. خاشعاً وكأنه وحده.. أقفُ إلى جواره فلا يشعر بي.. أصلي خلفه.. متيقن من معرفته.. رأيته كثيراً في أحلامي من قبل.. تلعثت ولم يبالي.. يفهمني.. ينصت إلي.. هو أولُ من أنصت إلي وآخرهم.. هو

الذي أشار نحو الميدان فتبعته.. دفعني بعيداً عن الخرطوشة
فدخلت في كتفه.. هو البعيد الذي أتاني لنبداً.. هو البعيد الذي
اقترب».

في ليلة الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير كان اللقاء
الأول بينهما عندما حُشرا سوياً مع العشرات من الشباب في زنزانة
محكمة الجلاء الصغيرة. كانا شبه ملتصقين في الحيز الضئيل
يستنشقان سوياً هواء قليلاً لا يكاد يكفي، من يومها لم يفترقا كان
قد تمّ القبض عليهما من أمام دار القضاء العالي في عشية اليوم
الأول للثورة. جروهم من وسط المظاهرة بعد أن هبط الليل وقلّت
الأعداد ودانت لقوات الأمن السيطرة. بحثوا لهم عن مكانٍ قريب
فذهبوا بهم إلى حجز المحكمة، زجّوهم مع العشرات في الداخل
على عجل

في الليلة الأولى اقترب منه مروان وطلب منه أن يساعده.
يحتاج حقنة الأنسولين ولكن يده ترتجفان، نظر ياسين في عينيه
للحظة وأحبه، تلثم مروان في مخارج الكلام، جسده النحيل وعيناه
الصادقتين جعلتا ياسين يحبه. هناك أشخاص تحبهم من أول وهلة،
شيء فيهم حقيقي يتسرب إلى أعماقك ويلمسك هناك.

ثلاث ليالٍ في غياهب ظلمات السجن كانا أطول من كلِّ العمر
الذي مضى كلّهُ. أمضيا الوقت داخل الزنزانة متلاصقين وكأنَّهما تربيًا
سويًا، هرما سوياً وأفنيا العمر سوياً يتحدثان طيلة الوقت ويتبادلان
الأحلام. التساؤلات كانت تحاصرهما دون إجابات عمّا يدور في
الخارج حتى قطعها صوت هتافات عارمة ضجّت في عصر يوم
الجمعة. سمعوا المسيرات ترجّ الطرقات في الخارج، دوي طلقات

نارية يتعالى، تتسرب إليهم في الزلزلة رائحة الغاز الخانقة والحرائق. شعروا بهرج شديد يضرب أروقة المبنى ثم فجأة فُتح الباب. انطلق المحتجزون إلى الخارج مهولين بينما ظلّ مروان وياسين متوجسين وغير مصدقين، هل هذا حلم؟ ما الذي حدث في الخارج؟ استجمعا قوتيهما وانطلقا بين ألسنة اللهب المندلعة في طرقات المبنى يبحثان عن مخرج.

يضرب الغضب الطرقات والظوفان يجتاح كل مكان. بدا شارع الجلاء في عصر جمعة الغضب كساحة قتال مستعرة والكل يهرول. الغاز الخانق يجتاح الأفق. الطرقات ساحات معارك والمبنى الذي فروا منه كان يشتعل محترقاً مضى ياسين بضع خطوات في الاتجاه الذي كان يندفع نحوه بعض الشباب. التفت نحو مروان الذي كان يقف في منتصف الطريق ينظر حوله غير مصدق ما يرى. عاد ياسين إليه، ثم أمسك بكتفه وأشار له هناك، مضيا يعدوان سوياً متحررين من زمنٍ ثقيل، يعدوان بكل ما في الحلم من حرية. هناك يلوح الميدان.

أنت الخيل العجوز

وأنا رصاصة الرحمة.

ياسين يمر في المذكرات بلا اسم، يشار إليه دوماً بـ«أنت»، كأن مروان كان على يقين بأنّ من سيقراً المذكرات هو ياسين ولا أحد سواه. كلما قرأ ياسين سطرأً جديداً كان يشعر بأن المذكرات هي الحياة والموت معاً متلازمان لا يفترقان، ولم يعرف كيف أنه كان يرى فيها كل شيءٍ يبدأ ويكبر ويشتعّل ثم يخفت ويتضائل وينتهي.

«نحن نشترى ونحن نبيع.. نأخذ من الكلمات التي تمرّ
ما يستهويننا نعبئها داخلنا حتى ننفجر أو نتلعثم.. أنا أتلعثم..
أتلعثم كمن ضلّ البداية وبقي كسليمٍ مائلٍ في الفضاء وسط
الإعصار.. أنت وحدك الذي كنت إلى جوارى عندما اشتد علينا
الخناق.. أنت الذي كنت تقود حدسنا عندما نتوه.. لماذا
أوصدت الأبواب أمام الأمل؟ .. لماذا اعتزلت الحلم؟».

ياسين السحرتي 2

عندما يموت صديقك بين يديك لن تحتل الحياة، ستضيق بك الدنيا وتطول المسافات بينك وبين كل ما حولك. ترك ياسين المحاماة، وأغلق مكتبه وهاتفه وعاد إلى الشيخ، إلى الوكالة الصغيرة في جوف العطفة. عاد من حيث بدأ، حي العطارين، هنا نشأ وهنا كبر عاد ياسين ليحمل الأجلة على ظهره ويدور على دكاكين العطارين كما كان يفعل منذ سنوات.

يعرف ياسين أن الشيخ سيحزن لعودته، هو الذي قال له منذ سنوات «أنت محامٍ. لا عطار» ماذا يفعل ياسين في الشبه؟ تقول أمه «طالع لأبوك» ورث عن الشيخ صلابة الرأي وسمرة اللون المشوبة بحمرة خفيفة، الجبهة العريضة فوق حاجبين مرسومين بثبات وعيون قوية. عندما كان صغيراً أراد أن يدرس الفقه ليصبح داعية مثل أبيه ولكن الشيخ ردد بحزم «اختر لنفسك يا ياسين». عندما كبر قرر أن يدرس الحقوق لأنه في قرارة ذاته كان يريد أن يدافع عن الحق ولكن خلال سنوات الدراسة أغوته السياسة، أغوته كما أغوت الشيخ من قبل. الشيخ عبد الله قضى سبعة أعوام في المعتقلات خلال حقبة السبعينيات. انخرط الشيخ في السياسة منذ أن كان طالباً

في جامعة الأزهر، شارك في المظاهرات وألقى الخطب النارية معارضاً نظام الحكم آنذاك ممّا أدى إلى اعتقاله عدة مرات. بعد عدة سنوات ودون أية مقدمات اعتزل الشيخ السياسة تماماً وتفرغ لتدريس علوم الدين بالجامعة صباحاً والعمل بالوكالة ليلاً، ذلك المحل الصغير للتوابل والعطارة بعطفة ضيقة متفرعة من شارع المعز، ورثه الشيخ أباً عن جد. للشيخ ستة ذكور. لم يرث أيُّ منهم حب السياسة سوى ياسين أكبرهم، انخرطوا في الدراسة والحياة. يحيى الأخ الذي يلي ياسين يعمل كطبيب امتياز، صالح مجند بقوات حرس الحدود، سليمان يدرس أصول الشريعة، داوود يدرس بالثانوية الأزهرية صباحاً ويساعد ياسين في الوكالة ليلاً أما يوسف الذي لم يتجاوز العاشرة فيرافق أباه أينما ذهب ولكن ما أن ينشغل الشيخ يبحث يوسف عن ياسين ويجلس إلى جواره.

يمضي ياسين نهاره في الوكالة شاردأً، ينظر إلى الرفوف ومئات الزجاجات المعبأة بمختلف أنواع الزيوت والتوابل، يتفحص الميزان ووجوه الناس. يغيب في دوامات أفكاره وتمر عليه الشخوص من كل زاوية، لا تخرج منه سوى كلمات مقتضبة خلال ساعات شروده البعيد. تناديه كلمات المذكرات، تحوم في رأسه دون توقف، مسكونٌ بماردٍ مقيد بسلاسل، مسجون في كهفٍ سحيق. مارداً جبار كان مخبئاً في صمت مروان، مخبئاً تحت رقة ملامحه وصوته المتلعثم الخافت. هذا الصمت كان عاصفة لم يكن ليتكهن بقدموها.

يتربع الشيخ على باب الوكالة يداعب يوسف ولكن قلبه مشغول بياسين. يرمق ابنه الأكبر بطرف عينه بين الحين والآخر، يعرف ياسين أنّ بصر العجوز الذي وهن، لا يتوه عن الحقيقة. يتوافد باقي

إخوته في المساء، الواحد تلو الآخر ليقبلوا يد الشيخ ويحدثونه عن أحوالهم. يهمس الشيخ بشيء ما في أذن كل واحد فيهم. لم يسأل ياسين أيّاً منهم عن شيء، تركوه لصمته وحزنه.

عندما يحلّ الليل فوق المدينة التائهة، يجوب صوتٌ خافتٌ في رأسه، هل انتهى الحلم؟

يرحل الشيخ متكئاً على يوسف الصغير ليصلي العشاء في جامع الأزهر قبل أن يواصل الطريق بعدها نحو بيتهم الكائن بحي الدرب الأحمر. يغلق ياسين أبواب الوكالة ثم يغيب وحده لساعات. لا أحد يعلم إلى أين كان يمضي؟ ولا حتى هو، يترك نفسه ليتوه في الزحام، يتحسّس شرود الخطى. في آخر الليل يصل عتبات البيت القديم كأنها نهاية الترحال ويظل حبيس غرفته وصفحات المذكرات التي استلها جلسة يوم الوفاة من غرفة صديقه والتي لم يعلم بها أحد غيره. عندما قرأ أول صفحاتها أغلقها وأسرّ لنفسه، هذا الوجع لن يتركه ليراق في أوردة الآخرين، سيحفظ السر وسيحتمله وحده. احذر بطش الصمت عندما يتكلم.

«إنها الحكاية التي لن تفهمها.. أن تترك كل شيء خلفك وتخفي جنتك جيداً.. أوجاعك كلها تدفنها معك.. ثم تتلاشى هكذا كالضباب.. وتبقى ميتاً دون أن يشك أحد منهم.. دون أن يفتش أحد عن حقيقتك.. ميتاً مثالياً يتصرف مثل كل الأحياء».

الجبهة

أنت الشعار

وأنا الحقيقة التي لا تتفق مع الشعار.

لم يذهب لتأبين صديقه عندما اجتمع شباب الجبهة من الرفاق والناشطين والكثير من الصحفيين، أقاموا مؤتمراً حاشداً لتأبين الفقيه والإشادة بدوره في الجبهة. انتشرت العناوين والحوارات في كل مكان تمجد ذكراه. مضى بعضهم يردد كلماته ويتذكر مواقفه، استفاقوا فجأة ليجدوا أن لأفكار مروان الناجي وكلماته قيمة ما

في كانون الأول/ ديسمبر الأسود عندما ودّع ياسين السياسة والرفاق وترك الجبهة، كان يعلم أن هذه المرة ذهاب بلا رجعة. سادت جدليات غير منتهية في أوساط الرفاق عن أسباب رحيل السحرتي، كل منهم أتى بنظرية مختلفة ولكن لم يستطع أحد منهم أن يعيده عن قراره. بحثوا عن مروان لعله يثنيه عن انسحابه من الجبهة ولكن لم يكن أحدٌ منهم قادراً على الوصول إليه، كان قد تلاشى حتى أتاهم بعد أسابيع قليلة خبر وفاته.

في الشهور التي سبقت وفاته كان مروان يذبل كل يوم ولم يكن أحدٌ يعرف ما السبب. ظنوا أنه محبط مثلهم وأن انتكاسات الثورة

وتشتت الجبهة قد أثرت على نفسيته، ولكنهم لم يتوقعوا أنه مغادر. لم يكن ياسين ليتخيل أن تأتي النهاية سريعة هكذا، لم يكن يعلم أن النهايات تأتيك من حيث لا تحتسب، لم يكن يعلم أن النهاية تولد معنا ولكننا لا نراها آتية. لم ير ياسين وجه الحقيقة المظلم وهو يتهادى نحوه، لم ير ياسين العالم مظلماً هكذا من قبل في يوم العزاء قابل كل الرفاق مجتمعين لآخر مرة، ووجوههم المتشحة بالحزن كانت أيضاً تحمل ضغائن الانقسام.

«عندما يطل الرفاق، تذكرني..»

عندما يجتاح الجميع بأس الجنون، تأملني..»

عندما تتبدل الوجوه.. اسألهم من أنا؟»

يعرف ياسين كيف يتفرس في وجوه الناس، وكيف يقرأ العيون ويطلّ منها على المستور. تمتد الأيدي، تتبادل التعازي، يصطفون حاضرين ولكنهم غائبين، يطالع وجوههم جميعاً، الواحد تلو الآخر يطل غضباً وعناداً دفينان من قسّمات وجه أحمد عبد القادر الأسمر، هذا الصعيدي المتشبت بكل ما يقوم به، خطأه وصوابه، يتبادلان لحظة صمت، في عمق عينيه يقرأ ياسين حزنه رغم العناد. شريف سماحة غير أبه بشيء ويخفي تحديه تحت وجه محايد يدّعي الحداد، يرمق الجميع بنظرات وكأنه في ساحة قتال وليس في سرادق عزاء. عاطف يبكي ويشدّ على الأكف ويوزع كتيبات صغيرة فيها آيات قرآنية وأدعية، يسأل الجميع الدعاء للمتوفى. يتلفت كثيراً ويقع بعينه على جميع الحاضرين ولكنه يتحاشى ياسين، لا ينظر في عينيه. تسع سنوات رافقه فيها والآن لا ينظر إليه عندما يتصافحان،

ياسين يرمقه للحظات ويغوص فيه، يرى جلياً الأشياء التي لم يطاوعه قلبه طويلاً على تصديقها كريم عمر شارداً في ذاته، الصدمة أسكنته فراغ الغياب ومينا إلى جواره يدخن في صمت. عرفة الدب يجلس في ركن بعيد يبكي كطفلٍ فقد أبويه، يجهد بالبكاء فيهتز جسده الكبير أدهم ينظر إلى ياسين وكأنه ينتظر إجابة، تطل من عينيه أسئلة الماضي والحاضر والمجهول، يندس في الصف إلى جواره وكأنه يلتجئ إليه، من ثم يضمنه الحزن فيمر على الرفاق الواحد تلو الآخر منتهياً بالبكاء على أحد المقاعد.

أين إبراهيم الكومي؟ ألم يغادر قبر صديقه بعد؟ لقد ارتمى على النعش ولم يخلصوه من يديه إلا بعد أن ضمّه ياسين إلى صدره وانتزعه انتزاعاً، بكى وناح وارتدى أرضاً كثور مذبوح. لا زال الكومي غير مصدق أن مروان قد مات ولم يأت للعزاء. درويش يجوب السرادق ذهاباً وإياباً ثم يرتدي على المقعد المجاور لحسين. حسين هو الذي كفن الناجي، هو الذي أشار لياسين أن يؤم الصلاة، هو الذي أقام السرادق، هو الجالس هناك مبهم الملامح

شيماء البهي وسلمى خورشيد كانتا في انتظار ياسين عندما خرج. بصحبتهم فتاة لا يذكر أين ومتى رآها من قبل؟ تبكي وكأن شتاء صامتاً يطل من عينيها من هي؟ هذا الوجه الجميل يحمل حزناً صادقاً، لا يقوى ياسين على احتمالها. من تكون؟ وكيف يكون هذا الوجه الأكثر صدقاً بين الجميع؟

شيماء لا تصافح كفه، بل تتشبث بها وكأنها تغرق. سلمى غاضبة كالبركان. ترسل لعناتها في وجه كل من يخرج من الرفاق.

بصقت على سماحة عندما خرج وسبته، فأشاح بيده وابتعد. نعتت عبد القادر بأنه فاقدٌ للرجولة، حتى حسين لم يسلم منها ووصفته بالأهبل عندما طالعها مستفهماً

كل الوجوه مكسورةٌ رغم العناد، كل الوجوه تنكر بعضها البعض، كلهم فرادى كجزر فرقة الطوفان. خرجوا من السرادق الواحد تلو الآخر يترنحون، لم يجد أحدهم في الآخر صحبة يسير معها، حتى من خرجوا منهم مترافقين كانوا كظلال شاحبة تتورأى في الخطى الهاربة. لم يكلم أحدهم الآخر، لم يكلموا سوى أنفسهم.

«سفترق؟.. نعم سفترق فهذا الدرب لا بد أن يقود إلى مفترق.. سيمضي كلٌّ منا في اتجاه، وسنصير فرادى كل واحد منا يمضي إلى حال سبيله.. أليست تلك هي الحياة؟.. كل منا يسير نحو وحدته.. نحو ذاته التي ينتهي إليها.. سنمضي مبتعدين حيثما تتشعب الطرقات.. سننتقل على كل شيء ولا شيء.. سننتقل على كل معنى حتى تصبح كل المعاني خاويةً من كل ما كانت تحمله.. سفترق هنا ولن نلتق سوى في الذكريات ونواصي المقاهي صدفةً.. ستظل وجوهنا حاملةً الملامح نفسها ولكن ستغيب كل الأشياء التي عرفناها عن بعضنا وسنظل مجرد ملامح لأشياء كثيرة ضائعة.. سفترق بلا عودة.. وحتى لو التقينا في أي زمان أو مكان سنكون غرباء.. غرباء حتى عن أنفسنا كلنا صار يخاف الآخر.. نخاف تلك الغربة التي خلقناها من باطن هواجسنا.. نخاف طعنات القدر المتمثلة فيّ وفيك.. نعم كان حلمنا واحد.. انبثق من أرض واحدة وشارع واحد.. الرصيف نفسه والقدر

المُرّ نفسه ولكننا انقسمنا عند مفترق الطرق.. كل منا حمل
أحلامه وحده ومضى بها في طريقه.. وفي طريقه صار يلعن
الآخر على الملاء.. صارت الطرقات كخناجر تقطّعوننا وتمزّقنا..
كل منا صار وحيداً في وجه العاصفة».

لمح الرجلَ الغريب وسط الزحام، تلك كانت المرة الثالثة التي
يلمحه فيها، مطّ رأسه فوق الأكتاف التي أحاطت به ليتأكد أنه هو
ولكنه لم يلمح سوى رأس تواري بين المغادرين، أيعقل أن يكون
هو؟ أم أن عينيه اختلطت عليها؟ ترك يد شيماء ومضى بضع خطوات
محاولاً اللحاق به ولكنه تراجع فجأة. هاتفٌ ما قال له: عُدّ.
أما الغريب فتلاشى هناك وغاب في زحام الناس.

الغريب

أنا ظلّ الغريب

أينما ذهب أتبعه

المجد للمجهولين .

يسير مكتسحاً كلّ ما هو أمامه، يمضي دون أن يستوقفه شيء وقيل أن تدركه الاتجاهات . وسط ضباب الدخان الخانق والمسيلّ للدموع، لم تسقط منه دمعة ولم توقفه طلقات الرصاص ولا سيارات الأمن المجنونة في الطرقات . كانوا يحتمون خلفه ويسيرون في ركبه وكأنه سفينة كبيرة تمضي بهم نحو برّ الأمان . أصابت الشظايا ثلاثة ممّن يتبعونه ولكنه مضى ولم يتوقف ولو للحظة، يرفع العلم وكأنه على يقين من النصر وماضٍ إليه بكل ثبات . خطواته تدوس الأرض المخضبة بالحجارة والشظايا وفوارغ القنابل وبقايا الدروع المهشمة، كانوا يصورونه بكاميرات هواتفهم وكلما تقدم في العمق أكثر يستأسدون محاولين اللحاق بخطواته الواسعة . تعلوا حناجرهم بالهتافات وينطلقون نحو المعركة التي اقتحمها قبل أن يتلاشى وسط سحب الدخان . بحثوا عنه في كل مكان فلم يجدوه ولم يستدلوا له على مسكن أو محبس أو حتى اسم فأسموه «الغريب» . صورته فقط

ظلت ثابتةً في الأذهان ومسجلة في الصور والفيديوهات، لتبقى شاهدة على وقائع تلك اللحظات التي غيرت التاريخ، وعلى أن الغريب كان حقيقياً ولم يكن ضرباً من ضروب الخيال. وقع أقدامه ظلّ محفوراً في أسماع كل من مرّ بهم في تلك الليلة، وكلما تذكره غابوا في طيات اللغز الذي لم ينكشف بعد. من كان؟ وإلى أين مضى؟ وكيف اختفى؟ كأن الأرض ابتلعتة أو تبخر في الفراغ؟ بقي السؤال حائراً والقصة متوارية خلف المجهول.

«قد تغادر الميدان ولكنه لن يغادرك أبداً.. سيظل يلاحقك

وسيبقى كامناً في ذاتك مهما تداعت عليك الأحداث».

يهبط الليل فينتابه الحنين للميدان وكأن المفقود سيعود حتماً ذات يوم إلى ساحة المعركة. بعد الثورة بشهر أتت إلى مقر الجبهة سيدهُ عجوز محنية الظهر تدقّ الأرض بعصا قديمةٍ وقابلته، نظرت إليه نظرةً عميقة ثم قالت

- انتوا شباب الثورة؟

ابتسم لها وأراد أن يجلسها، فأبت وظلت ترمقه طويلاً بحدقتين لا تزيغان ولا تتزحزحان عمّا تريدان، أخرجت صورة من كيس قماشٍ قديم ورفعتها أمامه:

- ابني طه.

دقق ياسين في الصورة، يا الله. إنه هو:

- الغريب.

تشبث به كأنه طوقٌ لاح لغريق وقالت:

- اسمه طه عبد الله الطواف.

- إحننا نعرف إن اسمه الغريب علشان في ناس قالت إنه من السويس .

- دلني عليه بستر ك ربنا

أصابه الحزن والوجوم ولم يعرف ماذا يقول فناشدته :

- شوفته يا بني؟

كان في التحرير ليلة جمعة الغضب .

اتكأت عليه وارتحلا سوياً ينقبان عن الغريب المفقود بلا أثر، زارا خيام الاعتصام، مرّاً على شباب الثورة والحركات السياسية، فتشا في كشوف المنظمات الحقوقية وأسماء الشهداء والمعتقلين ولكن لم يستدلا عليه . ذهب معها إلى السويس وقابل شباب الحركة هناك وشكلوا فريق بحث، تواردت معلومات أن الكثيرين يعرفونه وكان وسطهم في معارك ميدان الأربعين ليلة السابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير

مرت عدة أشهر على زيارة العجوز قبل أن يظهر الغريب ثانية في شارع محمد محمود، لمحّه ياسين يمرُّ بين ضباب الغاز عندما بدأت المعركة ثم توارى . ظنَّ ياسين بأنه يتخيل ولكن الكومي هتف «طه الغريب»، وبعدها ظهر أدهم قادماً من الأمام ليؤكد أن طه الغريب ما زال حياً أرسل ياسين في الصباح التالي إلى أمه في السويس مراسلاً ليخبرها بأن طه حي ولكن المرسال أتى بأخبار حزينة، لقد ماتت الأم منذ أسابيع قليلة .

في الليل يتذكر الغريب متجهاً نحو الخطر . قليلون هم أبناء اللحظة، أبناء اليقين والصعب، هؤلاء المارون نحو المجهول . ما

زال يتردد صوت الكومي في رأسه عندما هتف باسمه، لقد رآه
بوضوح قبل أن يغيب مرةً أخرى في غيوم الدخان المنطلق من فوهة
الشارع الملبد بالحطام والغضب.

الغريب ابن اللحظة المنطلق نحو الطوفان. كم في الأزمان من
لحظات فارقة تمرق كالبرق؟ لحظات إن تملكتها امتطيتها وعبرت.
ليس للغريب من أثرٍ يُقتفى، لمحّه للمرة الثالثة يوم العزاء، كان
حاضراً ثم غاب.

الذكرى الأولى

أنا الرقم المعاد

أنا الذكرى المصابة بفقدان الذاكرة.

الدرس الخامس والعشرون في علم السياسة: الأحلام نسبية.

في الرابع والعشرين من كانون الثاني/يناير دبت الخلافات في مقر الجبهة عندما صرّح عاطف في صباح ذلك اليوم عبر صفحات الجرائد بأنّ الجبهة ستحتفل بذكرى 25 يناير في التحرير. أنت شيماء البهي غاضبةً إلى اجتماع الجبهة ودخلت في معركة كلامية مع عاطف، الذي ردّ عليها بأنّ عليهم أن يحتفلوا بما تحقّق إلى الآن من خلع الرئيس السابق ومحاكمته وانتخاب البرلمان. اتهمته شيماء بخيانة دم الشهداء وحقوقهم الضائعة، ولكن عاطف نجح في امتصاص غضب الكثيرين عندما أعلن ذلك كرسالة من الجبهة للجميع بأن الثورة مستمرة في الميدان. خرجت الجبهة ببيان ناشدت فيه بالنزول وتمّ تحديد مطلبهم بانتخاب رئيس وتسليم السلطة. تمّت صياغة هذا المطلب من قبل الرفاق مراتٍ عديدة، واقترح درويش أن يُصاغ المطلب في صورة حماية الجيش وتفرّغه لمهامه بتسليمه السلطة لرئيس مدني منتخب. أصر كلٌّ من عبد القادر ومينا وسلمي

وكريم على أن يكون مطلباً وحيداً دون مطالب أخرى، ولكن عاطف حاول إضافة مطلب القصاص للشهداء. لم تفلح محاولاته حتى عندما شرح كيف أن حق الشهداء يحرك الناس ويزيد الحشد. نظر كريم عمر إليه بغيظ مكبوت موقناً أن عاطف يلعب على البُعد العاطفي كعادته، أما شيماء برغم كرهها لآراء عاطف فقد وافقته الرأي وكذلك عرفة الدب، بينما مال درويش لرأي المطلب الوحيد. لتتجه الأمور في المكتب السياسي نحو صياغة البيان بمطلب وحيد وهو تسليم السلطة. بدا أدهم عاجزاً عن المشاركة برأي ما وعندما حاول أن يقول شيئاً كانوا قد بدؤوا بالعمل، ولكن تساؤلاً ما ظلّ يجوب رأسه، يأتيه من قرار بعيد، ماذا عن رأي مروان الناجي؟ ماذا كان سيقول؟ ما الذي كان سيفعله؟ ربما كان سيصدمهم برأي مختلف. لم يتفقوا مع آراءه منذ أيام الميدان، أدهم كان يصدقه، كان يشعر بأن مروان يعرف، بأنه الوحيد الذي يفهم، بأنه الحقيقة. كان يقول له دوماً «اصنع دورك بنفسك ولا تنتظر أن يعطيه لك أحد» جذبته سلمى فجأةً خارج الغرفة، انتزعت من أفكاره وألقت في يده المنشورات لطبعها

مضت الجبهة تعمل بأقصى طاقتها كخلية نحل كبرى، تمّ نشر البيان وطباعة المنشورات واللافات و حددت أماكن التجمعات مع التأكيد على السلمية. نسق الدب ومينا مع مكاتب الحركة في المحافظات بينما تولت سلمى الإشراف على المنشورات، فتح عبد القادر ودرويش وكريم خطوط الاتصال مع الحركات الثورية الأخرى للتنسيق، بينما مارست شيماء دورها الإعلامي وقامت باتصالاتها الهاتفية للتحدث مع الفضائيات والصحف عن موقف الجبهة. الرفاق

في أوج نشاطهم السياسي مقبلين على الميدان من جديد في الذكرى الأولى للثورة.

يقف أدهم بجوار ماكينة التصوير التي يمرّ فيها خط الضوء الرفيع المرة تلو الأخرى، الورقة تلو الورقة والنسخة تلو النسخة، بينما يخفت سواد الحبر مع الوقت. مروان يتوارى هناك في مكان ما بعيد. تحدّثه نفسه، لو كان مروان بالفعل حقيقة فكيف تحول إلى سراب؟

أعلنت جبهة المنشقين بقيادة شريف سماحة في الليلة نفسها النزول أيضاً وحددت عدة مطالب منها إسقاط حكم العسكر ووقف المحاكمات العسكرية بالإضافة إلى التعجيل بوضع دستور وإيقاف انتخابات الشورى.

شريف سماحة الملقب بالناشط السياسي والعضو السابق بأحد الأحزاب الليبرالية لا يتحرك إلا عندما توجه نحوه الكاميرات، نجم الفضائيات والضيف المفضل دائماً لمحطات الأخبار الأجنبية. شرسٌ في مواقفه وعدوانيٌّ مع الجميع، ماكينة ضجيجٍ تجوب محطات الأثير وشعلةٌ محترقة في نشرات الأخبار. يتباهى بتاريخه السياسي ومواقفه ضد النظام السابق كأنها نيشان على صدره، تم القبض عليه عدة مراتٍ قبل قيام الثورة وحاكموه عسكرياً في الربيع الذي تلى الثورة ثم تمّ العفو عنه عندما حركت الجبهة مظاهراتٍ ضخمة ضد المحاكمات العسكرية. بعدما أفرج عن سماحة صار أشرس من الأول، وانقلب على الجميع بلا استثناء حتى على من

ساندوه. كان الأشهر إعلامياً بين الرفاق ممّا أتاح له بسهولة اجتذاب شبابٍ جدد يعملون على الأرض تحت لوائه. ناصبه الرفاق العداء وتكتلوا ضده وضد كل من يؤيده. ففي الصيف الأول بعد الثورة اشتعلت الجبهة لعدة أسابيع مهددةً بالانقسام، حتى الرفاق غير المؤيدين لتوجهات عبد القادر قرروا أن يساندوه معتقدين أنهم يحمون الجبهة من الانقسام. تأجج الصراع بين عبد القادر وسماحة في أروقة المقر، وظهر الجميع على وسائل الإعلام مختلفين ولا أحد يتفق مع الآخر وحدهما ياسين السحرتي ومراون الناجي اللذان ظلّا متفقين لا يختلفان أبداً، يتحركان ككتلةٍ واحدةٍ بين الرفاق. أعاد مروان ترتيب الهيكل السياسي للجبهة ونظم الانتخابات الداخلية، بينما احتوى ياسين الجميع بقدرته على التأثير بما فيهم شريف سماحة الذي أذعن لياسين وقرر خوض الانتخابات ضد عبد القادر والاحتكام إلى الديمقراطية.

أتت الرياح بما لا تشتهي السفن؛ اكتسح شريف سماحة الانتخابات بفارقٍ كبير عن عبد القادر وظفر بمنصب المنسق العام. ألجمتهم الصدمة، كيف حدث هذا؟ اتسعت الهوة بين الجميع وهدد بعضٌ منهم بالانسحاب من الجبهة في حال تولي شريف سماحة المنصب. جنّ جنون شيماء البهي ورفضت النتيجة واتهمت عاطف، القائم على الفرز، بالتزوير فما كان من عاطف سوى أن أخرج محاضر الفرز وألقاها في وجهها هاج عبد القادر واتهم الجميع بالخيانة وبالتآمر عليه، في حين لأم درويش كلّ من عرفة ومينا واتهمهما بالتقصير في الدعاية لعبد القادر بين شباب الجبهة في المحافظات. طالب كريم بالتفاوض مع سماحة وحمله على التنازل

ولكن سلمى اشتبكت معه واتهمته بأنه ساذج، فما كان منه سوى أن غادر المقر ثم تبعه الرفاق الواحد تلو الآخر ولم يبقَ سوى مروان وعاطف وياسين. جمع مروان الأوراق المبعثرة على أرض الغرفة وأخذ يطالعها بصمت. في حين كان ياسين واقفاً عند باب الشرفة يحدق في الطرقات غارقاً في أفكاره. أما عاطف فكان جامد الوجه، تشير قسماته دوماً نحو لا شيء. في تلك الليلة العاصفة وقبل أن يهجم مروان بإطفاء الأنوار لمغادرة المقرّ قال عاطف بهدوء حذر:

- أنا عندي حل.

قال مروان متعلماً وهو يتطلع نحوه بلهفة:

- قو . و . وله

- نعلن تقسيم الجبهة.

أصاب الاثني عشر في مقتل فنظروا إليه مستنكرين، ولكنه تابع قائلاً

- في كل الأحوال شريف لو مسك إحنا هنتقسم ولو اعترضنا على النتائج هنبان قدام الناس والإعلام إننا مبنحترمش الديمقراطية. يبقى الحل إننا نعلن رسمياً انقسامنا بنفسنا وكأن الانتخابات لم تكن. هو يحكم أنصاره وإحنا نفضل بتنظيمنا القديم اللي شكلناه في التحرير

ظل ياسين يرمق عاطف ولكنه تجنّب نظراته وتحول نحو مروان متابعاً

- هنطلع نقول إن شريف عاوز يحولنا لحزب سياسي وأظن دي رغبته المعروفة للجميع وإننا رفضنا لإننا عاوزين نفضل حركة ضغط ثورية وأعتقد أن معظم شباب الجبهة معارض لفكرة تحويل الجبهة

لحزب . وبكده نبقى زنقنا شريف ويبقى هوا يشكل حزب بنفسه .
لو عرف .

صمت مروان قليلاً ثم قال :

- بس أنا . . . ن . . . ن . . . ته . . . ك . . . ن . . . ن . . . ت بتأيد فكرة تحويل
الجهة لحزب س . . . سياسي
قاطع عاطف :

- دلوقتي الموقف اتغير أنا مع روح الجماعة . الأغلبية
رفضت الفكرة ومش فاضل غير أنا وأنت والسحرتي اللي كنا مؤيدين
فكرة التحول لحزب . إحنا التلاته لو أعلننا بكرة موقف موحد كده
هنرمي الكورة في ملعب شريف سماحة وبقي لوحده .

لَوْح ياسين بيده غاضباً واحتد على مروان بعد رحيل عاطف ،
ولكن مروان ضغط على ياسين بكل الطرق ليقبل هذا الحل في
صباح اليوم التالي تمّ الإعلان عن انقسام الجبهة ، ودوّت الأنباء في
الصحف وخيام الاعتصام وأروقة الجبهة . خرج الكثير من شباب
الجبهة يهتفون ضد المكتب التنفيذي وضد الرفاق المؤسسين .

أنا سم العسل

أنا هزيمة النصر

في تموز/ يوليو وبعد خمسة أشهر من تأسيس الجبهة ، ضربتها
الانقسامات كالخناجر . تفكّكت الجبهة بسرعة لم يكن ليتخيلها أحد
وكأنها صدغٌ تملّك منه زلزالٌ ولم يتركه حتى فتقهُ نصفين متباعدين .
ظل ياسين صامتاً لعدة أيام واجمّ الوجه وكلما نظر إليه مروان أحس
بأنه اقترف ذنباً ما بينما بدأ بعض الرفاق سعداء وكأنهم أزاحواهما

كبيراً يُدعى شريف سماحة عن كاهلهم .

يتذكر ياسين تلك الليلة، يوم أوحى عاطف بفكرته لمروان .
سكبها في رأسه كالمعدن المنصهر، هذا المعدن المنصهر تجمّد
وصار قصباناً لا تنزع ولا تترشح
الدرس الرابع والأربعون في علم السياسة: تأتيك الهزيمة من
الخلف عادة.

* * *

«عندما يعلو الظل فوق الرؤوس وتنام الخطوات في كنف
الظلام.. سيأتي قادماً من بيوت الغياب.. سيحن للحلم الذي
يناديه من جوف الأحزان.. سيعود إلى الأرض وإلى الوطن
وسيقف هنا عندما يذهب الجميع»

كان الميدان في تلك الليلة يرقد في جوف ليلٍ سحيقٍ باردٍ . يمر
ياسين وحده متلمساً الأرض التي يحن إليها، أتى بعد أن ذهب
الجميع وتوقف .

على هذه الأرض نبت الحلم . هنا كانوا يتجمعون في الميدان
في حلقات، ملتفين كأوراق الورد التي تهفو للحياة . يعزفون الإيقاع
الهادر ويصفقون على قلب رجلٍ واحد ويعلو الغناء بينهم . أدهم
يطلق العنان لصوته الجميل «شيد قصورك على المزارع من كدنا
وعرق إيدينا»، يدق الكومي على دفّ كبير ويشدو مينا ودرويش
وسماحة وعبد القادر وكريم وعاطف «والخمارات جنب المصانع
والسجن مطرح الجنينة» . ينضم إليهم العشرات من الثوار ويرددون
بحناجر لا تخشى شيئاً «وأطلق كلابك في الشوارع وأقفل زنازينك

علينا». شيماء توزّع زجاجات الماء على الجموع ويعلو الغناء «وقل
نومنا في المضاجع أدي إحنا نمنا ما اشتهينا». تتسلل امرأة
عجوز بجلبابٍ أسود وتغني معهم «وأثقل علينا بالمواقع إحنا
اتوجعنا وانتفينا»، ينظر ياسين إليها فتدمع عيناه، تقترب منه وتمسح
وجهه بحنان ثم تعطيه لقمة خبز من كيسها ويستمر الهدير «وعرفنا
مين سبب جراحنا وعرفنا روحنا والتقينا». يرسم عرفة الدب علم
مصر على وجه سلمى وهي تغني «عمال وفلاحين وطلبة. دقت
ساعتنا وابتدينا» يعلو صوتهم مع الأعلام المرفرفة فوقهم «نسلك
طريق مالهش راجع والنصر قرب من عينينا» مروان يشدو ولا
يتلعثم، عيناه تلمعان بالأمل وهو يغني «والنصر قرب من عينينا»
تلك الأرض شاهدة على الحلم. إلى هنا أتوا ليقفوا على المساحة
نفسها النابضة في قلب الوطن.

هزته الذكريات بعنف حتى أدمعت عيناه ومضى وحيداً حتى
انتهى إلى شارع محمد محمود، هنا نازعه الألم ودق قلبه، هنا
صرخت فيه الجدران وهذت هذيانها الأخير هنا اكتشف الحقيقة
عندما رأى أدهم يهرول وسط الضياع الكبير، هنا أطلت الحقيقة التي
صفعته، هنا تجلى أمامه الخداع البصري وخفة الساحر، هنا
انكشفت أمامه لعبة الأرض المحروقة يقف أمام الرسوم حزيناً،
شارداً، غائباً لزمان طويل حتى يقطع الصمت فجأة صوت يعرفه

- أنا كنت مستنيك. كل يوم بستناك هنا

التفت ليجده واقفاً هناك وسط ضباب الليل كأنه علامة غارقة
في ظلام المحيط، تطل عيناه من المطلق الغائر في أفق الطريق. لم
يقل ياسين شيئاً، وظلّ واقفاً ينظر إلى الجدران. يفصل الصمت

بينهما كأن ساحلاً من الغياب مرسومٌ هنا لا يشعر ياسين بأحد الآن، ولا حتى بنفسه.

دوى صوت مروان قادمًا من المذكرات يهتف «لم نعد كما كنا». يضربه الصوت في غياهب المشاهد المتداخلة كخيوطٍ ويقع ألوان بعضها يضرب بعضاً الرفاق يهتفون في قلب الميدان ثم يرسمون على الجدران غرافيتي صامت كتوابيت حفرت في الرخام. شاشات البث تبث لحظة التنحي ثم تتحول إلى نتائج الانتخابات ثم ينقطع البث فجأة وتشوش الصورة فيقفز الكومي بعضاً ليهشم التلفزيون ويزيحه جانباً ثم ينطلق محطماً بضربة من كتفه الجدار. يخلع قميصه ويعدو في الشارع، يتبعه أدهم وفي يده زجاجة المولوتوف وتدق الطبول. يدوي صوت الكومي هناك وهو يفتح صدره «أبعت هات كمان قناصة لسه في جسمي مكان لرصاصة» يعود كل شيءٍ ليدور داخل شاشة البث ويزوي صوت الشارع رويداً قبل أن تطل صورة كبيرة لعاطف بالبدلة وربطة العنق وهو يردد «الانتخابات. الصناديق. والـ. يختفي ويظهر عبد القادر ليقول «أهداف الثورة وحقوق الـ. يختفي وتظهر شيماء لتقول «الثورة مست.» فينقطع الصوت ويظهر على الشاشة شريف سماحة منفِعلاً ملوحاً بيديه محركاً شفّتيه ولكن بلا صوت، حتى ينقطع البث ثانية وتشوش الشاشة طويلاً إلى أن يظهر مروان الناجي في صورته الأخيرة، نحيلاً هزياً وصامتاً

لا يشعر بالأرض حيث يقف هنا، حيث كنا نقف. صوت داخلي يقوده: «ليس هناك ما أرغب بفعله، ليس هناك ما أود قوله لأحد».

أنا المسافة بينك وبين نفسك

أنا حريك على ذاتك .

يمضي ياسين هناك مبتعداً في الطرقات وحده، كانت الأرض
تميل خلفه نحو الوجع .

قرب المبنى القديم وعلى بعد أمتار ظل متشبهاً بالظلام، شعر
بطعم مرّ يسيل في حلقه . يفكر بما سيؤول إليه الغد، هل نأتي إلى
الميدان؟ هل نحن مستمرون أم لا نتحرك من هنا؟

يعتريه الغضب الآن ويضرب بكفه الحائط وهو يمرّ مبتعداً يقفز
القرد على كتفيه ويغمي عينيه بكفيه . كلُّ شيء يدقُّ كطبولٍ تقترب،
كلُّ شيء يتصارع مع اقتراب الخطر .

لا يقوى على السير خطوةً أخرى، يتوقف عند نهاية الشارع
ويظل صامداً حتى يهدأ يتذكر الهاتف آتياً من بعيد، يستجمع قواه
ويواصل المسير سيأتي إلى هنا غداً وسيظل يأتي . هنا كان كلّ ما
تبقى له من الحلم .

أنا الأرض التي تدنو ثم تبتعد

أنا قدرك التائه

أنا اللعنة الكبرى .

التنظيمي

أنا الصفعة المتربصة

أنا هزيمتك المنكرة.

لا تضعف! الضعف رفاهية لا يقدر عليها أحمد عبد القادر ولا يجرؤ حتى على البوح بها، هكذا مضى يحدث نفسه، لا يستطيع الانكسار ولا يقدر على تحمله. يجب أن يروا فيه الوجه الواثق المبتسم دائماً، يجب أن يستمر مهما حدث. الجبهة فكرة لن تموت، الجبهة ليست أشخاصاً مهما تساقط من حوله الرفاق يجب أن يواصل بالبقية الباقية، سيبتلع المرارت الواحدة تلو الأخرى وسيواصل. لم يأت تلك المسافة الطويلة ليتراجع، هو في قلب المعركة وكل الأسلحة الآن مباحة. لو غفل لحظة، لو تراخى، سيمزق إرباً وستسحق عظامه. يضيق الخندق المحصور فيه، ويجب أن يجد مخرجاً، ولكن كيف؟ باتت الأرض وعرة والجبهة تتفكك كل يوم أكثر تحت وطأة الخلافات. أنانية شريف هي السبب، النخب السياسية التي لم تتوحد هي السبب، النخب السياسية هي السبب، الاختراقات هي السبب. الشعب لا أمل فيه ولا يريد التغيير الإعلام يهاجم الجبهة بقسوة مؤخراً والحماس يخبو في

الرفاق الباقين. لم يتبقَّ في خندقه سوى شيماء البهي بدورها الإعلامي وعاطف الصديق الموثوق فيه. ما إن مضت الذكرى الأولى للثورة حتى بدأت المشاكل تحدث. ربما عليه إعادة تشكيل المكتب السياسي مرةً أخرى، يجب هيكلة التنظيم وتهيئة عاطف ليملاً الفراغ الذي تركه ياسين السحرتي - ياسين الذي ترك أصدقاءه في ذروة الأزمة - تُرهقه تحليلاته وتشحن رأسه بالمزيد من جرعات الغم.

يلعن في سره الجميع وهو يخرج من محطة المترو متجهاً نحو المقر بعد أن غاب ثلاثة أيام أمضاها في رحلة أوروبية بدعوة من مفوضية الاتحاد الأوروبي لنشطاء الديمقراطية في دول الربيع العربي. كان درويش في انتظاره بخبر استقالة إبراهيم الكومي من الجبهة. هاج عبد القادر وأخذ يسبّ ويلعن الجميع بأعلى صوته، اتهم الرفاق بأنهم أطفال ولا يقدرّون المسؤولية. مساءً آخر من الغضب المتأجج ضرب غرف المقر الشاحبة، اتهامات عبد القادر كالعادة نالت من الرفاق الواحد تلو الآخر يقف في منتصف غرفة اللجنة المركزية معبأً بمرارة الخيانة ولا يعرف ماذا سيفعل الآن؟ ليس أمامه سوى أن يجد الكومي، فانطلق مندفعاً إلى الشارع متخبطاً وسط صراع من الأفكار لا يتوقف. لم تعد الجبهة لتحتمل فقيداً آخر، عليه أن يبحث عن الكومي ويقنعه بالتراجع. فتش عنه على مقاهي البورصة وفي كل شقّ في الأرض، ذهب إلى أصدقائه، اتصل بأدهم فأخبره أنه متغيّب منذ أيام. اتخذ الخطوة الأخيرة وقرر الذهاب إلى بيته في حلمية الزيتون، ما إن أطل بوجهه حتى انفجر فيه الأسطى سعد الكومي والد إبراهيم، سبّه وسبّ الثورة وشبابها وشم

ابنه المتغيب منذ أيام وصفع في وجه عبد القادر الباب. نزل إلى الشارع محملاً بالأسى بعد أن تلقى صفةً جديدةً ستُضاف إلى سجلّ الأيام الماضية المكتظة بالخيبات. لحق به أمين الكومي، الأخ الأكبر لإبراهيم محاولاً تطيب خاطره ببعض عبارات الاعتذار عن ما بدا من أبيه. قرّر أن يمضي معه للبحث عن الشقي العنيد، في الطريق حكى له أمين عن المشاجرات اليومية المتوالية بين إبراهيم وأبيه. منذ أن بدأت الثورة وإبراهيم في نظر أبيه «بلطجي» في كل ليلة يعود فيها إبراهيم من الميدان ووجهه مغطى بآثار الغاز وعلى ملابسه بقايا دماء يهيج الأب وينعته بالفشل ويأنه هو وأمثاله من يحرقون البلد. يتطور الشجار في بعض الأوقات وينهال الأب على إبراهيم بالضرب. لا يفهم أمين لماذا كان أخوه عنيداً إلى هذا الحدّ. في كل مرة يصفعه أبوه يردد «اضرب اضرب»، حتى يتدخل أمين ويحول بينهما يلوم أمين إبراهيم على أفعاله فهو غير مقتنع بأسباب نزوله إلى الميدان، تحمل كلماته عتاباً يشعر به عبد القادر الذي تتجمع في رأسه نظريات متشعبة وهو يسير مع أمين. ربما جبن إبراهيم ولم يتحمل الضغوط فهرب، لا لا ربما انضمّ إلى جبهة المنشق اللعين شريف سماحة أو جره فصيلٌ سياسيّ معادٍ من هؤلاء الذين يحاولون اختراق الجبهة، هذه فكرة معقولة! إبراهيم الآن ضعيف وتسهل السيطرة عليه. انكساره بعد موت مروان الناجي جعله هشاً ويمكن التغرير به وجره في أي اتجاه. المترو يهتز بهم متجهاً نحو وسط المدينة بينما نظريات عبد القادر تتحول في كل لحظة من اتجاه إلى آخر

عندما عاد عبد القادر وأمين إلى المقر، وجدا كلاً من أدهم

ودرويش وعاطف ومينا منتظرين . سرعان ما احتدم الجميع في نقاشٍ حادّ حضره أمين من غير أن يفهم عمّا يدور ولا عن ماذا يتحدثون . اشتعل الحوار أكثر عندما أفصح عبد القادر عن أفكاره في اختفاء الكومي . يفرّغ عبد القادر أبعاد نظريات المؤامرة التي صاغها في عقله المشحون بتوتر . يتلو الاحتمالات الواحدة تلو الأخرى وعاطف يوميء ، يعلق ، يشارك بتلميحاتٍ قصيرة . يطلق عبد القادر ألقاباً من الشكوك لا تتوقف ، يشك في أن شريف سماحة استدرجه إلى جبهته ليعمل معه . فشريف لصٌّ ووعدٌ ويريد تشتيت جبهتهم بأي شكل ، يبحث عن أي منشقٍّ ليضمّه إلى جبهته لتبدو كأنها هي الجبهة الشرعية . في هذه اللحظة بدأ أدهم يكنُّ كرهاً لعبد القادر وعاطف سوياً طالع عاطف وهو يعدل من وضع نظارته ويقول :

- المكتب السياسي محتاج اسم زي الكومي . الكوادر الصغيرة هتتحمس لو شافت ده . ونبقى بكده صعدا واحد من فريق السحرتي ومروان الناجي وضربنا كذا عصفور بحجر واحد .

عن ماذا يتحدثون؟ يقول أدهم محدثاً نفسه والغضب يجتاحه ، كأننا قطع شطرنج لا دور لها سوى إكمال الصورة . إن عاطف ثعلبٌ لعين وعبد القادر ساذج ، يبحثون عن شراء الكومي بمنصب ! احتدّ درويش وتلاه مينا ، واتهموا عبد القادر بالسذاجة وبأن إبراهيم لا يعنيه في شيء . ظل أمين مرتكناً إلى الباب بجسده الضخم يتابع ما يحدث بقلق ، لا يفهم ما علاقة كل هذا بأخيه واختفائه . وفجأة ألقى درويش ظناً جعلهم جميعاً يصمتون ، ماذا لو كان الكومي قد اعتقل؟ أو ماذا لو كان البلطجية قد ظفروا به؟ تساءل أمين بقلقٍ شديد عمّا يقصدون بهذا الكلام؟ صدمه ردّ درويش بأن الكومي مستهدفٌ من

قبل الكثير من البلطجية منذ موقعة الجمل ، فقد بطش بالعديد منهم مما أثار ثأراً كبيراً بينهم لم ينتهِ بعد ، فقد كانوا يتتبعونه حتى على الفيسبوك ويتوعدونه . تذكروا أيضاً واقعةً أخرى تصدّى فيها الكومي للباعة المتواجدين في الميدان عندما تحرشوا بفتياتٍ من أهالي الشهداء المعتصمين هناك . تملك القلق من الجميع وخاصةً أمين الذي أصابه جزعٌ شديدٌ تركهم جميعاً صامتين لفترة ، قطعها مينا بإعلانه أنه على ثقة بأن البلطجية لن يقدرُوا على الكومي ، وأنه يميل إلى الاحتمال الأول بأنه ربما قد اعتقل بعد أن نصبوا له كميناً واعتقلوه في مكانٍ غير معلوم . ازداد القلق والخوف بينهم وصمت عبد القادر بعد أن أحسَّ بأنه أساء التقدير أخذوا جميعاً يفكرون كيف سيتحركون للبحث عن الكومي ! ولكن قبل أن يفرغوا من الحديث ودراسة تحركاتهم التالية ، ظهر الكومي عند باب الغرفة شارداً وخلفه عرفة الدب الذي هتف ضاحكاً

- عودة الابن الضال . لقيته قاعد على القهوة اللي تحت مزنوق في الكورنر جوه فشبهت عليه . قلت مش الواد ده البوب برضه ؟ لأ ومستخبي هنا ابن العفريته . كان بيبات في المقر ويدخل ويخرج من شباك المطبخ . ههههه

أصابهم جميعاً الصمت وكأن المشهد تجمد في لوحةٍ سرياليةٍ داخل إطار . رمق أمينُ أخاهُ بنظرةٍ غضبٍ طويلة ، بادلها إياها إبراهيم بنظرة . نظرات أخوة لا يفهمها سواهم . اقتلعه أمينٌ من على الأرض بضمة قوية ثم ربت عليه قائلاً

- أملك عامله مناخة في البيت وكل شوية تقولي انزل دور على الواد يا أمين .

قاطعہ عبد القادر ضاحکاً

- وأنا اللي قلت الكومي سابنا وانضم للأعداء .

تحولت قسمآت إبراهيم إلى الغضب ورد محتداً

- أعداء مين؟! إبراهيم عمره ما اتخلى عن أصحابه يا عبد

القادر . أنا مش للبيع ولا أنا اللي بسيب أصحابي في وقت الشدة

وأنتم كللكوا عارفين . ومش أنا اللي بطلع إشاعات وسخة زيك .

أنا عمري ما خنت الثورة بصفقات من تحت ولا طعنت في أصحابي

بإشاعات .

هاج عبد القادر وقفز من مكانه قائلاً

- قصدك إيه يا إبراهيم؟

- مش هينفعك إبليس اللي إنت ماشي وراه وييجرك للوساخة .

إنت وشريف سماحة من طينة واحدة . إحنا وقفنا وراك ضد شريف

بس للأسف طلعت أوسخ منه .

أمسك عبد القادر إبراهيم من ياقة قميصه وهو يصرخ في وجهه

متوعداً، ولكن الكومي لم يهتز وأشار نحو الجميع بالابتعاد، أزاح

يد عبد القادر بهدوء قائلاً

- أنا هسحب استقالتي علشان أصحابي قررت ما سيبهمش

ومش هنسيلكوا الجبهة . بس من النهار ده إنت سقطت من نظري

للأبد ومسيرى معرف مين طلع الإشاعة وهسحله .

تراجع عبد القادر إلى الخلف خائفاً من الكومي بينما رسم

عاطف ابتسامةً مستهزئةً على وجهه . أما الرفاق المذهولون فضاوعوا

في متاهة الكلمات المتشابكة، حيث لم يكن أحدٌ منهم يعلم بعد شيئاً عن الإشاعة التي تحدث عنها الكومي. قبل أن يفيقوا من وقع ما انفجر أمامهم للتو، كان الكومي قد رحل لم يستطع أن يوقفه عرفة أو أمين بجسديهما الضخمين، انفلت منهما كالزئبق وتلاشى. لا أحد يقدر على الكومي، ولا حتى أمين بقوته. يعرف كيف يتملص منذ أن كان صغيراً متمرداً، يفرّ في الشوارع هارباً عندما يحتدم عقاب الأب. لا أحد يقدر على الكومي العنيد، سحله جنود الشرطة العسكرية في فض الاعتصام ولكنه أفلت من قبضتهم. تحالفت عليه البلطجية في معارك عديدة فتصدى لهم وألحق بهم إصابات فادحة. لا أحد يقدر على قلب الأسد كما أطلق عليه مروان الناجي ذات يوم. جسده المتوسط الطول وكتفاه العريضتان، مدكوكٌ كحجر الصوّان الصلد، خفيف الحركة مروّعٌ عنيد. كان بطل الجمهورية في الملاكمة للناشئين، وما زال يحتفظ بالميدالية وبمشية الملاكمين. يرتدي المعطف الأسود ذا غطاء الرأس الذي لا يزيحه عن رأسه، تلك كانت طريقة مروان ناجي التي تعلمها منه. يدرس إبراهيم بكلية التجارة ويعمل أربعة أيام في الأسبوع بمطعم للوجبات الجاهزة ليغطي مصاريف دراسته. أبوه الأسطى سعد، رئيس وردية الصيانة بشركة للأوناش والمعدات في مدينة العاشر من رمضان. دخل الأسطى محدود ويكافح ليزوّج ثلاث فتيات، يساعده في المصروف أمين بعد أن ألحقه بوظيفة سائق ونش في الشركة نفسها يرى الأسطى سعد ابنه الصغير إبراهيم كمدللٍ أفسدته أمه، بلطجيّ طائشٌ منساقٌ خلف الثورة التي خربت البلد وأصابت شركته بالكساد ووقف الحال. كثيراً ما يقف أمين في صف الأب ولكنه كان يتسلل ليلاً في

بعض الأحيان ليجلس إلى جوار إبراهيم وهو يتصفح الإنترنت ثم يلح عليه :

- وريني ياد الكليب اللي صوروك فيه والعساكر مش قادرين عليك .

لا يكلُّ أمين من مشاهدة هذا الفيديو مراراً وتكراراً، ينتشي طرباً كلما رأى العساكر يتساقطون الواحد تلو الآخر كلما حاولوا الإمساك بأخيه، يغلبه النوم وعلى وجهه ابتسامة كبيرة .

* * *

أنا هاجسك المريض

أنا العمى .

كان عاطف آخر المغادرين من المقرّ في ذلك المساء المشحون . تبادل مع الجميع حواراً مقتضباً عمّا حدث دون أن يخبرهم بأي شيء ، قال إنه مثلهم يسمع لأول مرة عن إشاعة ما قد قيلت . مزح معهم معدّداً كم الإشاعات الساذجة التي تروّج كل يوم ، وربما كان ما يتحدث عنه الكومي واحدةً منها لم ينس أن يمتدح الكومي وإخلاصه مدعياً أنّ ما حدث هو مجرد انفعالٍ من انفعالات الكومي المعتادة . كان عاطف اللبق المفوّه دائماً حاضراً لينقذ عبد القادر من المواقف المعقدة . رحل الجميع من المقرّ إلا أحمد عبد القادر المنسق العام للجبهة ، ظلّ غارقاً في تحليلاته كالمبحر في بحر متقلب الرياح ، كلما تقفّى أثر فكرة تلففته فكرة أخرى لتنسف كل ما توصل إليه وتأخذه بعيداً ليجاهد وحده شطحاته . ما ذنبه في ما يروج من إشاعات؟

لم يكن يعلم في الحقيقة مصدر الإشاعة التي ترددت داخل أحد الاجتماعات عن شكوك أثيرت حول موت مروان مسموماً، ثم أعقبها إشاعة أخرى بأن مروان كان عميلاً أميناً تناسى الأمر وهو يهمهم محدثاً نفسه «شوية عيال سذج». لن أقف في منتصف الطريق، قال لنفسه، سأصمد حتى لو كلهم ذهبوا الثورة مستمرة وهم متخاذلون، كل الأسلحة مباحة الآن. من يتغلب على مَنْ؟ أحمد عبد القادر الثوري أم أحمد عبد القادر السياسي؟ الاثنان لا يلتقيان، لكلٍ منهما حسابات مختلفة. خطان لا يلتقيان مهما تلاقت الأحداث على خط النار.

يغيب التنظيمي في عالمه المعقد كأنه يرتدي نظارةً تغيّر ألوان الأشياء، هو الوحيد الذي يطالع ألوانه المختلفة. نظر في ساعته وأيقن أنه قد تأخر على لقائه ببعض قيادات الأحزاب المدنية، فهبَّ من مكانه وتوجّه إلى خارج المقر مفكراً في محاولةٍ لصفّ أفكاره المبعثرة. لا يجب أن يشعر الأطراف بانقسامات الجبهة مهما حدث، سيصيغ رأي الجبهة في ذهنه وحده، وهو مَنْ سيتحدّث عن قرارات مجلس الشعب الأخيرة، والمرشح الذي سيدعمونه في انتخابات الرئاسة القادمة. بلى، سيرتب كل شيء وحده.

رتب كلماته وقرارات الجبهة وهو يدلف إلى المؤتمر ورسم على وجهه ثقةً واعتداداً ثورين يجيدهما جيداً

البهلوان

أنا بهلوان هذا الزمان
جئت لأسخر منكم وأطلق ضحكتي الأخيرة في الفضاء قبل
فوات الأوان.

من زاوية الشارع لمح حسين قابعاً خلف الفاترينة يتابع أخبار
المؤتمر في التلفزيون، دلف إلى المحل الصغير الضيق وجلس
واضعاً يديه في جيبه مطأطئاً رأسه ودون أن ينبس بكلمة. نظر حسين
لمدة دقيقة في وجه إبراهيم الكومي ثم طفق مختلقاً حواراً ومحدثاً
نفسه:

- السلام عليكم . وعليكم السلام . إزيك يا حسين تمام
يا بوب . ليك وحشة . الله يخليك . حبيبي والله . وإن
كمان . ما تجيب بوسة من بوقك؟ بس ياد يا شاذ . ههههه
لم يحرك إبراهيم ساكناً وظلّ ينظر إلى الأرض بين قدميه .
صمت حسين لبرهة وأخذ يوصل الأسلاك الدقيقة لجهاز كان بين
يديه ، ثم يطالع التلفزيون . وما إن فرغ من اختبار الجهاز وتأكد من
أنه يعمل ، ألقى به في يأس بعيداً ثم زفر نفساً طويلاً بعد أن ألقى
بظهره إلى الوراء .

حسين شامة الشهير بسحس بين الرفاق ومُضحكهم طيلة أيام الميدان الأولى، حاصل على بكالوريوس هندسة قسم طاقة نووية من جامعة الإسكندرية. عبقرئاً لم يجد عملاً في تخصصه، فقرر أن ينزوي في وسط البلد بمحل ضيق صغير في حارة طافحة بمياه الصرف والرائحة التنتنة طيلة العام، يصلح جميع الأجهزة المعقدة من هواتف وحواسب وأجهزة تشفير ومعدات اتصال. يهوى العمل بمفرده ولا يحب الالتزام بعمل دائم، لذا رفض العروض التي قدّمت له من شركات اتصالات وبرمجيات ومصانع كبرى. معروفٌ بين المهندسين والتقنيين، كما أنه ذائع الصيت في منطقتة حيث يلقبونه في شارع عبد العزيز بعبقرينو، ويقصدونه كلما حاروا في جهاز إلكتروني جديد باهظ الثمن يريدون فكّ شفرته أو استعادة بياناته أو تتبعه. يخرج حسين أحياناً من مكمنه عندما يستدعيه فريق من المتخصصين ليقوم بإصلاح عطل في برمجة ماكينات الإنتاج بالمصانع. إن تركته لبعض الوقت مع ماكينة حارَ فيها الجميع، أو نظام معلومات معقد فقد النطق فسيخرج بحلّ قد لا يقوم بإصلاحها ولكنه سيدلّك على العطل ترك حسين الجبهة بعد الاستفتاء وكان أول منشق طلّق السياسة بالثلاثة ولم يطق كل ما يدور حوله. كان أول من اعترض على تولي عبد القادر القيادة مُرشحاً ياسين السحرتي بدلاً منه حدث هذا في اليوم الذي وقع به الصدام التاريخي بين الجميع حول مقعد القيادة، من ثم توالى الصدمات بينه وبين الرفاق حتى قرر الاستقالة. كان حسين شامة أول من خرج من حلقة الرفاق، ولكنه أبقي على صداقته معهم وظلّ على علاقة جيدة بالجميع فلم يخسر أحداً منهم. ربما لأنه كان بطبيعته ساخراً طيلة

الوقت، ويتمتع بخفة دم تجعل مواصلة أي حوار جدّي معه مستحيلة. يدير دفة الحديث في لحظة ويطلق قفشةً مثيرةً للضحك لينتهي الأمر إلى نكات وقفشات.

أنا الابتسامة المرّة

هذا العالم لا يستحق أن تفهمه، عليك فقط أن تتمتع بحسّ الدعابة لتعيش.

كان وجه الكومي يطل بين وجوه رموز المعارضة والنخب السياسة في التلفزيون والاثنان صامتان إلى أن قرّر حسين أن يكسر حاجز الصمت قائلاً:

- الله يفك سجنك يا أبو علاء يا غالي

رفع إبراهيم رأسه لأول مرة ونظر إلى حسين مندهشاً، فتابع

حسين:

- أنا كلّ ما اتفرج على الناس دي بفتكر الغالي. والله كان

طيب. دا عشرة ثلاثين سنة يا رجل!

قال إبراهيم بعصبية:

- ما تضيقنيش يا حسين!!!

- الله يخربيت أم اللي يزعلك. أنا حسين فاكرني؟ أنا اللي

سببت الجبهة. يعني أنا كول وفريش. بلاش بقى تضربلي بوز

الإحباط السياسي بتاع الثورة مستنيلة!

- والله هقوم أمشي!

- خوفتيني يا اد!! ما تجيب بوسه من الزلومة؟

- أسكت بقى!!

- كل ده علشان قلت أبو علاء؟ أنا فلول. أنا اكتشفت ده

أمبارح. ساعات تكتشف أنك فلول وأنت مش واخد بالك.

واحد بيقولي امبارح إحنا عاوزين استقرار. فكرت شويه وقتله من

بتاع أبو علاء؟ قالي مفيش ألوان تانية؟ قتله لأ أبو علاء هو الوحيد

اللي كان معاه التوكيل. هيسيح يمسيه بالخير بقى كان مدلعنا وبيدينا

في استقرار على حسب مقاس كل حمار!

- أنا هأقوم.

قالها إبراهيم وهو يغادر مكانه متجهاً نحو الباب، ولكن حسين

قفز من خلف مكتبه وأمسك بتلايبه ثم أجلسه وهو يقول ضاحكاً

- خلاص هسكت. يخربيت مخك!!

ثم خبط على جسد إبراهيم عدة خبطاتٍ قبل أن يعقب:

- إيه المجانص والترابيس دي. ولا هيرقليز أنتوا عيلتكووا

بتاكل إيه؟ بتاكلوا حديد من بتاع الجيم (game)؟

حاول الكومي مقاومة دعابة حسين ولكن أفلتت منه في النهاية

ابتسامه طفولية رائقة. أخذوا يتحدثان طويلاً حتى انتصف الليل ولكن

الكومي ظل حزيناً أغلقا المحل ومضيا معاً نحو ميدان الأوبرا

القديم، تطلع الكومي نحو الميدان وزفر بيأس قبل أن يقول:

- مفيش حلّ يا عم العبقري للي إحنا فيه؟

هام حسين بعينه في الميدان للحظات قبل أن يقول:

- ما عرفش يا صاحبي. ياريتني أعرف.

صمت حسين لبرهة قبل أن يقول كلمته الأخيرة في تلك الليلة :
- روح للزعيم اسأله .

طالع الكومي حسين ملياً وقد أصابه الرد بشيءٍ من المفاجأة ،
ولكن حسين لم يمهل الفرصة ليسأل فقد أطلق صفرةً طويلةً بغمه
ونفخ في أول تاكسي توقف ، أخرج رأسه من نافذة التاكسي وهو
ينسم ملوحاً

* * *

«هذا وقد أتضح أن المأسوف على شبابه قد ذهب هباء..
وبناء عليه وبعد كشف جميع الملابس المطروحة للعيان..
تبين أن التاريخ المذكور للواقعة ليس حقيقياً وكذلك التاريخ
المدون في شهادة الوفاة زائف.. حيث إن المذكور كان يعود
كل مرة إلى البداية ويبدأ محاولةً أخرى.. ولكنه كان في كل
مرة يكرر الأخطاء نفسها.. ولذلك فقد ثبت يقيناً بأن المواطن
المذكور ظل ثابتاً في المكان نفسه طيلة الوقت ولم يكن عمره
يتحرك.. الأدلة والقرائن كلها تشير إلى أن المفقود كان بلا
تواريخ أقفلت القضية في وقته وتاريخه».

أفاق ياسين على نقراتٍ على باب الشرفة فأخفى أوراق
المذكرات وأوصد الصندوق بعناية ، نظر نحو الساعة فوجدها قد
قاربت الثالثة فجراً ، فتساءل من الذي قد يأتيه من الشرفة في هذا
الوقت؟ فتح باب الشرفة القديم بهدوء ونظر نحو الخارج ، كان
إبراهيم الكومي يقف على يديه على سور الشرفة وساقاه للأعلى .
نظر إليه حسين للحظات وأيقن أن الكومي قد نفذ صبره . جذبه
ياسين إلى الداخل وأجلسه . غاص إبراهيم في كرسي الأرابيسك

القديم الكائن في ركن الغرفة، بينما ظلَّ ياسين صامتاً هائماً بوجه غائب لا يوحى بشيء. جاءه إبراهيم في هزيع الليل الأخير متسلقاً شرفته واقفاً على الحافة بالمقلوب. هذا هو إبراهيم عندما تضيق به الدنيا، يفعل أشياء غريبة، يقلب نفسه أو يقلب قميصه.

يكبت الكومي ثورته أمام ياسين ولا يعرف ماذا يقول. لولا حبه لياسين لهتف وأطلق بركان الغضب. يجلس أمام ياسين حائراً، لا يعرف كيف يُخبر ياسين بما لا يقوى على احتمالهِ! تسلَّل الليلة إلى شرفته ووقف أمامه مقلوباً وعندما أمره أن يدخل، انصاع دون أن يقول شيئاً ينتظر أيَّ كلمةٍ تخرج من ياسين السحرتي، قل شيئاً ولا تدعني هكذا أعاني الضياع.

* * *

يتذكر ليلةً مرَّ عليها عامٌ وأكثر في ليلة جمعة الغضب كانوا عند أطراف الميدان بعد أن انتصف الليل، وقف شابٌ نحيلٌ ذو نظارةٍ طبية، يتلعثم في كلماته ولكن ما يقوله جعل الكومي يقترب منه. يتحرك بينهم كفراشةٍ خفاقة ترفرف بلا جاذبية. كلماته تلمس كيان الكومي وتهزه من داخله. يتحدث عن حقنا في الحلم، عن أرض الميدان التي لا يجب أن نتركها تتردد كلمة «الحرية» كثيراً على لسانه، وكلما ذكرها دقَّ قلب الكومي وامتلاً بقوة هائلة لا يعرفها من قبل. ترتجف أعماقه ويشعر بأنه يحلق عالياً في السماء، يقف أمام مروان ولا يدرك شيئاً سوى أنه منذ هذه اللحظة سيصنِّد بجسده كلَّ من يقترب من مروان الناجي مهما يكن. لو أرسل النظام في الصباح كلَّ شيطان الأرض، سيقف ليحمي هذا الفتى الذي يتحدث أمامه.

تدمع عينا إبراهيم الكومي وتهتف الأسئلة الحزينة في صدره: لماذا مات مروان الناجي؟ لماذا مات صديقك يا إبراهيم؟

أنت شاهدٌ على كلِّ شيءٍ يا سحرتي، فانطق. كنت أحملك على كتفي بينما تقود المظاهرة هاتفاً، فترتجّ طرقات وسط البلد ويشتدّ وطيس الثورة. أين هتافك العالي الحرّ الذي كان يدق حصون الإحباط ويسقطها؟ أين الثورة التي رأيناها فيك؟ أنا لم أكن أفهم في السياسة وأنت الذي علمتني، كنا فرّقاً مشتتة وأنت من نظمتنا ووحدت صفوفنا قل شيئاً ولا تتركني!

يبكي الكومي فيتمزق قلب ياسين أكثر ويقوم ليضمّه، يعلو صوت إبراهيم بالبكاء بين يديّ ياسين ويقول بصوتٍ مبسوح يتهدج:

- مروان مات ليه يا ياسين؟

- لله الأمر من قبل ومن بعد.

يهدأ إبراهيم قليلاً ولكن لا يزال يذرف دموعه بصمت بينما يتحشرج صوته في فمه:

- في ناس بتقول إن مروان مات مسموم.

ترتسم على وجه ياسين علامات الغضب ويشيح بوجهه قائلاً:

- مروان مات موت ربنا يا إبراهيم.

لم يخبر ياسين بالإشاعة التي تمّ ترويجها داخل الجبهة في الأيام السابقة. سيستشيط ياسين غضباً لو عرف ما يشيعون به بأنّ مروان كان عميلاً لأمن الدولة. ما إن سمع إبراهيم بهذا، حتى انفجر غاضباً وقدم استقالته، ثم اختفى لأيام أمضاها غارقاً في أحزانه. الليلة تراجع بعد أن فكر في الرفاق المظلومين، فكر في

أدهم ودرويش وسلمى وعرفة والآخرين، يعلم أنهم ليسوا متورطين
في هذا، ويعلم أنه لو رحل لن يتبقى في الجبهة سوى الأوغاد.
تزدحم الأحزان في صدر إبراهيم ويغلبه النعاس، يضم ذراعيه إلى
صدره وينام في مكانه كالطفل المتعب. ينام الكومي وياسين لا ينام.

العميل

«كلُّ الكتاب يكذبون.. لا تصدقهم.. هم يروون لك دوماً قصصاً مختلفة عن الحقيقة.. لا تصدق الكتاب.. إنهم أخفوا الحقيقة عنك.. القاتل ليس فلاناً!.. فلانٌ ليس سوى رمز.. فلانٌ الذي قتل.. فلانٌ الذي قُتل.. وفلانٌ الذي قتل نفسه.. كلُّ هذا كذب!

لا تصدق الأدياء.. كلهم كاذبون.. أو ربما صادقون حدّ الكذب.. لا يكشفون الحقيقة كاملة.. يلخّصونها في جريمة واحدة.. قاتل واحد.. جثة مفقودة الهوية.. يخدعونك برموز متوارية.. لا تصدقهم!.. القتلة كثيرون ولكنهم لخصوها في واحد.. الجريمة ليست غامضة والجثة معروفة وملقاة هنا على قارعة الطريق تمرّ عليها ليل نهار.. تطؤها أنت أيضاً كالآخرين خبأ الأدياء الحقيقة في دهاليز الحكاية.. خبأوا الأسى الطويل في المجاز.. تركوا النهايات مفتوحة.. تركوك وحدك تعيش في الجريمة ورحلوا.. الجريمة مستمرة.. كل الكتاب كاذبون!.. فلا تصدق ما قالوه وما سيقولوه.. الكذب أقوى من المال.. الكذب أقوى من الدم.. أخطر من فوهة البندقية وحدّ السنجة.

أما السياسة.. فهؤلاء يقتلون بجرّة قلم.. بإشارة واحدة
يشعلون الحروب.. بشعار واحد يقتلون المئات على العتبات..
السياسة أقوى من نيران الثورات.. لا تصدق السياسة.. لا
تصدق الكتاب.. لا تصدق المحللين لأفعال كلا الطرفين.. لا
تصدق شاشات البث.. لا تصدق النخبة.. بل صدق الجريمة..
انظر إلى موضع قدميك حيث ترقد الجثة.. ابك هنا دمعاً
صادقاً فوق رأس الشعب الفقيد إلى الله.. ارفع فوق الجثة
العلمَ واريض كأسد قصر النيل.. لا تبارح.. لا تثبت بدلاً من
عينيك الجواهر.. لن ترى!.. كل السياسة يكذبون.. كل الشعوب
تصدق.. ردّد خلفي ثانية.. كل السياسة يكذبون.. كل الشعوب
تصدق.. لا تصدق سوى الجثة.. والجثة بلد.. والقاتل ليس
واحداً.. القتلة على كل ناصية أينما التفتّ».

ذلك هو العالم الذي يحدث كلُّ شيءٍ فيه في اللحظة نفسها
اللحظة التي كنت تبني فيها حساباتك كانت هناك أشياءً أخرى
تحدث، أشياءً ستقلب حساباتك كلها رأساً على عقب. كلُّ شيءٍ
سريع في هذا الزمن، الثلاثون عاماً انتهت في أيام، والشهور تطوى
في لحظات، وتمرُّ بدلاً منها عصور وأزمنة أخرى جديدة.

أنا بروتوس

حتى أنا أظعن أيضاً

يتذكر ياسين تلك الليلة الخريفية التي كان يقف فيها وحيداً في
مقر الجبهة ويعلم يقيناً أن هناك خيانة، يشمّها في الهواء الذي
يتنفسه. نبض الخيانة في عروقه يكاد يسمعه وهو يعوي في أذنيه،

يعرف أن هناك صفقة تمّت في مكان ما، أحدهم باع الجميع .
انتظره ياسين حتى دخل الغرفة فدفق خلفه وأغلق الباب،
اقترب منه وخلع عنه نظارته ثم أطبق على ياقة قميصه دافعاً به نحو
الحائط، طالع عينيه الباردتين طويلاً بغضب قبل أن يتركه ويرحل .
لم يُقل اللعين شيئاً وكأنه كان ينتظر ياسين، باردٌ ككتلة ثلج لا
يوشي بأي شيء يُذكر كيف تركته يفعل كل هذا؟ تساءل ياسين وهو
يغوص في طرقات المدينة المزدهمة .

منذ سنوات في كلية الحقوق، شاركا سوياً في المظاهرات
الطلابية وتوطدت علاقتهما تقرب منه كثيراً وعملا سوياً في مكتب
المحاماة نفسه . كانت حلقة الأحداث تفرض عليهما تقارباً شديداً،
القضايا التي تشاركا فيها كانت دافعاً عن الحقوق وضد الفساد . كتب
مذكرات الدفاع معاً وترافعا سوياً وظلا كأخين جمعتهما الدروب
نفسها في دهاليز الوطن المطوي تحت أجنحة الفساد . تتشابه
أحلامهما في مفرداتها «الحرية، التغيير، العدل»

لم يظن يوماً أن هناك خلف هذا الوجه ألف وجه . كانت
الشائعات تدور حول المكتب وبعض القضايا أحياناً، ولكنه لم يشك
للحظة في أحد . ست سنوات لم يظن فيه السوء بالرغم من أنه كان
يشعر بشيء ما خفي هناك يتحرك وراء الظلال، كان يشك في أن
هناك شيئاً ما يثير القلق . ولكن ياسين لا يخون أصدقائه، لم يكن
ليظن السوء في الذي رافقه طيلة تلك السنوات وأكلا سوياً في صحن
واحد وتشاركا معطف مرافعات واحد .

كيف خدعه طيلة هذا الوقت؟ منذ الوقفة التي شاركا فيها

لمساندة القضاة في عام 2005 كان هناك شكٌ بداخله. في ذلك اليوم اكتشف أن صديقه متوغل بين الصفوف ومتشعب العلاقات وكأنَّ هناك جانباً سياسياً خفياً خلف الستار. خرج ياسين يومها من الوقفة بأسئلة لم يجد لها إجابات، لم يعرف ما علاقة صديقه المحامي تحت التدريب بكل هؤلاء المستشارين والقضاة. كان الأمر يثير الدهشة بداخله وبقي السؤال حائراً، هل يعرف زميله حقاً؟ ولكن الدهشة الكبرى كانت عندما تمَّت دعوتهم لحضور مؤتمر للمحامين الشباب العرب. في صالة المغادرة بمطار القاهرة اصطحبه ضباط الأمن خارج الصف ودخلوا به إحدى الغرف، أصابت ياسين ساعتها المخاوف لأنه كان يعرف أن صديقه له ملفٌ أمني وأنه ناشطٌ معارض. تتبعهم محاولاً تقصي الموقف ومساعدة صديقه، ليلمح من فرجة الباب حديثاً ودياً يدور وأوراقاً يتم تبادلها بين صديقه والضباط، اقترب من الغرفة وسأل الضابط الواقف على الباب عن الأمر فابتسم له الضابط ابتسامةً لم يفهم مغزاها إلى الآن ثم أبعده عن المكان بإشارة من يده. لم يسأل ياسين صديقه بعدها عمّا دار هناك ولكنه ظلَّ طيلة الرحلة يرقب الملف الذي بين يديه ويفكر دفن تساؤلاته في قرار عميق ووثق به في الميدان، أخفى هواجسه عن ذاته وعن الآخرين في الجبهة. الآن فقط، أيقن أن اللعين كان يلعب في الخفاء لمصلحة أطراف خفية. أجاد اللعين إخفاء كل الخيوط من خلفه.

أنا جرح السكين
وأنت الضحية التالية.

الكذبة كبرت وصدّقها الجميع وغرق الكل في اللعبة. إنها
السياسة أيها الثوار الغاضبون، إنها اللعبة أيها الرفاق المنقسمون
على أنفسكم، إنها الشعارات التي أطلقت في كل مكان.
أفلته ياسين ليلتها ورحل، رحل ياسين من المقر في تلك الليلة
وهو يواجه أشباحه في كل الطرقات، تتنازعه كضباع تحلقت حول
جثّة وتأهبت للانقراض.

السياسة

نوفمبر الحزين

أنا القلق اللانهائي

أنا المقتني لفوارخ القنابل.

الدرس الأحد عشر في علم السياسة: التاريخ لا يتكرر ولكننا

نحن من نكرّر الأخطاء ذاتها

أنت أيها الواقف هناك تحت سماء نوفمبر القاتمة تستنشق هواء محملاً بالغاز وتشعر بالوحدة والضياح. أنت أيها الواقف هناك على رأس المشهد وأمامك مدفع المدرّعة المتربص بك. أنت أيها الواقف هناك وتشعر بالخيانة والغضب. افتح الصفوف للقادمين، افتح السماء لأمطار الحجارة وغضب المولوتوف.

انظر إلى المعركة أمامك، مستمرة منذ ثلاثة أيام. لن تفهم ما يحدث الآن، هذا كله مجرد بداية لمشهد سيكون له اليد العليا، سيسطر نفسه يوماً وسيترعب. هنا الكمين المنصوب بين أذرع الجدران الفاصلة العالية التي تطوّق المداخل. هناك وقفوا كخفافيش متشحة بالظلام في انتظارك، ضيقوا عليك الممر المؤدي إلى حتفك. فوقك، تخترق السماء نيران المولوتوف كالشهب ثم تخفت. يتربّص بك المجهول في جنبات شارع محمد محمود ويهبط الليل في بئر بلا

قرار. يهدأ صوت الهتاف ولكن هيهات، لم تهدأ المعركة بعد. تتقدم المدرعة من هناك ممطرةً الطريق بعاصفة من الدخان الأبيض كقنديل بحر يبسط أطرافه المسمومة في ظلمة المحيط. يدوي صوت طلقاتٍ متوالية في كل مكان.

تعالَ إليّ ليحمى الوطيس، اقترب لنديمك في نهر الطريق ونستنزفك حتى النهاية.

سقط في المعركة عشرات الشهداء ومئات المصابين، ولكن ياسين المصاب بضربةٍ داميةٍ في رأسه لم يعد كما كان. في اليوم الثاني تفاوض هو وآخرون على هدنةٍ مع ضباط الأمن، ولكن لم يمضِ على الاتفاق وقتٌ قليل حتى هجمت قوات الأمن مجدداً على الميدان. الكل خائن، الكل تأمر على الثوار. في عشية يوم نزف جرح الخيانة وهدرت دماء المئات من الشباب، وقف وسط الجموع يطلّ على المعركة وحده. أتاه هاتفٌ قائلاً «توقف!» هناك شيءٌ ما خطأ! بل كل شيءٍ كان خطأً كبيراً

ستهاجمك كل الأشياء التي لا تعرفها دفعةً واحدةً وأنت تقف على خطّ المواجهة، الكل تربّص بك وهجم عليك من كلّ اتجاه. الوغد أجاج النيران في الجبهة لتنزل في «جمعة المطلب الواحد» ثم تراجع في الليل عن الاعتصام، قال لهم إن هذه هي السياسة، أقنعهم فانسحبوا المطلب الواحد كان مخطّط المستفيد الوحيد، أما قوات الشرطة فكانت تلعب لمصلحة طرفٍ ما رأى هذا في عيون الضباط وهو يتفاوض، كان هناك شيءٌ مدبّر صفقة تتم هناك في دهاليز السياسة، هناك في خلفية المسرح كان شيءٌ ما يطبخ.

«هل تعرف المعركة التي ليست بمعركة؟.. أحرقت نفسك بنفسك.. اسحق نفسك في المعركة عندما يطعنك المتآمرون.. ابقَ وحدك عندما يطلقون عليك الكلاب.. هم هناك كانوا يوزعون على أنفسهم غنائم حربك.. يوزعون على أنفسهم المصالح المشتركة والمقاعد ويحضرون حفلات المكاسب على جثة معركتك.. يقسمون ساعات البث على أنفسهم وأنت تُضرب على الأرض بلا غطاء.. يجهرن بالثورة في حناجرهم وأنت ضحية القهر.. ضحية البطش.. ضحية سداجة الرفاق.. ضحية الانقسامات.. ضحية أطراف المكيدة السياسية.. ضحية صراع السلطة.. ضحية المكان المحاصر والإعلام المنافق.. أنت طرف المعادلة الذي فاجأ الجميع فدبروا لك.. طحنوا عظامك في فخ المعركة السياسية.. تركوك تنزف وجلسوا يقسمون غنائم ما بعد المعركة.. أنت مهزوم حتى عندما تنتصر».

الدرس السبعون في علم السياسة: اقترب من أعدائك أكثر لا لكي تفهمهم، بل ليأكلوك!

عاد ياسين إلى الميدان في ساعة متأخرة من الليل بعد أن عالج جرح رأسه الغائر، وتأكد من أشياء كان يفتش عنها يسير غاضباً وصدره يحترق من الوجد، مرَّ على خيام الاعتصام ولم يجد أحداً من الرفاق فزاد غضباً على غضبه. اتصل بعبد القادر فوجد هاتفه مغلقاً، وكذلك هاتف شيماء البهي. مضى نحو ميدان الفلكي وهو يتفادى الدراجات النارية الآتية بمصابين من المعركة الدائرة مع الشرطة في شارع محمد محمود. حاول مجدداً الاتصال بالجميع

ولكن لم يُجبه أحد. حتى انتبه فجأةً إلى صوت عبد القادر، فالتفت ليجده هناك على شاشة التلفزيون في المقهى متحدثاً وبجواره شيماء البهي في برنامج شهير، يتحدثان باسم الثورة. وقف مشدوهاً يتطلع نحو الشاشة بلا حراك.

نشطاء الجبهة، هذا هو الطرف الذي أكل على الموائد ذات الخمس نجوم، هذا هو الطرف الذي تمرَّغ في أحضان الأضواء، هذا هو الطرف الذي لمع على الشاشات وبرامج وكالات الأنباء العالمية. نشطاء الثورة تقمصوا الأدوار على المسرح بامتياز. المسرح كان معداً لهم والجمهور في كل أنحاء الأرض يصفق لشباب الثورة، الشباب الطاهر الذي أسقط النظام. تذاكر درجة أولى لبروكسل وفنادق فاخرة وسجادات حُمر فُرشت لاستقبالهم في بهو البرلمان الأوروبي. فتحت لهم الجمعيات والمنظمات الحقوقية أبوابها في كلِّ العواصم الأوروبية وبلاد العم سام. الجرائد منحتهم أعمدةً يوميةً في صدر صفحاتها، أعمدةً قد يفني صحفي مجتهد عمره حتى يصل إلى المكانة الصحفية نفسها ذلك النجاح حَقَّقته شيماء البهي في يوم وليلة، شيماء التي كانت ذات يوم تحلم بكارنيه نقابة الصحفيين. الآن صار لها عمودٌ خاص يوميّ، وأكثر من نصف مليون متابع على مواقع التواصل الاجتماعي. شيماء الفتاة البسيطة التي كانت تحكي له في أمسيات الثورة عن معاناتها كل يوم مع الميكروباص من شارع فيصل إلى ميدان رمسيس. أمنياتها كانت في أن تمتلك ذات يوم شقة وسيارة صغيرة بعد أن تعبت من التنقل بين شقق الإيجار هي وزوجها كانت أحلامها بسيطة وشخصيتها سمحه برغم عصبيتها الشديدة. شيماء كانت مثلهم، تحلم بالثورة التي

ستغير الوطن، تشعر بأوجاع الطبقة المطحونة التي تنتمي إليها صحفية تحت التدريب تجمع الأخبار عن الندوات الثقافية والأحداث الفنية وتتقاضى راتبها بالقطعة. الفتاة ذات الأحلام البسيطة لم تعد تطلعاتها بسيطة، اندمجت في دورها الجديد تحت أضواء الثورة الساطعة، هناك حيث السماء تمطر شهرةً وبريقاً، هناك حيث الامتيازات لا تقاوم.

ينتشي قائد الجبهة على الهواء، يهاجم بضراوة الحكومة والتيار الديني. أحمد عبد القادر ذلك اليساري الذي تنقل بين مقرات الأحزاب اليسارية الرثة وممرات مكاتبها ذات الرائحة العطنة بمباني وسط المدينة، تلك الأحزاب بأثاثها المتآكل وجدرانها الباهتة تشبه تماماً أفكار الستينيات المحنطة فيها لم يترك عجائز اليساريين المساحة لأحمد عبد القادر، فانتقل إلى الحركات الاشتراكية الشابة، ثم إلى حركة كفاية، لينتهي به المطاف في الجمعية الوطنية للتغيير حيث حصل دوماً على أدوار صغيرة. لم يحلم عبد القادر بأنه سيصبح ذات يوم على رأس أحد أهم الحركات الثورية التي تشكلت بعد الثورة. أحمد الفنان التشكيلي الذي كان يحلم بفيلمه الأول القصير، ويدبر له ميزانية قوامها أربعة آلاف جنيه، وكاميرا سيستعيرها من صديق. الآن يعمل على فيلمه التسجيلي الثالث عن الثورة بمنحة من واحدة من أهم المحطات الإخبارية العالمية، وبفريق تصوير أجنبي وميزانية مفتوحة. هذا الشاب الأسمر الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره، صار محط أنظار وكالات الأنباء، وممثلاً عن الجبهة في كل الاجتماعات السياسية مع القيادات الحاكمة. رأساً برأس مع كل رؤوساء الأحزاب والزعماء السياسيين وضيعاً

دائماً على طاولة المفاوضات في مجلس الوزراء والسفارة الأميركية والمفوضية الأوروبية. اللمعان الثوري في أوجه، دعوات من جميع أنحاء العالم، ومؤتمرات دولية ومكاسب أدبية ومادية انهمرت عليه كالطوفان. أحمد عبد القادر الصعيدي الشهم، نصير العمال والطبقات الكادحة الذي كان يجلس بين الرفاق على الأرض في الميدان ليتحاوروا بالساعات قبل أي قرار، الآن يمضي وحده. نصفه السياسي مسمومٌ ببريق الفضائيات ولعبة المكاسب، أما نصفه الثورجي اليساري فقد تاه في دهاليز الصراع الداخلي بين الثورة ونفسها

يهتف هناك على الشاشة متحدثاً عن الشهداء، عن المؤامرات المستحكمة، عن الطرف الثالث والرابع والخامس. قبل ساعات سمع شريف سماحة يقول الكلام نفسه، كلهم يرددون الكلمات نفسها، كلهم يجهرون بالشعارات نفسها المعركة تدور هنا على الأرض طاحنة العظام، ولكن لعبة السياسة لا تعترف بكل هؤلاء. السياسة تُحاك في الغرف المغلقة، كل شيءٍ مدبرٌ بالفعل، وكل هؤلاء مجرد أبواقٍ لسد ثقب الفضاء الإعلامي الأهوج المتعطش للنعيق. الشعب بأكمله يجلس على مقاعد المشاهدين يتابع المباراة ويحصي الرؤوس.

يتحرك ياسين ثقيلًا وقدماه لا تقويان على حمل كل ذلك الغضب الذي يعتريه. دخل شارع الفلكي متجهاً إلى المعركة، كان يفتش عن الاثنين الأخيرين من الرفاق، ويعلم أنه سيجدهما هناك في قلب الشارع.

يعلو الوطيس، يتأجج الصراع، يجوب الأرض جحافل من

الشباب ينطلقون ويتقهقرون تحت جنح الغاز الثقيل . تضج الصيحات، ينطلق شرار الشمروخ في أفق الطريق، تدوي الرصاصات هناك وتقابلها صرخات الغضب هنا وسط الحشود . بين شظايا الشماريخ وضباب الغاز رآه يعدو هناك فانطلق خلفه . عندما وثب في الهواء، طار خلفه . أمسكه من ذراعه ولم يفلتها، احتضن جسده الضئيل بقوة وجرّه إلى الخلف . مضى به حتى وصلا إلى ممرّ ضيق ودفعه إلى الحائط، ثم هتف بغضبٍ :

- إنت ما بتتعلمش يا أدهم!!؟

انكمش أدهم تحت رسوم الغرافيتي المتشابكة فوق الجدار، تسود لحظات صمت بينهم تتابعت فيها أضواء سيارات الإسعاف الزرقاء على وجه أدهم . لم يرى أدهم صديقه ياسين غاضباً هكذا من قبل، ولم يفهم عن ماذا يتحدث؟ لم يجد ما يقوله من هول المفاجأة . أشاح ياسين بوجهه للحظات وكأنه يتنازعه وجعٌ ما شديد لا يطيقه، مرت اللحظات ثقيلة وهو يلتقط أنفاسه . ما لبث أن تطلع في عينيّ أدهم قائلاً

- إنت مش فاهم حاجة!

رد أدهم بغضب :

- إحنا بنحمي الميدان! إنت رححت تتفاوض على هدنة وبعدها على طول هجموا علينا تاني في الميدان . أنا كنت دايماً بصدقكم ودلوقتي مش عارف أصدق حدًا!

أدهم الصغير صار شرساً، صار حاداً كالسكين ويطعن . المعركة لأدهم والفضائيات للنشطاء والمكاسب للساسنة الكاذبين . أوجعه

أدهم بكلماته التي ألقاها كملح على جروحه الملتهبة . غامت الدنيا
تحت وطأة الأسي وقنابل الغاز التي توالى كثيفةً خانقة . اختفى
أدهم ، تاه منه وسط موجات الكرّ والفرّ المتلاحقة .

أنا الأفكار التي تولد وسط الضياع

أنا الأحمر بلون الدم

أنا الجدار الحزين الموسوم بوجوه الضحايا

أنا البيئة التي تلد القرود

واحد تلو الآخر

اختلط في جوف الشارع كل شيء في مشهد فوضويّ صاخب ،
ضباب الدخان وقنابل المولوتوف تغطي الأفق ، والأشباح تعدو في
كل اتجاه وكأنها أرواح تختلط في لاوعي ممزق .

في المنتصف هناك كان يقف بعد خطوات منه مغطياً رأسه بغطاء
الكنزة الشتوية الداكنة ، يده في جيوبه ، لا يتحرك . شبخ أسود وسط
الضباب ، يشاهد الزمن .

تقدّم ياسين حتى صار بمحاذاته وأطلّ على وجهه ، وجه شبخ
هزيل وعيناه جاحظتان نحو المعركة . كم مضى من الوقت؟ لا
يعرف ، ربما لحظات أو دهور قبل أن ينطق الشبح :

- بيبيـ . يلعبوا ميدل أوف أونر

سادت بينهما لحظات من الصمت قبل أن ينطق الشبح الهزيل :

- يلعبوها لالا لايف . وفي الشارع

الصبية يفرون ثم يتجمعون فيها جمون والحماسة تجتاحهم ،

يعيشون المعركة طيلة الليل بكل تفاصيلها يكتمون الأنوف
ويشعلون فتائل المولوتوف ويصوبون نحو المتاريس وقاذفات
القنابل.

هي معركة لا تعرف أطرافها، هي ثورة لا تعرف كيف كانت
تمضي. هم الثوريون لم يكونوا هنا سوى للمشاهدة، فمن أين أتى
هؤلاء؟

- ت. ت. تعرف فيلم ديث رايس؟

لأ

- الفيلم ده عن مخرجة بتعمل سباق سيارات بين الم. م.
مساجين في شوارع المدينة وبيتفرج عليه جمهور كبير على
الإنترنت. السباق ده مسموح فيه القتل واللي يفوز بالسباق ده
بيكسب حريته.

صمت مروان الناجي طويلاً قبل أن يتابع بلسانٍ ثقيل:

- م. م. مفيش ح. ح. حد بيكسب. المدينة بت.

ت. تفشخ وتدمر وكلهم بيموتوا بعض. حتى مخرجة البرنامج.

سيارات الإسعاف تدوي حولهم وخطوط أقلام الليزر الخضراء
تجوب الضباب والجدران. التفت إليه لأول مرة والحزن يفيض من
عينه كبحر غدر به الإعصار ثم قال بأسى ودون تلثم:

- إحنا مين يا ياسين يا سحرتي؟

في تلك اللحظة كان مروان الناجي شبحاً يتهاوى نحو النهاية،
وياسين السحرتي هو الرصاصات الأخيرة في مسدس الانتحار.
دوى، دوى بكل ما كان يخترنه من وجع:

- إحنا الرومانسيين السذج. إحنا اللي دخلنا اللعبة مطالبين بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية. لكن اللعبة طلعت كبيرة. طلعت لعبة كراسي وسلطة ومصالح وقوى خارجية. مفيش حد هيمسك السلطة ويسببها كده. هيجرونا لمعركة ورا معركة يفرضوا عليك الاختيارات. هيرسملنا نموذج ديمقراطي تفصيل. نموذج أسوأ من النظام اللي قبله. وكله بالصندوق. وعلى الملاءم وأحزاب. وحرية صحافة. وكل اللي إنت طالبت بيه. عاوز ديمقراطية؟ هتاخذ. رئيس منتخب؟ هيجلوك تنتخب. عاوز معركة؟ متوفر أيضاً عاوز ثورة؟ ثور. انزل. اهتف. إملا الدنيا غضب وهتاف. بس في النهاية هتكتشف إن مش ده اللي إنت كنت بتحلم بيه. بدلوا الحلم الحقيقي بواحد شبهه مزيف. ساعتها هيحطوك في مواجهة مع نفسك. وهتخسر قدام نفسك. وهتشك في كل حلم حلمته. وحتى كل لحظة أمل هتندم عليها اقترب منه ونظر في عينيه المنكسرتين، الاثنان وجهاً لوجه عند نهاية الحلم:

- أزمنا إننا مهزومين نفسياً قبل أن نكون مهزومين سياسياً قالها ياسين السحرتي وغاب في عوالم الصمت، ظلّ ينظر إلى السماء وإلى الأرض وكأنه علق في الفراغ بينهما سأل مروان بصوت يكاد يتلاشى في الهواء، صوت شبحٍ هزيلٍ يمر كالطيف:

- إحنا انتهينا؟

نطق ياسين بصوتٍ جهوري، صوتٍ حاد جعل كلَّ مَنْ يمر بهما يتوقف:

- إحنا مين؟ إحنا مش عارفين إحنا مين. عاوزين ديمقراطية وحرية ونهاية للقمع. طب كإنت إيه خطتنا؟ إحنا مخلقناش لنفسنا اختيار. واللي ميخلقش خيار لنفسه بي فرض عليه الآخرين خياراتهم. إنت لسه مصدق إن الثورة انتصرت؟ والأغاني اللي اتغنت؟ والشباب الطاهر؟ والورد اللي فتح في جناب مصر؟ إحنا لسه من جوانا محبوسين يا مروان يا ناجي! كلنا مسجونين داخل جدران الغضب. داخل حدود وطن ضيق. وطن بلا شرفاء. كل الرموز خدعوننا وطن معشش فيه الخوف وضعف النفس والجهل. كل ما نثور علشان نوقع صنم. يعبدوا غيره. الثورة دلوقتي صنم بيعبدوه وبكره هيعبدوا غيره. الثورة دي حققت حاجة واحده بس.

رنا نحوه مروان الناچي بحزن، فتابع ياسين ضرباته القاصمة، ضربات النهاية:

- كشفتنا قدام نفسنا طلعت أسوأ ما فينا فضحتنا الغالبية خونة وبمليون وش. والبقية سذج كلنا ضعاف. ضعاف قدام أنفسنا كله ضعيف. منا اللي ضعف قدام الفلوس. ومنا اللي ضعف قدام الشهرة. واللي ضعف قدام السلطة والنفوذ. ومنا اللي ضعف قدام الشعارات. والضعيف في النهاية بيع بيح قضيته يا صاحبي.

ساد الصمت بينهما بعد أن ضجَّ صوت ياسين وسط أنين المعركة الهستيرية حولهم. تطلع إليه مروان بعيون دامعة يملؤها اللؤم قائلاً:

- سيبتوا ليه يخدعك؟ سيبتوا ليه ينتصر عليك؟!

أسقط مروان صديقه بضربة قاصمة. كل ما قاله سقط. مروان ما زال يتنفس الثورة حتى رمقها الأخير، مروان في النزاع الأخير يلومه على ما مرَّ بهم. مروان الآن لا تزوغ منه الكلمات، تصيبه في مقتل. لم يقوَ ياسين على الرد، لم يقل شيئاً

على خط المواجهة الأخير، ها هي الحقائق تخذل بعضها البعض. الآن يعرف الخائن بعد فوات الأوان، الآن يشق مروان صدره بنظرة لوم لا يقوى عليها أحد. الدعوة إلى جمعة المطلب الوحيد بدأت في تشرين الأول/ أكتوبر ثم عادت وتأججت قبل أيام بعد الإعلان عن «وثيقة السلمى» عاطف دعا لجمعة المطلب الأخير وسط الرفاق وجيَّش الجميع للنزول إلى الشارع، وعندما احتشدوا في الميدان في الثامن عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر وتأججت المظاهرات، أعلن الخائن أن عليهم الانسحاب. هكذا خرج بصفقة ما لا يعرف ياسين أبعادها ولكنه يشعر بها، يشعر طيلة الوقت بأهداف عاطف تشكل أمامه الواحدة تلو الأخرى. سحب الكثير من شباب الجبهة من أرض الميدان بعدما أوحى لعبد القادر بأنهم يجب أن يتراجعوا لتهيئة الأرض نحو حلٍّ سياسي وأن يعاودوا لاحقاً رجوعاً إلى بيوتهم ولكن ياسين بقي ومعه أدهم والكومي ودرويش. تم الهجوم في الصباح التالي، ضُربوا وسُحلوا في الميدان.

وقف ياسين برأسه التي سُجَّت تحت ضربات الهراوات يدافع عن الثورة، ولكن الخيانة كانت تمزقه. حدسه يقول له انظر فوقك حيث القناصة يتربصون، حدسه يقول له انظر حيث المعركة معدة في

الانتظار. المعركة تقتنص الثوار، تستنزفهم حتى آخر قطرة من دماء الثورة. الفخ ليس للقتل، الفخ أكبر من الدم ومن كل هذا الكر والفر تحت دفعات الغاز. كم مرة تم تفريغ الميدان منذ أن قامت الثورة؟ كم مرة تم التلاعب بهم تحت مسميات الحل السياسي؟ مرات تلو مرات احتشدوا، ثم تحت ضربات المعركة فرَّ الأوغاد. بوصلة المكاسب كانت تدور نحو طرف يربض هناك منتظراً ترفع الشعارات على أسنة اليافطات، يطلق النفير، تقام المنصات، ويمتلأ الميدان، وعندما يأتي الصباح التالي تكتشف أنك وحدك! وحدك تبحث عن ثورتك.

أنا الساحر وأنت تشيت الانتباه

أنت المغرور الذي تطوع من الجمهور

ستسلط عليك عيونهم بينما أنا أدبّر الخدعة في الظلام

هذا هو السحر تشيت انتباه!

حدثه حدسه يومها أين العنصر الناقص في اللعبة؟ حدسه دوماً يأتيه بلا استدعاء، يستدعي نفسه بنفسه. في تلك الليلة خرج ياسين ليضمّد جرح رأسه، متتبّعاً حدسه. ذهب أولاً إلى بيته وأخفى ضمادة الجرح التي على رأسه تحت عمامة الأزهر التي كان يرتديها قديماً في المعهد. لبس القفطان وانطلق نحو معقل الزملاء السابقين في التنظيمات السياسية. انطلق نحو مكنن اللعبة. كم ارتاد هذا المكان قديماً، كم حضر من الخطب السرية هنا صعد إلى الطابق الثاني بأحد الجوامع وجلس يستمع إلى الدرس المسائي في قاعة لا تفتح إلا نادراً، جلس في انتظار هدفه.

كان له صديقٌ قديمٌ منذ أيام الجامعة اسمه ميسرة حسام الدين، لمحّه ياسين بين الصفوف وتصافحا بعد الدرس بحرارةٍ ومودة. تجاذبا أطراف الحديث بكلامٍ عام عن السياسة بينما ياسين يفكر كيف سينصب الفخ؟ لم يكن ياسين يعرف أنه ليس في حاجةٍ إلى فخ. لقد تغير المشهد السياسي بعد الثورة وما كان خافٍ صار معلناً ميسرة قاد الحديث في الاتجاه الذي يريده ياسين ودون أن يطرح ياسين أيّة أسئلةٍ سقط ميسرة.

على سورٍ منخفضٍ مواجهٍ للجامع يجلس ميسرة وأمامه يقف ياسين. يبحر ميسرة في فخ الكلام، يهمس حيناً ويحرك يديه في الهواء حيناً آخر بإشارات، يستخدم الفصحى تارةً والمصطلحات الدارجة تارةً أخرى. طريقة الخطابة المعتادة نفسها لديهم، هو عاطف آخر كلهم نسخ متشابهة، اللحية الخفيفة نفسها، الأسلوب نفسه في الحديث، القناعات المترسخة نفسها من أصغر ناشئٍ في أسر اتحاد الطلبة حتى أكبر رأسٍ في العمل السياسي والنقابات. لا يحددون عمّا تعلّموه، نسخٌ متشابهةٌ حتى في الشكل كم من عاطف يوجد على هذه الأرض؟

«كم أنا ساذج!» قالها ياسين لنفسه وهو يتطلع نحو ميسرة وخلفه الطريق المزدهمة بالسيارات والعابرين في اتجاه محطة المترو، الآن فقط أدرك أنه كان أعمى. لم يكن بحاجةٍ ليأتي إلى هنا، لم يكن بحاجةٍ إلى ميسرة، لقد كان يعرف بالفعل كلّ ما ظن أنه يريد معرفته. هو الذي أمضى معهم سنوات الجامعة كان يعرف يقيناً من هم. يعرف تلك الكلمات من اللغة التي يستخدمونها، مصطلحاتٍ بلاغيةٍ يعرفها عن ظهر قلب، مصطلحاتٍ خلقت لدغدغة

المشاعر أديبات حيكّت على مدار عقود، أديباتٌ قوم أخفوا أنفسهم داخل أنفسهم. أديبات السرية والحيلة والكتمان. بيئة خصبة لصناعة وإنتاج الوسائل التي تبرر الغايات.

رغم كل شيءٍ مر أمام عينيه، وهو يتابع كلمات ميسرة، لكن فجأة تنبه إلى شيءٍ ما كان غائباً عنه. ما زالت الأرض تخرج الخبايا، ما زال الدرب يُعيد رسم الحكايات من جديد. حدّق في ميسرة واتسعت عيناه، لقد كانوا يظنون أنه منهم! ما الذي يدفع ميسرة للانزلاق في كشف التفاصيل له؟ يا لها من ثغرة كبرى. للسرية ثغراتٌ وأبوابٌ خلفيةٌ يسهل الولوج منها أيضاً ألقى ميسرة مراساته في بحر ياسين وكأنه على يقين بأن ياسين منهم، يتحدث وكأنه يقدم تقريراً لشخص يرأسه، ها هي ثغرة السرية الهرمية تفتح بابها لياسين الذي قدم إلى هنا متتبِعاً حدسه

ميسرة كان نقطة ضعف بالرغم من أنه تمّ تدريبه جيداً، ولكنه كان كثير الكلام ومكانة أبيه كانت تتيح له معلومات شديدة السرية كان ياسين يعرف معلومات عنهم منذ أيام الجامعة ومشاركته لهم في أسر الأنشطة واختلاطه بهم. حتى عندما ترشح في انتخابات اتحاد الطلبة لم يرشحوا أحداً أمامه. كان محبوباً ولديه علاقات متشعبة مع الكثيرين. شارك في بعض مظاهرتهم السياسية، ولكن على ما يبدو أنّ السبب لم يكن كل هذا تجلّي السبب الأكبر أمامه عندما ألقى ميسرة سؤاله: «كيف أحوال شيخنا الجليل عبدالله السحرتي؟» أيقن ساعاتها ياسين أن اسم الشيخ الذي يحمله له كان له الأثر الأكبر، هم يؤمنون بالوارثة لأنهم يتوارثون المبادئ نفسها أباً عن جدّ.

لم تتحرك ملامح وجهه وبقيت جامدةً وكأنه يرتدي قناعاً حديدياً

يخبئ تحته مشاعره. يفتح الباب أمام ميسرة ليلقي ما لديه، الأوامر التي تلقوها كانت صريحةً بعدم الاشتباك مع السلطة والتركيز على الانتخابات التي ستجري فقط. كل الأمور شبه محسومة والوصول إلى السلطة بات وشيكاً، كل المطلوب هو تجييش الثوار للضغط بقوة، على أن لا يظهروا هم في صدارة المشهد. يمسكون العصا من منتصفها، من ناحية الثوار يرذدون العبارات نفسها عن مطالب الثورة وحقوق الشهداء، ومن الناحية الأخرى يدعمون خريطة الطريق والمسار الديمقراطي والانتخابات في موعدها ياسين لم يخدع نفسه، ولم يقوَ على كبت انفعالاته وإحساسه الرهيب بالخيانة، فانفجر قائلاً

- إذاً فهي لعبةٌ سياسيةٌ وليست نضال!

ذهل ميسرة من ردّ ياسين وكأنه يستكره، وعقب قائلاً

- طول عمرها السياسة هي الحل

قبل أن يمضي تاركاً ميسرة ألحّ عليه السؤال الثقيل، فأطلقه:

- إيه رأيك في عاطف؟

لم يفكر ميسرة وسقط في الفخ، ابتسم متفاخراً وهو يقول:

- ماشاء الله عليه بينفذ كل المطلوب.

انهار كلُّ شيءٍ من حوله، سقطت المدينة في شقوق الأرض.

أيها المقنعون الخونة، لقد دبرتم كل شيءٍ من البداية، ولكن ما لا

تعرفونه أن هذا اللعين أخطر منكم جميعاً، هو يلعب أيضاً لمصلحة

طرف آخر ويقوم بتخديركم. الأرض تحترق واللعين يسمم كلَّ شيءٍ،

لقد فات الأوان الآن.

الدرس التسع مائة وتسعة وتسعون في علم السياسة: النوايا البيضاء مجانية .

الدرس الألف في علم السياسة: الكل يخون باسم السياسة .

الدرس الواحد بعد الألف في علم السياسة: لكل زمنٍ عملاؤه .

كل أوراق اللعبة السياسية رُتبت لدفع الثوار نحو المعركة، في الوقت الذي جلست فيه الأطراف المنتفعة على الطاولات يقتسمون الدولة، أية دولة؟ ذلك النسيج المهلهل؟ مؤسساتها المهترئة؟ قواها الخائثة؟ شعبها المسكون بالخوف من كل ما هو آتٍ؟ الطرقات الموبوءة بالصراع؟ النشاط الثوريون ذهبوا إلى الفضائيات والمكاسب السريعة، النخب تتكسب من حول الطاولات، والساسة يحصون الغنائم . بين السذج الثوريين والأفاعي السياسية يعتلي الوغد ويسقطُ الشباب ما بين قتلى ومصابين وتائهين

«أحلامنا لم تعد ملكنا.. استوطنها الآخرون..»

هل حلمت يوماً بحلمٍ جميل؟.. هل رأيتهم وهم يسكنون حلمك؟ يدهسونه بجحافلهم؟ يأخذون مكانك ويعتلون أفقك.. يسدونهم بوجوههم القبيحة.. يضربون سياجهم حول حديقتك.. يغيرون شكل بيتك.. يغيرون العتبات.. كل ما كان جميلاً بذلوه.. أديم الأرض الناعم تطأه الأقدام الغليظة الهوجاء.. حرامية الأحلام اغتصبوا منا الحلم.. ضاق الحلم وغامت سماؤه.. فككوه جزراً ورسموا فوق الصورة ملامح أخرى.. حتى الشعارات سرقوها وصارت ملكهم.. وأنت تقف أمامي في النزاع الأخير.. فارساً وحيداً بين الدروع.. مكبلاً بالحزن

تتأرجح على حافة الضياع.. أما أنا فلم أعد أحتمل غضبي
وحزني.. كل شيءٍ أكلني من الداخل فصرت خاوياً.. أنا الآن
أتهاوى كمدن الرمال».

تحت سماء نوفمبر الحزين وقف ياسين بعد يوم حافل بالحقائق
المريرة ينظر نحو المعركة ولا يقوى على غضبه ولا على نظرة اللوم
والانكسار في عيون مروان الناجي. هتف مروان بالرجاء الأخير
- «الثورة هتنتصر؟»

يهتف مروان الناجي فيه باستماتة ويكرر السؤال، لكن ياسين
يصمت ولا يجيب. يمضي ياسين مبتعداً في الطريق ومروان من خلفه
يضج بالهتاف «قوللي الثورة هتنتصر يا سحرتي؟» يجر ياسين قدميه
وظهره للطرقات وللحلم وللحياة، مبتعداً تلك كانت الليلة التي
سقطت في جب الحزن الذي لا قرار له.

قنديل البحر

أتعرف السباحة تحت الماء؟ هناك حيث الأعماق البعيدة، هي تحليقٌ ولكن للأسفل. تتموج وتنبسط كشالٍ في مهب ربح جنائزية الإيقاع، تمضي في الغياهب البعيدة كقنديل بحر إن توقف للحظة، مات.

القاهرة قنديل بحر لا ينام، يغوص في البعيد وينشر أطرافه النابضة في الليل، ويجوب الظلمات كأسطورة غرائبية التكوين محملاً في طياته بعوالمه المضيئة اللامتناهية.

أنا مدينتك الخاوية

تركتك تدور بين طرقاتٍ بلا عناوين

تركتك دون أن أسميَ لك الأشياء بأسمائها

أنا مدينة التيه.

يدور كريم عمر في طرقات المدينة بسيارته وتشغل ذهنه تلك الأسئلة التي ظلّ يسألها لنفسه عندما كان يسكن حي «كابيتج تاون» في مدينة تورنتو، والآن عاد ليسألها لنفسه مجدداً وهو يدور في شوارع القاهرة في ساعات الليل الأخيرة بلا هدى.

هي تلك الأسئلة التي لم يصارح بها أحداً لأنه كان يعلم أن لا

أحد سيفهمها كما يفهمها هو في كثيرٍ من الأحيان تكون حكاياتك غير مفهومة للآخرين، ولكن بالنسبة إليك تشكل كل شيءٍ وكل ما أنت عليه، ما حدث لك وما سيظل يحدث. حتى هذا الخواء من حولك يشبه ما يكمن فيك الآن.

في ملهى تاماراي جلس كريم عمر شاردأ، يتجرع البيرة ويتجاذب أطراف حديثٍ بليد معتاد مع أصدقاء لم يعد يطيقهم عن أحوال السياسة. هذا الحديث الذي صار خبزاً يومياً تتجمع حوله كل الأطراف، بضعة من رجال الأعمال يتساءلون عن مستقبل استثماراتهم في ظل الحكم الحالي والمخاوف من المستقبل. نظريات المؤامرة تطبق حلقاتها على كل نقاش وتتشعب كشبكة عنكبوت مميت يتلقف كل ما يمر الثورة والانتخابات وأحداث محمد محمود، ثم مجلس الوزراء ثم الذكرى الأولى للثورة، والمستقبل الضبابي والحالة الاقتصادية المتردية والوضع الأمني في سيناء، والتفكير في الهجرة وثورة الجياع الآتية، والمقارنة بين الاشتراكية الناصرية وانفتاح السادات وفساد مبارك وحتى الملكية وزمن الباشاوات. أحدهم يشتكي من إضرابات العمال في مصنعه، والآخر يشتكي من توقف السياحة وخواء الفنادق وخراب بيته، أما الثالث فيتحدث عن توقف مشاريعه السينمائية بعد توجه الناس إلى برامج «التوك شو» ونشرات الأخبار. ثم بدأ آخرٌ بالنواح بلا توقف كالغراب متحدثاً عن قمع الحريات والسواد القادم ومعقّباً على كل تعليق يسمعه «هيقعدونا في بيوتنا!» اشتبكت الفتاة الملولة ذات الكتفين البراقين والشوب المكشوف، وانفجرت بعصية منطلقة في التعبير عن هلعها من كبت الحريات والرجعية وعن عصور السواد القادمة.

يعرف كريم تماماً كل ما سوف يدور حول هذه الطاولة ويحفظه عن ظهر قلب. هو ذاته الكلام الذي كان يسمعه في شاليه أصدقائه بالعين السخنة طيلة شهور الصيف، وهو ذاته الحديث الذي يسمعه من أقاربه عندما يقابلهم في الأفراح والمناسبات الاجتماعية. الكل يتحدث عن الفساد السابق وكأنه لم يكن مشاركاً فيه، الكل يتحدث عن الثورة والدولة المدنية من حول طاولاتٍ يكلف حجزها ثمن إعالة أسرة كاملة طيلة شهر كل ما يخافون عليه هو أموالهم ورفاهيتهم وأسلوب معيشتهم ومساحة الفتحات في فستان الفتاة الملولة، يلوحون بالهجرة ليل نهار وكأن هذه البلد خراًء مقزز الرائحة يخافون أن يلتصق بهم. يحتفظ كريم بابتسامته الباردة التي تخفي امتعاضه، يطالعهم بمللٍ معتاد وهم يتحدثون. إنهم يبحثون عن الفرار فلما لا يفرون الآن ويريحوننا؟ ليبيا لا تحتاج إلى تأشيرة والسودان أيضاً، اذهب ولا تصدع رأسي بنظرياتك الفارغة التي صرت أحفظها عن ظهر قلب. غور!

أما أنت أيتها الفتاة المصطنعة مثل جيل كامل من فتيات المولات والسوشي بار، إذا كنت تخافين على حريتك الشخصية إلى هذا الحد، فلماذا عدت من دبي؟ كانت ملاسك في دبي تستر جسدك المنفوخ بالسليكون أكثر من تلك الصور التي التقطتها في الساحل الشمالي هذا الصيف، تلك الصور التي نالت عشرات التعليقات والتدليل من أصدقائك على الفيسبوك وأصابتني بالملل كلما ظهرت أمامي، كم أتمنى أن أحذفك من قائمتي وأتخلص من سخافتك وفمك الممدود كزلومة الفيل في كل الصور. تذكيرني بتلك الفتاة في إعلان المياه الغازية التي ترقص مع ثلاثة رجال لتصل إلى

الزجاجة، وعندما تصل إلى الزجاجاة في يد الساقى تقول له «لقد كنت أبحث عنك طيلة الليل» هذا هو بالضبط ملخص حياتك، تتجاوزين الجميع من أجل شيء تافه، زجاجة مياة غازية!

مجموعات البلاك بييري والواتس أب التي زرعتيني فيها، والدعوات التافهة لكل عيد ميلاد، والتحضير للهدايا والمفاجآت. مئات التعليقات السمجة «أوووه ماي جاد. باموت فيكي يا سو يالا بقى عاوزين خروجة جامدة من بتوعنا أنتوا أزاى كده. بعشقمك فشخ. بيبي مستنياكوا يالا سوشي؟ أوووو بموت في السوشي. سوري يا جماعة أنا رايحة سخنة. طب خليها ساحل. وaaaa أنا دايسه. مين جاي؟»

«سو: كيمو إنت رايح التحرير؟ بليز تاك كير إيبي: كريم بليز خلي بالك من نفسك. باكينام: كيمو بليززرز طمنا عليك. ميرو: كريم أنا خايفة عليك. كريم: ثانكس أيفري ون» اذهبوا إلى الجحيم، الرحمة!!

معلوماتهم عن السياسة والثورة لا تقارن بعمق معرفتهم عن قائمة المقبلات في «سيقويا» وعروض التخفيضات في «زارا». يتشبثون بأسلوب معيشتهم باستماتة وبمرتابتهم من الشركات الأجنبية التي ينفقونها كلها في سلاسل المطاعم وإكسسوارات البلاك بييري والأبي فون. أتمنى أن أتزوج فتاةً عادية من الزيتون أو أول فيصل، فتاةً تركب المترو المزدهم وتناضل لتحصل على وظيفة وعريس لديه شقة بأكتوبر غرفتين وصالة.

حديثهم عن المرأة في الغرب والمساواة يشير غثيانى ولكني أظل

صامتاً، أين «أشلي» لتخبرهن عن الحياة هناك؟ تلك الفتاة النحيلة الكادحة كمنحلة لا تتوقف، تعرفت عليها في مقهى صغير بتورنتو، ابتسمت لها فابتسمت لي هكذا بكل بساطة ودون تعقيدات، تعرفنا أين «أشلي» لتحكي لهم عن حياة الفتاة في الغرب؟ تلك الفتاة التي وجدت نفسها تواجه الحياة في الثامنة عشر من عمرها، كان عليها أن تكدح من أجل وظيفة لتسدد إيجار الاستوديو الصغير وأقساط القرض الذي حصلت عليه لتدرس إدارة الأعمال. تصحو كل يوم في الصباح الباكر لتشق الطرقات المكدسة بالثلج للحاق باجتماع مبكر، لا تستطيع التأخر دقيقة فمناخ العمل هناك لا يفرق بين رجل وامرأة، تعدو بعد العمل للحاق بفصول الدراسة الليلة، وعلى الرغم من كل هذا تطوعت في حملة لتعليم الأطفال بسراليون لمدة ثلاثة أشهر!

أما هنَّ فيجلسن على مؤخراتهن أمام الفيسبوك ليلقوا على صورة لطفل بائس في إحدى قرى مصر بعبارات الأسى والتعاطف مع الفقراء، ثم ما أن يعلن شاب ما عن تنظيم زيارة لملجأ أطفال في رمضان حتى يتطوعنَّ جهراً وعلانيةً بحملة للمشاركة، ويمطرون الفضاء الإلكتروني بصورهن مع الأطفال. ناهيك عن الكثير من الشباب الذين يشاركون بحماسة وإيجابية، لا لشيء سوى لأن «المزز» أعلنوا الذهاب. فرصةٌ لا تفوت ليظهر بمظهر الشاب الحنون الإيجابي، وهو ذاته الذي كلما اتصلت به للقيام بمهمة ما، أمطرك بوابلٍ من الأعذار ابتداءً بأمه المريضة وانتهاءً بضغوط العمل، كل ما يخطر على بالك من الحجج التي يحرص فيها على التعظيم من شأنه والتضخيم من صعوبات عمله وأهمية التزاماته. أنا أتلقى كل هذا وأدعي تصديقه وأمثل دور الساذج ببراعة.

أين كل هؤلاء من ياسين السحرتي الذي يُعيل أمه وأبوه وأخوته الخمسة؟ هل يعرفون عن الشظايا التي ما زالت تسكن كتفه إلى الآن؟ هل يعرفون كم كان شجاعاً عندما تخاذل الجميع؟ ياسين السحرتي الذي قرَّب بين الأضداد المتناحرة وسيطر على وحدة الصفوف داخل الجبهة بتسامحه مع نفسه ومع الجميع. ياسين الذي عمل في الظل ولم يخرج يوماً إلى العلن، لم يتاجر بالثورة كما فعل الجميع. أنكر ذاته وأثر أن يعمل لوحده، دون أن يخاصم أحداً من الرفاق أو ينتقد أحداً حتى جاءت المفاجأة الكبرى التي لم يفهمها أحد إلى الآن، رحل ياسين وترك الجبهة في مهبط ريح عبد القادر وعاطف والاختراقات المتوالية. عندما رأى أدهم يبكي ذات يوم على الدرج أسفل المقر، سأله عما يبكيه؟ فلم يجب. عيناه كانتا تنزفان حزناً وانكساراً، عرف بعدها خبر انسحاب ياسين السحرتي. لم يعرف هل يبكي مثل أدهم ويسلم حاله للضياع والخيبة؟ أم يثور ويحطم المقر على رؤوس كل الرفاق الأغبياء؟ يتذكر كريم عمر تلك اللحظة بأسى وهو يطالع قاع الكوب الفارغ أمامه. الآن فقط أيقن أن انسحاب ياسين السحرتي كان أقل وطأةً عليه من مشهد بكاء أدهم، إن الانكسار أسوأ من الهزيمة نفسها

عاد يجمع في ذاكرته المشاهد وبدا كلُّ شيءٍ في ذاكرته ناقصاً، كل الخطوط لا تمضي في طريق له نهاية. كل شيءٍ مثل خيبة الثورة التي تركتهم في اللامكان واللازمان واللافهم. لمَّ انسحب ياسين السحرتي خلال أحداث محمد محمود ومجلس الوزراء؟ وكيف مات مروان الناجي؟ ذلك الهزيل بنظرته النقية كبحر نائم على أفقٍ مترام. يفتقد مروان الناجي بشدةً في كل يوم ومع كل حدث، في كل أزمة

سياسية يفتش عن مروان، يتساءل ماذا كان سيقول؟ ماذا سيكون رأيه في هذا؟ كريم الحاصل على ماجستير في العلوم السياسية لم يكن يفهم في السياسية بقدر معرفة مروان الناجي بها صدى مقولاته الشهيرة تتردد في رأسه، يتذكر آخر لقاءٍ جمعهما في مطلع تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي، حينها قال له مروان وهو يتابع أجواء الانتخابات على الشاشات:

«الشعوب تصوّت ولكنها لا تنتخب.

يتحدث السياسيون طيلة الوقت ولكنهم لا يقولون شيئاً

يذهب الموظفون إلى العمل ولكنهم لا يعملون.

الإعلام يتأمر، ينتقي، يعتم ويتنذل الإثارة.

المدارس، الجامعات والمنابر تعلّم الجهل.

القضاة يعاقبون الضحايا

السلطة تشن حروبها ضد شعبها

الشرطة في خدمة الجريمة.

الإفلاس للشعب والأرباح للخاصة.

التقود أكثر حرية من جميعاً

الرأسمالية في خدمة السماسرة.

الثورة في خدمة المنتفعين.

وأنا وأنت في خدمة الإحباط»

يحفظ كريم ذلك الحديث. عن ظهر قلب. يفكر طويلاً في مروان

الناجي، مروان قتلته الخيبات. لعبته مع الأحلام خدعته، مزقته

إرباً مات مروان لأنه الوحيد الذي صدق، حلق نحو السماء ولم ينظر تحت قدميه .

رفع كريم عينيه ونظر في الوجوه التي حوله، أراد أن ينفجر ولكنه طلب زجاجة بييرة أخرى واستسلم لثقل العقل، تمزقه أفكاره التي تدور كطواحين الهواء. يودع الجالسين ويغادر إلى طرقات المدينة ثقيلًا، مهزومًا، مطلقاً على الشوارع في جوف الظلام. يتسائل السؤال القديم نفسه الذي ظلّ لسنوات يطارده، ما الاختلاف بين شوارع القاهرة وشوارع تورنتو؟ هي في النهاية شوارع، بشر تمرّ، سيارات مركونة على الجانبين، بيوت وأرصفة. تورنتو مدينة منظمة ومتحضرة، والقاهرة مزدحمة وعشوائية، ولكن هذا الفرق لم يشكل شيئاً لكريم. كريم الذي أمضى أربعة أعوام في الدراسة ما بين تورنتو ولندن، وقبلها قضى طفولته في الدوحة لم يكن يرى فرقاً بين كل هذه المدن التي سكنها أو زارها لم يكن أحدٌ يقتنع بنظريته تلك ولكنه كان مقتنعاً بها عندما كان يدور بسيارته في ميادين القاهرة ويقطع الطرقات والكباري، كان على يقين بأنه لا يوجد فرقٌ بين المدن، كل المدن سواء ولكن الفرق يكمن فينا نحن، أية حياةٍ اخترتها لنفسك هو ما يشكّل الفرق.

أنت مدينتك الكبرى، أنت ما ستكون عليه في أي مكان وفي أي وقت، كلها طرقات تجوبها وأنت تبحث عن نفسك. أحياناً كان يرى كريم أن القاهرة هي أكثر مدينة يعرفها، بالرغم من أن كلّ ما عاشه فيها لم يتعرّع بين طرقاتها هناك دائماً شيءٌ ما في تلك المدينة يدلّه على نفسه، الطرقات تدلّه على نفسه، الأشخاص يعبرون عن ما هو عليه. أينما ذهب في حياته التي بلغت 28 عاماً كان يجد

دوماً في القاهرة كل الأشياء التي تدل عليه . لم يكن يفهم هذا، ولكن مع الشرارة الأولى للثورة كان ميدان التحرير بالنسبة إليه مركز الأرض وكل ما كان يبحث عنه . نشأ في الدوحة، هناك على شطآن النفط حيث يجب أن تبقى سجين هواء المكيفات الباردة، سجين السيارة، وسجين المول، تتمحور حياتك برمتها حول الراتب المنتظر في نهاية كل شهر أبوه أستاذ علم الاقتصاد، علّمه ذات يوم أنّ آفة المصريين أنهم يتحدثون دوماً في شيئين لا يصحّ أن تتحدث فيهما دون علم، «الدين والسياسة» الدكتور عمر فرّ قبل سنواتٍ بنفسه وأسرتَه من مصر بعد أن طلبت منه السلطات أن ينضم إلى الحزب الحاكم فرفض، لاحقوه ومنعوه من الترقّي في الجامعة فرحل . أما كريم فقد قرر أن يعمل بمقولة أبيه ويلتحق بكلية علوم سياسية، قرر أن يتعلم ليفهم . أقنع أبويه فأرسلاه إلى القاهرة ليدرس في الجامعة الأميركية ليكتشف الحقيقة، السياسة محظورةٌ على الجميع هي مجرد شهادة ستحصل عليها وبعدها ستقف في طابور امتحان الخارجية . تلقى دعوةً للغداء في الطابق الأخير بمبنى الوزارة المطل على نيل القاهرة وأجلسوه على الطاولة الخلفية . وقتها فهم الفرق بين البلدين، الناحية الأمامية تطلّ على النيل المهيب وحي الزمالك الراقي وملاعب نادي الجزيرة الخضراء، أما الناحية الخلفية فتطل على عشش ماسبيرو ووكالة البلح . مدينتان مختلفتان وعالمان متباعدان يقيمان في المكان نفسه، هنا على جانبي الطابق الأخير لبرج وزارة الخارجية . لملم أوراقه وغادر، لا مكان لأحلامه هنا سافر إلى كندا ليحصل على الماجستير، وانتقل بعدها إلى لندن للعمل في إجازةٍ شتوية عاد إلى القاهرة ليقتضي بعض الوقت بين

أقاربه وأصدقائه. خلال إجازته تابع على شاشات التلفزيون ما يحدث في تونس، في تلك اللحظة تملّكته الفكرة، لما لا؟ ما يحدث في تونس نستطيع أن نفعله هنا

مرّ عامٌ على هذا اليوم الذي نزل فيه ليهدف في المظاهرة، عامٌ تبدلت فيه الأشياء بعنف. كل شيءٍ كان إيقاعه قوياً وصادماً، كل تفاصيل حياته انحرفت تماماً عن ما كانت عليه. لم يكن يعرف متى وكيف حدث كل هذا؟

في عشية الليلة السابعة بالميدان قرر أن يتشبث بالوطن الذي تركه وأن يتوقف عن الطيران. هذا الوطن اقترب منه وضمه بعد طول جفوةٍ وغياب، أبٌ يحتضن أبناءه معتذراً عن كل ما مضى. في تلك الليلة انضم إلى مجموعة من الشباب لا يعرفهم، عيونهم كلها عزيمة وأحلامهم تحلق عالياً كانوا على قلب رجلٍ واحد، هؤلاء هم من تجمعوا في الدائرة واختاروه كمنسقٍ إعلاميٍّ للجبهة. دراسته للسياسة وإجادته لثلاث لغات وقدرته على التواصل مع الإعلام والصحافة رشحته بقوة. أول من طرح الفكرة كان شاباً نحيلاً يرتدي معطفاً طويلاً، يسير دوماً برفقة شاب أسمر يجيد الإصغاء ويمتلك حضوراً قوياً ومؤثراً في الجميع، مروان الناجي وياسين السحرتي. الاثنان اللذان أسسا فكر الجبهة في بداياتها، لم يعرفهما الإعلام ولكن الثوار الحقيقيون كانوا يعرفونهما أكثر من أي شخصٍ آخر عندما استمع إليه أول مرة، تبادلوا النظرات ثم ربت ياسين على كتفه وقال «انضم إلينا». تلك الألفة التي أطلقت من عيونهما أشعرته بثقلٍ كبير، ثقل المسؤولية. أين ذهبت تلك الجبهة التي انضم إليها؟ هي الآن شيءٌ آخر.

تلك الجبهة التي بنيت على فكرٍ ثوري حقيقي يتسع لكل الثوار، مرّقت. كل المناصب حولها عبد القادر وسماحة وعاطف إلى صورة وصار الجميع ينسق لنفسه ويتحرك بمفرده. كل المناصب في المكتب السياسي للجبهة صارت شكلية. صار كلٌّ منهم متحدثاً رسمياً باسم نفسه، وصار هو مجرد برواز خاوٍ. عرفة الدب سخر من الجميع بخفة دمه المعتادة، وأتى ذات يوم يحمل جردلاً ومقشّة. رسم كاريكاتيراً وعلقه على باب المقر يصور المناصب داخل الجبهة كسلاح المقشّات.

لم يستمع أحدٌ للآخرين ولم يستمع أحدٌ منهم حتى لنفسه، كانوا يستمعون فقط إلى الضجيج وينجرفون خلف الأحداث. يتذكر الليالي التي قضاها مع مروان وياسين في مقر الجبهة، ياسين هذا المهموم بكل شيء، يظلّ واقفاً طيلة الوقت وإن حدثته، اقترب منك ونظر في عينيك باهتمام. لا يحيد بفعله عن قوله مهما حدث، في وسط المعارك يتقدم ولا يخشى أحداً قويٌّ كالثورة، هادرٌ عندما يتحرك. على رأس المسيرة يهتف فتعصف بهم المشاعر، لا يتراجع عندما يشتد الخناق. يقف بين الرفاق ينظم الصفوف. قال له ذات مساء «أجمل شيء هو أن تجمع الناس على هدف واحد»

يشرد كريم عمر في صور الذكريات المتوالية من قلب أمسياتٍ بعيدة. هناك بجوار باب الشرفة المطلة على طرقات وسط المدينة كان يقف السحرتي بينما الناجي يرتمي مجهداً على الأريكة، الاثنان اللذان لا يفترقان. مروان بنظارته الرفيعة ولحيته النابتة، ياقة معطفه توارى جانبي وجهه النحيف، يتطلع نحو سقف الغرفة ثم يقول «علينا أن نقف على أفكارنا وليس على أقدامنا. . أقدامنا لن تحملنا

بعيداً» مروان الذي كانت كلماته كالسحر، تنبض عروقه بأحلام
جيل كامل، من الذي قتله هكذا؟ لا بد أنه وحشٌ عظيم الشر لا بد
أنه الوحش نفسه الذي أبعد ياسين وجرّه بعيداً حتى غاب.

القنديل يفتersh الأفق ويتمكن من الإحاطة به، يجثو الحزن
البطيء فوق سماء المدينة. تتسرب إلى صدره المرارة كما يتسرب
البرد إلى جسدٍ عبر رداءٍ مهلهلٍ مليءٍ بالثقوب. يلوح الخوف في
الأفق أينما ذهب في الطرقات، أكل الوحش مروان الناجي على
مهل، هل سيأكل هذا الوحش ياسين والباقيين؟ الوحش يتقدم مقترباً
ويبتلع كلَّ يومٍ شيئاً جديداً هناك في مكان ما يرقد مروان الناجي في
سلام، ولكن صراخه ما زال يدوي في الرؤوس. هناك في مكان ما
ياسين السحرتي، والصمت المفجع يطحن الزمن بقسوة. هناك في
مكان ما ضجيج الرفاق على صفحات الإنترنت. هنا أنا منقسم على
نفسي ولم أعد مؤمناً بأي شيءٍ ولا حتى بذاتي.

ارتجفت يدها على عجلة القيادة فدار فجأةً بسيارته، دار بحدّة
فأطلقت إطارات سيارته صريراً مجنوناً عاد إلى بيته هارباً من
المدينة التي كانت تحوم فوقه كشيحٍ قاتل.

أتراساوي

أنا زئير الجيل
أنا وطيس الهتاف في الثالثة شمال
أنا الطاقة المهدورة.

«صادقتهم لأعرفهم.. أخذوني إلى المقهى ومنه إلى
المباراة.. خلعت قميصي وارتديت الشعار.. هتفت معهم حتى
ذهب صوتي.. الآن فهمت.. إنه الانتماء إلى شيء تفهمه..
الوطن بعيد وغير مفهوم، أما الكرة فيفهمون الأدرينالين
الملفوف حول محيطها.. ينتشون مع الهجوم، ويتشبثون مع
الدفاع.. الواقفون حولي يحضنونني بعد الهدف.. لم يحضنني
أحدٌ بسعادةٍ كهذه من قبل!.. أقفز من مكاني لعنان السماء..
خذوني معكم!

ذلك المراهق، وحيدٌ مثلي.. يبحث عني ويأتيني ليجلس
على مقعد مجاور.. يقول لي أنا لا أفهم الكثير من كلماتك
ولكن الذي أفهمه منك يبكي.. يقول لي علمني.. أنا لم أعلمه
شيئاً.. وسأموت دون أن أعلمه شيئاً.. هو الذي علمني.. أخذني
إلى زملائه.. أخذني إلى المباراة.. أهداني علم النادي.. قرأ لي

تاريخ ناديه.. علمني أسماء اللاعبين.. علمني أن أقفز في الهواء عكس الجاذبية مع كل فرصة هدف.. علمني أن فريقه سينتصر مهما يكن لأنه أعظم فريق في الكون.. علمني أن أرقص في الطرقات بعد المباراة.. حررتني من عقدي علمني أن أكون مجنوناً.. أن أسير خلف أحاسيسي.. من منكم يعرفهم ليحكم عليهم؟ هل تعرفهم أنت؟... أنت مثلي مروج بهمومك.. ما نذبهم أنهم خرجوا من وطنٍ غائب.. وطنٍ لا ينتصر.. وطنٍ بلا كؤوس.. وطنٍ بعيدٍ كالوهم.. أما في الثالثة شمال ومع الثواني الأخيرة.. الكرة المصوبة تسكن الشباك.. هنا الفرحة!.. هنا يحتضنون بعضهم بعضاً.. هنا يطلقون الشماريخ لتضيء السماء.. هنا أنا أحلق بلا أجنحة.. هنا يوجد من يشاركك الحلم.. هنا أدهم بجسده الضئيل يحملني لأعلى وأهتف.. هنا لا أتلعثم.. هنا يضربوننا بالعصي بعد المباراة.. هنا يزجون بنا في ممرٍ ضيقٍ للخروج.. هنا يبطنون بنا.. هنا نحطم السيارات على أبواب الأستاذ.. هنا نكرههم.. هنا نغضب ونغضب ونغضب».

- يا أدهم إنت صحيح هتموت؟

نظر أدهم بدهشةٍ إلى أخيه الصغير الذي تبعه إلى غرفته، وضع حقيبة ظهره جانباً، ثم التفت إلى أخيه وقال غاضباً

- مين قالك كده؟

- ماما

- ماما قالتلك كده!!؟

- سمعتها وهي بتصلي بتقول إنها خايفه إنك تموت

- متخافش يا عمر . يالا روح العَب على الكمبيوتر

- طب هو إنتَ مع الناس الوحشين اللي بيحرقوا البلد

ويكسروا؟

صمت أدهم لوهلة مفكراً، لم يعلم كيف يجيب عن أسئلة أخيه عمر الذي لم يتجاوز من العمر السبعة أعوام. ارتمى على الفراش بملابسه التي ينبعث منها رائحة الغاز والعرق، الغضب يكاد يقتله، إنها مؤامرة!

كيف يقتلون كل هؤلاء؟ أكثر من سبعين ماتوا البارحة في بورسعيد، والليلة مات آخرون في محمد محمود والسويس بالإضافة إلى مئات المصابين. مات الكثير من أصدقائه بالأمس في إستاد بورسعيد، ذهبوا ليشجعوا ناديهم وعادوا في نعوش. أكثر من سبعة منهم كانوا معه قبل المباراة بيوم، سهروا حتى الصباح في مقهى بالمهندسين ووعدهم أن يسافر معهم بعد أن دبروا له تذاكر القطار والمباراة. لم يذهب معهم البارحة لأنه تأخر في الكلية بسبب مشروع تصميم كان عليه أن يسلمه. لم يذهب معهم إلى المباراة ولم يُمّت معهم، يبكي وحده والمرارة تغوص في أعماقه بلا توقف، يعتصر الحزن صدره والتعب يتملك منه. يغمض عينيه فيرى ضباب الغاز ينتشر أمامه وقنبلة المولوتوف في يده يوّد أن يطلقها بأقصى طاقته، يصوبها بكل ما فيه من غضب. يشعر بيد ياسين السحرتي القوية تطبق على يده، يجره إلى الخلف خارج أرض المعركة، يأخذه معه بعيداً ولكنه يغافله ويهرب منه. يتوارى في ظلام الطرقات الجانبية، حيث ينضم إلى صبية يملؤون زجاجات المولوتوف. ينتظر منتصف الليل

ليعود إلى شارع الفلكي ومنه إلى محمد محمود حيث المعركة .
أصدقائه ما زالوا هناك يضجون بالغضب ويقذفون المولوتوف
والحجارة، ينطلق بأقصى سرعته محاولاً إلقاء القنبلة ولكنه يشعر بيد
ياسين تقبض على يده . كان هذا في تشرين الثاني / نوفمبر الماضي ،
أما الليلة لم يكن ياسين حاضراً وكان أدهم وحده أمام بوابات
الجحيم ، أمام كيانه الملتهب بنيران الغضب . الليلة لم يكن هنا
ياسين السحرتي ، لم يعد يشعر به ، لقد تركه في المكان نفسه في
تشرين الثاني / نوفمبر ولم يأت إليه الليلة . يفتش في ذاكرته بين
الوجوه ، مروان الناجي مات ولم يخبره كيف تنتصر الثورات ،
درويش الذي كان ذات يوم صديقه المقرب لم يعد يفعل شيئاً سوى
انتقاده ، ينتقد الأتراس وينتقد أفكاره السياسية . لم يعودوا أصدقاء .
عاطف كاذب ، كل ما قاله اتضح أنه كذب . عرفة الدب غارق في
يأسه لا يغادره . عبد القادر يشك في الجميع ويتهمهم بالغدر ، لم
يعد يهتم سوى الظهور الإعلامي . شيماء لم تكن موجودة في أي من
الاعتصامات الأخيرة ، صار كل همّها زملاؤها في العمل الأجانب
التي تجوب معهم مقاهي وسط البلد طيلة الوقت . كل الرموز
تساقطت أمامه . ماذا سيفعل بلا رمز للثورة؟ كلما صار خلف رمز
وآمن به ، خذله . تساقطت أمامه رموز الثورة مع الوقت ، رمز التغيير
الأكبر انسحب من الانتخابات . هذا الرمز الذي سكن كيانه بكلماته
عن الحرية والديمقراطية ، تركهم وحدهم يخوضون المعارك على
الأرض . اللعنة على كل المدافعين عنه . أنا لا أريد أن يحدثني أحد
عن ما يجب أن يكون ، أنا أريد من يقف معي وسط المعركة ويخطئ
أو يصيب معي . كتفه إلى كتفي ، حاله من حالي ، أريد من يقف

وسطنا في المدرجات ومن يقف وسطنا في محمد محمود. لا أريد ياسين أن يحميني من المعركة، أريده في قلبها معي. لا أريد مروان أن يقول لي بأن الديمقراطية ليست الحل، وما الحل إذًا؟

كلهم سقطوا وتركوه، باعوه للألم ولم يقولوا له أين يذهب. من يحمي معه غضبه؟ من يأتي ليقف على رأس الثورة ولا يتزحزح؟ تركوه في بحر عواصفه الهائج. كيف سيعود من ماتوا؟ الليلة لم يعد يشعر بيد ياسين تمسك به، تحرر من تلك القبضة وهو يقذف زجاجات المولوتوف. يده لم تعد تفهم سوى لغة النار الحارقة، يغرق في دوامات الأسى بلا نهاية، تحجبه مرارة الحزن عن الحياة فيغشى عليه من التعب كجثة هامدة، ولكن يده ظلت ترتجف بشدة.

نار الثورات

«نار الثورات تحرق أصحابها.. هكذا صدق وعد التاريخ
لا توجد حرب ستنتهي كل الحروب.. هكذا قالوا
لا توجد ثورة ستقضي على كل أشكال الظلم.. هكذا
ستفهم.

إنها فقط مرحلة تغيير ثوابت ونحن ثابتون لا نتزعزع..
ذهبنا إلى اللحم بكل ما يمتلك الحالم من إخلاصٍ لعالم حلمه..
مرّ علينا اللحم للحظة كنا فيها نحلق في سماء الميدان ثم
تركنا في أماكننا عندما صحونا بعدها وجدنا أنفسنا أهل
الكهف تراكم عليهم غبار الدهور.. كم هو غريباً أن تصحو
يوماً ما لتكتشف أنك مكثت هنا دهوراً في غياهب اللحم ولم
يتغير شيء!.. كبرنا وشابت أحلامنا وعدنا إلى طرقات المدينة
تائهين لنُسحق مجدداً وسط الزحام.. شهدنا الثورة التي
انتظرناها كآخر قطار يغادر أرض الهلاك.. أرض الغربة
والفساد.. هربنا من وطن إلى وطن آخر من صنع الأحلام..
سننظف الشوارع.. سنمحو آثار الفرعون الملعون.. سنبنني..
سنشيد.. مصر 2020.. مصر النظيفة.. مصر الأمل.. مشاريع
خططانها على صفحات الإنترنت ولم نبني فيها حجراً.. لم

ننشئ فيها سوى الاسم والشعار والآلاف من ضغوطات
أعجبي.. مناقشات واقتراحات ابتلعها الفضاء الافتراضي.. إنه
الفرغ الذي نعبئه بالضجيج.. أما الحلم فقد اتسع واتسع
حتى ابتلعنا وغاب.. نحن الحلم الذي أتى وانتصر ثم لم يعش
بعدها ليرى النور ومات.. عند كل خيبة عدنا إلى الميدان..
نقتل الحلم من جديد.. نناجيه.. ننقش شعاراته من جديد على
الحوائط لعلها تستحضر روح هذا المارد.. لم يعد.. غاب
وتركنا شرانمَ هنا وهناك.. نحن الحالمون الذي أفلتنا الحلم
وظننا أنه لن يفلتنا.. هل رأيت من قبل قلباً يعدو دون
قدمين؟! سنعيش طويلاً ندعي أن الحلم مستمر وأن المارد
مدفون في التحرير وسيخرج.. سنعيش طويلاً ندعي أننا لم
نصحو.. سيقول لك الرفاق لا تخن الحلم.. لا تخن الثورة..
إنهم لا يخشون خيانة الواقع ولكنهم يخشون خيانة حلمهم..
إنهم يخشون الحلم ذاته.. لا يصدقون أنه تركهم.. لا يصدقون
أنهم وحيدون على الأرض.. لا يصدقون خيانة الآخرين.. لا
يصدقون تخاذل أنفسهم أمام أنفسهم.. لا يصدقون أن لعبة
السياسة شتتتهم في الدروب.. لا يصدقون أن الوسائل نفسها
لا تؤدي إلى النتيجة نفسها في كل مرة.. نعم إنها الخدعة..
لقد ألقوا بكل أوراقهم على الطاولة.. قامروا بكل ما يملكون
دفعاً واحدةً وظنوا أنهم الرابحون.. الطاولة يجلس إليها
لاعبون ماكرون.. يخبئون أوراقهم الرابحة للجولة القادمة..
احرق أوراقك أيها الغرّ سريعاً.. سيلقي المحترفون أوراقهم
في النهاية وستخسر كل ما حققت.. السياسة ليست للهواة..
انظر في الوجوه من حولك على الطاولة.. لقد أجادوا تمثيل

الهزيمة ودور الضحية.. بعضهم لعب على تحطيم الأعصاب
وخبئوا نواياهم.. وبعضهم قفز على مكاسيك واغتممها..
وبعضهم انتظر أخطاءك ليبدل حظه وأوراقه.. في النهاية
سيربحون كل شيء وستخرج خاوي الوفاض.. ولن تفهم
كيف انتصروا.. لن تفهم لأنك لا تتعلم.. الاستسلام سيصبح
مصيركم جميعاً.. الواحد تلو الآخر.. اللعبة اتسعت وتعقدت
والكل تائئاً يتسائل كيف تحولت الأوراق الراححة إلى
خاسرة؟!»

أنا سخريتك من ذاتك

أضحك كي لا تبكي!

الدرس التاسع عشر في علم السياسة: أنت من حقك أن تبدي
بعضاً من اللاشيء وذلك على سبيل الاحتياط.

في الليلة الثالثة من شباط/ فبراير عاد الرفاق من التحرير
وقصدوا المقهى القديم بوسط البلد، حسين كان جالساً هناك وحده
يدخن الشيشة في صمت. جلسوا أمامه صامتين والحزن يخيم على
وجوههم إلى أن قرّر حسين أن يكسر الصمت، داعب الرفاق قائلاً
- أهلاً بيكم! إنتوا عاملين زي ناس راحوا مطعم سمك
وطلبوا كيلو كباب وأكلوا محشي ودفعوا حساب تلاته بيتزا ولما
قاموا استغربوا جداً إن الرز بلبن مكانش فيه زبيب!

ردّ درويش مطرقاً بلا اكتراث:

- بدأنا النكت والتهريج من أولها!

ساد الصمت قبل أن يقول كريم:

- تفنكر هيحاكموا المسؤولين عن المذبحة؟

وضع درويش رأسه بين كفيه قبل أن يقول:

أنا معدتس عارف البلد دي رايجه على فين؟!

قال حسين معلقاً

- مش مهم البلد رايجه على فين. المهم بتعرف تعوم ولا لا؟

ابتسم الرفاق ولكن درويش ظلّ واضعاً رأسه بين كفيه يأساً، رنا

حسين نحوه قبل أن يقول له:

- أنا عارف إنك نفسك تطلع من نفسك. بس مش عارف.

رفع درويش رأسه وتطلع نحو حسين قائلاً

- مش عارف أبطل سياسة يا حسين أنا حتى بقيت مش فاهم

نفسي. بالرغم من إني مؤمن بكلام عمّنا الأبنودي. إحنا ولاد

الكلب الشعب بتوع الضرب بسن الجزمة وبوز الكعب. وبالرغم

إني مؤمن بكلام أمي لما كلّ يوم تفكرني وتقولي السياسة مش

هتتفعلك. على غرار مقولة الإنكار مش هينفعك. بس لسه تايه!

زمان كنت دائماً بحلم بثورة. بحلم أشوف بلدي أحسن لكن مع

الأيام الحلم اختفى من كتر اليأس اللي كان حوالينا بس يا سيدي

وهوب عملنا ثورة. وهوب الحلم اتجدّد. وهوب أسّسنا

الجهة. أنا ما كانش ليّه في الزفة السياسة. أنا عمري ما اشتريت

جورنال. دلوقتي غرقان في السياسة بغطس لتحت ما بقبّش.

أحضر ندوات واجتماعات. أكلم ناس في الشارع وأوزّع ورق.

أنزل مظاهرات. أشارك في مسيرات. أبات في اعتصامات.

أضرب وأتسحل. امبارح كنت رايج أقرأ فاتحة وأبدأ حياة

جديدة. لقيت المسيرات متجهه لوزارة الداخلية. نسيت موضوع العروسة وكلمت أدهم والبوب ونزلت متضامن مع الألتراس مع إني ما بحبش الكورة. اضَّربَيت عليّ قنبلة غاز جت في الحوض وربنا ستر أنها ما جتش في حتة تانية. طبعاً العروسة طارت وأبويا مسح بيا الأرض بعد ما صغرتة قدام الناس. شكلي وحش قدام العيله وشكلي وحش بعد ما انسحبت من محمد محمود وسبت أدهم والبوب. وشكلي وحش قدام نفسي من زمان. لا أنا فالح في الطب ولا عارف أبطل أفكر في السياسة ولا أحداث البلد عاوزه تسييني في حالي. بقيت «كئيب» زي ما أصحابي يقولوا ورخم. طب أعمل إيه؟ وأضحك إزاي من اللي بشوفه؟ أكيد نزولي المظاهرات مش هيرجع اللي ماتوا ولا هايخلي الناس تتحرك، بس لو كل واحد كبر دماغه وقال مش فارقة يبقى البلد هاتضيع تاني. أنا كلّ يوم نفسيتي بتبوظ وبتتعد أكثر يا حسين.

- أنا من رأيي. لما تموت اتبرع بنفسيتك للبحث العلمي.

قالها حسين بنبرة سخرية لاذعة، فانفلتت منهم الضحكات بالرغم من الكآبة المطبقة على وجوههم، ثم ساد الصمت الثقيل. زفر مينا زفرة يأسٍ بينما تطلّع كريم نحو هاتفه وظل عبد القادر مطرقاً لم يجد حسين بدأ سوى أن يطلق أحد قفشاته وكعادته يتحدث ويرد على نفسه

- وقعدنا نهتف ونقول يا نجيب حقهم يا نموت زيهم. جبت حقهم؟ لأً أمال عملت إيه؟ مت زيهم. أنا من رأيي إنكو تغيروا الهتاف وبقى. يا نموت زيهم يا نموت برضه زيهم!

قاطعته عبد القادر بنبرة جادة:

- دي أكيد مؤامرة من الدولة . 75 شهيداً؟!!

رد مينا قائلاً:

- أو من الأمن . بينتموا من الألتراس

هرش عبد القادر رأسه:

- ممكن يكونوا استغلوا الفلول في المؤامرة دي .

خرج كريم من صمته وقال بلهجة متهكمة:

- كل مصايينا لزقناها في الفلول والطرف الثالث . ليه مش

عاوزين نقتنع إن المسميات دي لعبة سياسية علشان يتم تغييرينا؟

إحنا فينا همج . إحنا فينا كل الأطراف . مش كل حاجة هنقول

فلول وطرف ثالث . إحنا بندور على شيطان نعلق عليه كل الوحش

اللي فينا علشان نرجمه ونقول هو ده السبب . من أسباب فشل

الثورة إن إحنا عمرنا ما اعترفنا بعيوبنا ولا اعترفنا بحقيقة

المشاكل . دائماً بندور على طرف نلبسه الليلة وندور ليل نهار نلعن

فيه وننزل مسيرات نهتف ضده .

قاطع عبد القادر محتدماً

لأ دي مؤامرة ومتخطط لها كمان .

هتف كريم متهكماً

- إنت إمتى هتخرج من نظرية المؤامرة اللي معيشنا ومعيش

نفسك فيها ليل نهار؟

اشتبك الاثنان في جدلٍ حاد وطويل حتى قاطعهم مينا قائلاً:

- أنا مقتنع إن المجزرة دي نتاج طبيعي للفوضوية والهمجية .

حتى لما اتهموا واحد وقالوا إنه اللي دبرها وإنه فلول . راحوا

حرقوا محلاته . الهمجية نفسها اللي موتت الناس في المدرجات
بتتعاد وده دليل على إن الكارثة نتاج همجية .

رد درويش محتدأ

- بفرض إن كلامك صح . طيب كلمني عن مدير الأمن
المسؤول عن حماية الجمهور . والبوابات اللي اتقفلت ورسائل
التهديد اللي كانت قبل المباراة . كان باين من الأول إن في كارثة
هتحصل . شباب بتموت في بورسعيد وشباب بتموت في محمد
محمود وكل اللي إحنا بنتتجه . نظريات . في نظريات . أنا هرجع
على التحرير

جذبه عبد القادر وأجلسه بعد أن همَّ بالرحيل ، قال بنبرة حاول
أن يضيفي عليها بعضاً من الهدوء :

- يا جماعة لازم نفكر هنعمل إيه . مش وقت خناقات
دلوقتي . ساكت ليه يا حسين؟

أخذ حسين نفساً عميقاً من الشيشة ثم أطلقها في الهواء وعقب
بنبرة سخرية :

- حسين مش بيرد .

- هيعمل عبيط!! إحنا مش بنقولك اعْمِلْ حاجة . أنا
بقولك إيه رأيك؟

- جمال .

- نعم!!؟

- جمال مبارك هو السبب .

- جمال مبارك في السجن!

- جمال مبارك هو اللي قال رد أنت يا حسين . ومن يومها كل

اللي اسمهم حسين مش بيردوا في اتفاق ما بين كل الحسينات

بعدم الرد تحت أي ظروف . عمرك شفت حسين بيرد؟ لو لقيت

حسين بيرد يبقى مش حسين . هتلاقيه حسنين وعامل فيها حسين .

أشاح عبد القادر بيده، وطأطأ درويش رأسه وتمتم كريم بكلامٍ

غير مفهوم، همس مينا في النهاية يائساً

- مفيش فايده فيك!! عمرك ما هتاخذ حاجة جدّ . الناس

اللي ماشية بمبدأ ما ليش دعوة زيك بتفكرني بحيوان الباندا

مصيرها الانقراض .

ردّ حسين ساخراً

- يا عم اعتبرني حيوان الباندا اعتبرني حيوان السلابندر .

أنا كده أحسن .

لأ إنت كده سلبي والإنسان لازم يبقى له دور في اللي

بيحصل في البلد .

طالعه حسين ضاحكاً ثم قال :

- أنا مؤمن بالمثل اللي بيقول «لا تعطني سمكة، ولكن أعطني

طبق السي فود كله» إحنا لسه هننظر إحنا نمسح البلد ونبدأ على

نضيف .

رمقه عبد القادر بحق، بينما ابتسم كريم وهو يقول :

- أنا ساعات كتير بفشل في معرفة توجهاتك السياسية يا

حسين . إنت مع أي رأي في اللي بيحصل؟

قال حسين بسخرية وهو يشير إلى نفسه بمبسم الشيثة:
- أنا الشعب.

طالعه عبد القادر بغير اكتراث وأطرق الرفاق بعيداً، ولكن حسين فاجأهم من حيث لا يتوقعون، انطلق بنبرة لاذعة يجلداهم الواحد تلو الآخر:

- أنا زي الشعب. أنا مش داري بحاجة ولا عاوز أدري بكل اللي بيحصل. أنا الشعب اللي اتعود على الثورة. الثورة مع الوقت تصبح اعتياد. الشعوب العربية عاملة زي طفل لقي لعبة. كان مبسوط بيها في الأول ولما زهق سابها فضول البدايات على رأي المرحوم مروان الناجي. لما اندمجنا كلنا في السياسة قالي ما تفرحش قوي ده اسمه فضول البدايات. عاوزني أبقى زيك يا أحمد؟ انضم للاشتراكيين. الاشتراكيين اللي بيفتكروا الاشتراكية قدام الشاشات وفي المظاهرات بس. الشخصية الاشتراكية اللولبية المتناقضة. اشتراكي بليل وهو رأسمالي بالنهار حتى النخاع. بيدور على أي مشروع تجاري مريح يأمن بيه نفسه. أول ما كأس الويسكي الفاخر بطلعته البهية ينزل. يطن الاشتراكيون في بارات وسط البلد بأحلى الكلام عن حقوق العمال. كأس الويسكي اللي ثمنه يعيش عائلة كادحة عاوزني أبقى اشتراكي في زمن رأسمالي بحت؟ طب تيجي إزاي؟! الاشتراكية اتغيرت من ثلاثين سنة وفضلت متحجرة في رؤوسكم. عاوزني أبقى ليبرالي زيك يا كريم؟ هو مين فينا مؤمن برأي الآخر أو بحقه؟ الليبرالية النخبوية في بلدنا كلها تنظير. كلها شو لزوم الوجاهة والظهور بصورة عصرية..

الحرية عند النخبة السياسية هي السلطة وعند الرأسماليين هي فرص الاستثمار وعند المثقفين هي التحرر من الملابس الداخلية. عاوزني أبقى زيك يا درويش؟ أغطس في السياسة لحدّ ما أتجنن؟ ولا زيك يا مينا؟ تايه في الزحمة وخايف ليل نهار. وغرقان في عقد الاضطهاد.

رمقه مينا بحدّة فتابع قائلاً:

- متزعلش. الإسلاميين عندهم عقدة اضطهاد تجاه الغرب وتجاه المجتمع نفسه العلاقة متبادلة. والخوف متبادل. إنتوا عاوزين إيه؟ عاوزني أبقى زيكم ليه؟ لا شكراً. أنا هفضل زي الشعب بتفرج. ها فضل مصاحب الريموت. وأقلب كل يوم في ألف محطة فضائية بتذيع الهم والغم. بضحك على نفسي وبنام. بنام زي الشعب. بقول ممكن بكره يبقى أحسن. رغم إني مش شايفه أحسن. بس بقول وخلص. مش عارف أصدّق مين ولا أكذب مين، لا الليبرالي مؤمن برأي الآخر ولا الثورجي ثابت على مبدأ ولا الاشتراكي متشرف ولا المتدين ربنا هاديه!

طالعه عبد القادر بحنقٍ شديد رافضاً الاستسلام، بينما بدا الرفاق متفقون مع ما قاله. بعد فترة من الصمت نطق عبد القادر هازئاً

- إنت بتقول أي كلام!

قاطعته حسين بسخرية:

- فكّك مني يا أبو حميد. الكلاب تمر والقافلة تعوي.

ابتسم الرفاق وتهدد درويش قبل أن يقول:

- القافلة تعوي؟ والله معاك حق يا عبقرينو

ساد الصمت الثقيل بينهم وسبح كلُّ منهم في ملكوته. ظل حسين كما هو يدخن الشيخة وعلى شفثيه ابتسامةٌ ساخرة ولكنها مرّة. وصل عاطف وفي يده شنطة أوراقٍ وضعها بعناية إلى جواره وهو يجلس، عكست ملامح وجهه الجدية وهو يقول:

- وصلتني معلومات مؤكدة النهار ده إن الجريمة من تدبير فلول النظام السابق. لازم نتحرك في الشارع أكثر يا أخوانا مش معقول هنقف كده قدام محاولات الفلول للقضاء على الثورة. إحنا لازم نضغط دلوقتي من أجل تسليم السلطة ورحيل العسكر. أنا شايف.

قاطعه كريم متعضاً

- بلا إنت شايف بلا بتاع إنت إيه بتلعب في الملعب لوحدك؟ معلوماتك المؤكدة جبتها منين؟ الناس بتموت في محمد محمود وإنت جاي تقولي نضغط. يا أخي إنت بتمثل الانتهازية السياسية في أزهي صورها

قام عاطف متنمراً تجاه كريم فما كان من كريم إلا أن قفز من مقعده واقترب منه متحدياً إياه. أصبحت عداوتهما عرضاً مستمراً لا يتوقف. تدخل عبد القادر ومينا للفصل بينهما أما درويش فظل صامتاً، تحمل عيناه نظرات التشفي بالجميع بما فيهم نفسه يتأمله حسين ويتسرب إليه إحساسٌ بأن درويش على حافة الهاوية. يتساءل هل سيكون الضحية التالية؟

يهاجم كريم عاطفاً بشراسة:

- إنت انتهازي ووصولي يا عاطف . مسيري هعرف إنت مع مين وهكشفك .

- سيبك من نظريات المؤامرة اللي إنت عايش فيها دي . أنا من أكثر الناس المخلصين للجهة دي وللثورة . نظرياتك السياسية دي كلها كلام كتب . إنت ما عشتش في مصر وما تعرفش الشارع المصري كويس . أنا أعرف كويس الشارع وتحليلاتي دائماً هي اللي بتطلع صح .

قاطعهما أحمد عبد القادر قائلاً

- عاطف معاه حق . لازم نضغط على المجلس العسكري من أجل تسليم السلطة وصياغة الدستور وتحديد موعد لانتخابات رئاسية . حادثة بورسعيد لتشتيت انتباهنا وجرنا إلى معارك فرعية .

قال كريم بهدوء مثبتاً عينيه على غريمه عاطف :

- مسيري هعرف أنت بتشتغل لحساب مين؟ أنا راصدك كويس . كل الأعبك حفظتها مين كان أول واحد أوحى بأننا نتفاوض مع عمر سليمان قبل التنحي؟ مين أول واحد روج لجمعة 18 نوفمبر وبعدين قال ننسحب بليل؟ أنت كنت فين يا عاطف خلال أحداث محمد محمود ومجلس الوزراء؟

هتف عاطف بحنق :

لا إنت زودتها قوي بتتهمني بدون سند يا كريم يا عمر؟
بتقذفني بالباطل؟

دافع عبد القادر عن عاطف واشتبك الجميع في معركة كلامية طاحنة . بينما ظل حسين يدخن الشيثة صامتاً يرمقهم ، يتفرج وكأنه

خلف زجاج لا يرى سوى مشهد من مشاهد السينما الصامتة حيث تتحرك الأفواه والأيدي من دون صوت. هل هناك سباب؟ ربما من سيفرض رأيه؟ لا أحد. من سيقنع بوجهة نظر الآخر؟ لم يخلق بعد. لم يعد أحد يطبق أحداً، صارت كل حواراتهم سلسلة لا تنتهي من الجدليات العقيمة الصاخبة. اللعنة! يتساءل عن سبب ما وجيه يجعلهم يتصارعون هكذا في حلبة رومانية الواحد تلو الآخر، يزداد يقينه مع الوقت أنه كان على حق عندما ترك الجبهة في البدايات.

فجأة أطاح درويش بالطاولة فتهشمت الأكواب محدثة ضجة كبرى، طاح كالمجنون محطماً كل شيء أمامه، وتجمع العشرات من الناس حولهم. سمع حسين صوت رجل عجوز قد هرع من محله القريب قائلاً «مش دول شباب الثورة اللي بيطلعوا في التلفزيون؟! عليه العوض ومنه العوض».

حسين شامة وقف في التحرير أيام الثورة وأخذ يقدم فاصلاً فكاهياً سجّله شخصٌ ما مجهولٌ ووضع على اليوتيوب، اشتهر هذا المقطع أما حسين فاخفى. كان من المؤسسين للجبهة في أول ظهورها، وأعظم من صاغوا بياناتها في بدايات الثورة. حسين في بدايات الجبهة كلّف بتشكيل القواعد في المحافظات قبل أن ينبري لمشروع أطلق عليه اسم المنظمة. لا أحد يعلم بالمنظمة سوى هو وقليل من الرفاق، فكرة المنظمة أطلقها مروان الناجي وياسين السحرتي ذات ليلة، وانزوى لها حسين وبدأ العمل عليها لم يمض على الفكرة الوليدة سوى أسبوعين قبل أن يتم تسريب الخبر لجبهة أمنية وتمّ إجهاض الفكرة في مهدها وترويع قواعدها، رغم أن المنظمة كانت فكرة مؤسسة غير سياسية. تلك الخيانة أتت مبكرة

ومباغة، المشروع الوليد أحبط من المحاولة الأولى. لم تفلح محاولات السحرتي معه للبقاء وانسحب من الجبهة.

ذكاء حسين الحاد كان مربعاً ولأسباب كثيرة تمت محاصرته من أطراف لا أحد يرى من أين كانت تسل وتتوغل! بعد التنحي اتسعت الجبهة وشملت أطرافاً كثيرةً ميسّسة واحتلت مواقع متعددة. هو الوحيد الذي رأى الاختراق مبكراً، وهو الذي اقتنع بعد أسابيع قليلة أن الرفاق سيأكلون بعضهم بعضاً

ها هم الآن على المقهى يتقاتلون على كل شيء ولا شيء، كانت صراعاتهم على صفحات الإنترنت أشدُّ قبحاً وطعناً لم يكن يكره حسين اقتتالهم، بل كان يعلم بأنه حتمي، كان يكره فقط سذاجتهم وجبنهم.

عندما قال مروان الناجي «تعاطي الهواة مع السياسة سيدمرنا نحن لسنا أهل سياسة»، اقتنع حسين بهذا الكلام. رأى في نفسه سياسياً ساذجاً لم يمارس السياسة من قبل. تصالح مع نفسه وأضحك الرفاق عندما أمسك بتلابيب مروان مقلداً طريقة إسماعيل ياسين مستجدياً «سيسني سيس. سيسني سيس». يسقط مروان على الأرض ضاحكاً وهو يحاول أن يفلت منه بينما ينتزعه الكومي من فوقه، يعاود حسين الارتقاء فوق مروان مجدداً وهو يقول «أنا هبقى مثلون أرجوك إديني الفرصة. هأعمل نفسي سحلية. وأمشي على الحيطه وأتلون. إديني فرصة أتسيس فيها أرجوك. أرجووك» يعاود الكومي جذبه من فوق مروان الذي ضحك كما لم يراه أحدٌ يضحك هكذا من قبل، ضحك مروان ليلتها كأنه طفلٌ تتدغدغ

مشاعره. يعدو حسين نحو صندوق القمامة ويصرخ «أرمني نفسي في برميل الزباله ده هطلع سياسي درجة أولى. جربني يا مروان»، ضحكوا حتى كادوا يموتون من الضحك، وحسين يعدو هنا وهناك متمصاً الدور كأنه على خشبة المسرح يقدم فصلاً هزلياً حتى البكاء. منذ هذه الليلة التي أضحك فيها الرفاق وأقدمه لم تعد تعرف الطريق إلى مقر الجبهة ولا وطئت وسط البلد ولا مضت في مسيرات. كانت ليلة هستيرية بعد خيبات نالت الجبهة والثوار، كان حسين كعادته ينهي مصائره الجادة بسخرية صاخبة.

حزن مروان بعد فشل فكرة المنظمة وبعد رحيل حسين عن الجبهة. أما ياسين فزاره بعد انسحابه مبتسماً، جلس طويلاً أمامه يطالعه ولم يقل شيئاً دون أن ينبس بكلمة كان حسين يعلم بما يريد ياسين أن يقوله «فلنحاول مجدداً» هذا هو الفرق بين مروان الناجي وياسين السحرتي، مروان حالم بما هو أبعد من السحاب أما ياسين فهو ابن الأرض وملحها، لا يحني جبهته أمام الإحباطات. هكذا ظن حسين حتى انكسر ياسين وغاب. يسخر حسين من نفسه ومن كل شيء، الآن وعلى المقهى يظن نفسه عبيطاً مثله مثل الجميع. حتى توقعاته تخذله كثيراً، تعلق جانبي شفته ابتساماً ويطلب حجراً آخر للشيشة ويدخن متابعاً الرفاق.

يطالعههم وكأنه زائر يقف وحيداً خارج خيمة سيرك بعد أن بدأ العرض وخرج ضجيجهم. عاطف يتهم كريم عمر بأنه عميل أميركي وعلماني، درويش يتهم عبد القادر بأن يعمل لحساب نفسه وأناني. أما مينا فيتهم درويش بأنه أبله ودرويش يقذفه بالأكواب الموضوعه على المنضدة. والآن أيتها السيدات وأيتها السادة، اللعنة عليكم

جميعاً، يقول لنفسه ثم يضحك، يفهقه، يسعل، اللعنة على هذا
المعسل إنه حامي المذاق!

لا يرونه وهو يضحك، ولا يرونه وهو يترك كرسيه ويرحل

في الصباح التالي كان مقر الجبهة قاتم الغضب، مقسوماً على
كل الأرقام الفردية كمعادلة مفككة الأطراف. مرَّ يومان على مذبحه
بورسعيد والمعركة المشتعلة في محمد محمود وعلى أطراف الميدان
تخيم على الجميع، لم يتفقوا على شيء سوى الغضب. لا يوجد
يمينٌ أو يسار، كل الاتجاهات تعود بك إلى مربع الصفر مربع
الصفر كان في نظرهم عودةً إلى الثورة.

هو ذاته الغضب نفسه الذي لم يتزحزح من مكانه طيلة عام
مضى ولا يبارح مربع الصفر، يعودون إليه في كل مرة وكأنَّ كل ما
كان لم يكن شيئاً كل الهتاف ذهب هباءً والدماء ما زالت تسيل
وقنابل الدخان ما زالت تعبأ في السماء فوق الرؤوس داهمتهم
سلمى خورشيد لاهثة، لقد تم اعتقال إبراهيم الكومي هذا الصباح
هتف درويش بحنق وهو يقفز من مكانه:

- خالتك سلمية ماتت يا ولاد الوسخة.

ساد الهرج والمرج وأعلن كلُّ من درويش ومينا وسلمى وعرفة
تحريك مسيرة حاشدة نحو النيابة العسكرية. اقترب عاطف من أحمد
عبد القادر قائلاً

لازم نضغط دلوقتي. بس بدكاه فاهمني؟

يردّ عليه عبد القادر حانقاً

- ليلة أبوهم سودا

رمق كريم عمر عاطف طويلاً والغضب يفور في عروقه، اللعين يلعب لعبته السياسية من جديد ويتوغل داخل رأس الأخرق عبد القادر. تابع عاطف موجهاً كلامه للرفاق وكأنه يخطب من فوق منبر الحكمة:

- اهدؤوا يا جماعة وخلينا نعرف هو فين دلوقتي؟ وهيتعرض على أنهى نيابة؟ لازم نتحرك صح.

كريم لا يحرك ساكناً ويتابع العرض من مقعد المتفرجين، يتابع عاطف وهو يبسط نفوذه في الوقت المناسب ويحرك الجميع كما يريد. يرمق عبد القادر ويقول لنفسه، أيها اليساري، سذاجتك الثورية يتلاعب بها هذا المحنك السياسي، لقد ضعنا

يدير عاطف المشهدَ وباقي الرفاق يشاهدون، يهاتف شخصاً ما ويحصل منه على مكان احتجاج الكومي وموعد عرضه على النيابة، ثم يقسّم المهام والأدوار فيتبعوه. لم يتمالك كريم نفسه عندما قال عاطف بأنه سيرافق الكومي خلال العرض على النيابة، قام وألقى قنبلته في وجه عاطف قائلاً

لأ مش محتاجينك. أنا هجيب ياسين السحرتي يدافع عنه.

صمت الجميع أمام وقع المفاجأة التي لم تكن في الحسبان ولكن عاطف بدا وكأن شيئاً لم يكن. ردّ ببرودٍ يشبه الثلج النقي الذي لا تشوبه شائبة:

- وماله أنا وياسين واحد.

ثم أردف بمكر

- بس ياسين هيرضى يجي؟!
واجه كريم بروده ببرود قائلاً بكل ثقة:
- السحرتي عمره ما يتخلى عن إبراهيم.
تظاهر عاطف بالانشغال مطالعاً هاتفه، فلاحقه كريم قائلاً بمكر
مضاد:

- ولا أنت ليك رأي تاني؟
تجاوزه عاطف ونظر إلى الجميع قائلاً:
- أنا معاكوا يا جماعة في اللي تشوفوه
قال عبد القادر وكأنه يستعيد زمام الأمور:
- لازم نقلب الدنيا لِموا الشباب وبيننا على التحرير دلوقتي
خرج الجميع من المقر مسرعين غاضبين بينما لحق مينا بكريم
عمر الذي افترق عنهم وقال له
- مفهمتكش. إشمعنى ياسين بدل عاطف؟
- هتفهموا إمتى يا جدع!!?
وجم مينا وترك كريم وهم بالرحيل، ولكن كريم أمسك به ثم
قال:

أنا آسف يا مينا مش قصدي إنت.
طالعه مينا بِحَيْرَة فتابع كريم:
- الواد ده بيلعب بينا لأغراض سياسية.
- قصدك عاطف؟
- طبعاً. بيلعب بينا لأهداف في دماغه

- مش فاهم . أهداف زي إيه؟

- عاطف مسيس مش ثورجي وبيسيس الجبهة . السياسة يعني

أهداف ومصصلحة . أنا مش فاهم أهدافه الحقيقة لحدّ دلوقتي بس
دايماً بحس فيه بالأثانية وإنه عنده توجه ما يبحركه .

- توجه لمصلحة مين؟

- تيار سياسي .

- الكلام ده كبير يا كريم .

- على فكرة ده مش كلامي أنا لوحدي .

علت المفاجأة وجه مينا وبدا مشدوهاً كمن ارتطم رأسه

بالحائط ، ثم هتف :

- أمال كلام مين؟!!

- مروان الناجي وياسين السحرتي .

- نعم؟!!

صمت كريم فتابع مينا مندهشاً

- هما قالوا كده؟

لأ بس أنا قرّيته في عينيهم الاتنين . عاطف له أغراض

من أول يوم ومليون في المية بيلعب لطرف سياسي .

- أنا مبقتش فاهم حاجة .

- ولا أنا يا صاحبي .

سادت لحظات صمت وحيرة قبل أن يتابع كريم :

- ده مش مهم دلوقتي المهم الواد اللي قبضوا عليه .

تركه كريم ومضى يعبر الطريق فهتف مينا

- رايح فين؟

- رايح أجيب السحرتي.

* * *

يشق الصفوف مخترقاً كتل المتظاهرين المتكدسين أمام النيابة العسكرية. نظر الرفاق والنشطاء من بين الرؤوس ولم يصدقوا أعينهم، لقد عاد؟!!

من نافذة غرفة التحقيق أطلّ الكومي على الجموع، وابتسم ثم هتف بسعادةٍ بالغة والأصفاذ تحيط بمعصميه

كل دول جاين علشاني؟ هيبه!!

ضحك المجندون الذين جروه إلى الغرفة، وقال أحدهم:

- علي الطلاق الواد ده مجنون يا جدعاان!!!

المجندون يحبونه ويعتبرونه ابن بلد، قريب منهم ويتعامل معهم كأنه مجنّدٌ مثلهم، يتعجبون كيف يناصره الضباط العداء؟ الأوامر كانت بتشديد الحراسة عليه وفصله عن باقي المحبوسين. ولكن كل المجندين كانوا يتحدثون معه ويحتسون الشاي سوياً ويتبادلون السجائر ويلقبونه بـ«هيمه». دلف ضباط التحقيق ومن ورائهم ياسين السحرتي، ما أن رآه الكومي حتى قفز في الهواء فرحاً احتضن ياسين وكأنه طفلٌ تائه عاد لأبيه. بدأ التحقيق والكومي منتشيّاً والابتسامة تملأ قسماً وجهه.

- اسمك؟

- يسقط حكم العسكرا!

دوت قوية في الأروقة .

* * *

ملا الرفاق الشوارع هتافاً ومسيرات، تحركوا ككتلة واحدة هادرة لاتراجع ولا تنام. «الحرية لقلب الأسد» كست الجدران في الطرقات وعلى المفارق، ولكن القدر كان يحمل لهم مفاجأة أخرى. تم القبض على شيماء البهي في قضية التمويل الأجنبي لمنظمات المجتمع المدني، وتم توجيه اتهامات إليها بتلقي أموال من الخارج والعمل بدون ترخيص. حضر الرفاق جلسات المحاكمة وتظاهروا من أجلها ولكن ذهبت محاولتهم أدرج الرياح، لكن محاولتهم نجحت مع الكومي وأفلتته القبضة القوية، ففي الأول من آذار/ مارس أعلن إطلاق سراح إبراهيم الكومي الشهير بين أصدقائه بالبوب وعند الثوار بلقب قلب الأسد. تجمع الرفاق في انتظاره وعندما خرج حملوه على الأعناق وهتفوا طويلاً انتشى من السعادة، أسعده وجود الرفاق ولكنه بحث عن ياسين بينهم ولم يجده. ذهبوا به إلى ميدان التحرير واحتفلوا حتى هبط المساء.

عند منتصف الليل مضى الكومي مع أدهم ولحقوا بأخر قطار مترو يغادر محطة التحرير وحدهم في عربة القطار المنطلق بسرعة، يطل أدهم على وجه الكومي وهو سارح ثم يسأله

- عذبوك هناك في الحبس؟

رنا الكومي نحو الفراغ قبل أن يجيب:

- الحبسة وحشة يا صاحبي. في كثير غيري جوه محدش

يعرفهم . ولا حد سمع عنهم . شباب صغير من سننا محدش
هيصدقني لو قلت إن اللي جوا أكثر بكتير من اللي برا
صمت أدهم ولكنه ما زال يفكر في أمرٍ واحد لا يقوى على
انتزاعه من رأسه ، هل عذبه؟ يتخيل سيناريوهات عديدة في رأسه .
بعد فترة صمت توقف فيها القطار بثلاث محطات متعاقبة . قال
الكومي بمرارة:

- السحرتي مجاش النهار ده!

رد أدهم حزينا

- لسه مقاطعنا إتغير عن الأول . بقى واحد تاني .

أمسك الكومي بكتف أدهم وقال وهو ينظر في عينيه مستنكراً

- ياسين رجل . وعمره ما اتغير . إحنا اللي بوظنا الدنيا

البلد باظت والثورة ما بقاتش ثورة . الجبهة خربت والرجالة مسكت

في بعض . كان هيعملهم إيه؟ وبعدين صاحبه مات .

- ياسين انسحب أيام أحداث مجلس الوزراء قبل ما مروان

يموت .

صمت الكومي وفكر قليلاً ، ثم تنهد بأسى وهو يقول:

- أنا زيك ما بقتش فاهم حاجة وما بقتش بثق في حدّ . بس

كله إلا ياسين . ياسين هيرجع لما نحتاجه .

صمت أدهم وورنا بعيداً لفترة قبل أن يسأل:

- هتروح؟

- أبويا هيتخانق كالعادة . هيقولي إطلع بره يا رد سجون . .

روح للصبع بتوع الثورة خليهم ينفعوك .

- أبوك ده صعب قوي يا جدع .

- أبويا طيب يا أدهم . هوا بس مش فاهمني . المشكله مش

فيه دلوقتي .

- أمال في مين؟

- صاحب المطعم مش هيرضى يرجعني الشغل . بقالي كام

أسبوع غايب وزمانهم شغلوا حدّ مكاني . وصاحبك مفيش في جيبه
جنيه .

- طيب ما تروح تكلمه .

- هيقولي بوقين ما لهومش أي ثلاثين لازمه .

ربت أدهم على كتفه وهو يشعر بأسى شديد، يشعر وكأنه

إبراهيم ويتخيل كل ما سيحدث له . تشاركنا آخر سيجارتين في علبة
السجائر وهما يغادران محطة المترو .

عرض أدهم عليه ما في جيبه من مال، وكذب عندما حلف بأنه

سيذهب لعمه ليطلب المزيد . رفض إبراهيم المال، وكذب عندما

حلف بأنه سيأخذ من أخيه أمين سلفه . لا يطيق أدهم الذهاب إلى

عمه ويمقت أن يسأله أيّ شيء، وإبراهيم لا يجروّ أن يسأل أمين

بعض المال . اقترب موعد فرح أخته سحر وأبوه استدان كي

يزوجها، وهو كان يساعد بجزء من راتبه في سداد الديون . الآن

يحمل أمين الحمل وحده . عندما افترقا سأله أدهم :

- هتبات فين يا بوب؟

- في بيتنا .

- طيب وأبوك؟ ما تيجي تبات عندي؟

- يا جدع ولا يهملك . دا أنا حتى وحشاني شتيمته .

ضحكا طويلاً بعد أن تبادلوا النكات والقفشات ثم افترقا على ناصية الحي . أدهم ضحك مع الكومي ولكنه كان غاضباً ويفور من الداخل ، لم يبدِ غضبه ولكنه ظل طيلة الطريق حانقاً قبل أن يصل إبراهيم إلى بيته سمع صوتاً يعرفه يهتف من المقهى الكامن أمام منزله :

- كفارة يا واد!

كان حسين جالساً ينتظره على المقهى ، يضع قدماً على قدم ويدخن الشيشة مبتسماً تعانقا وظلا طيلة الليل يلعبان الطاولة ويشتران في أحاديث متفرقة لا تعرف الجد . لا يتوقف حسين عن المزاح وإبراهيم يضحك بلا توقف . دس حسين في جيب إبراهيم المال ورحل ، لم يعرف إبراهيم لماذا قبل المال من حسين ولم يقبله من أدهم؟ ولكنه فعل ومضى مع نهاية الليل ثقيلاً إلى منزله . أطبق عليه حزنٌ شديد قبل أن يطرق الباب وتردد طويلاً ، توغل في صدره ضيقٌ ما لا يعرف سببه وعجز رأسه عن التفكير في الأسباب . شعر على باب بيته بعد ليالٍ طوال قضاها قيد الاعتقال أنه محبوسٌ بحق ، على باب البيت ضاقت عليه الأرض والأزمة . لم يطرق الباب وجلس على السلم وحده في الظلام .

انفتح الباب في الصباح وأطلّ أبوه فوجد إبراهيم جالساً على السلم ، بكى الرجل ولم يقل شيئاً ومضى . حاول إبراهيم أن يصفحه ، ولكن الرجل مضى في طريقه . سقطت دموع الرجل

العجوز عندما أطلّ في وجه ابنه، خبط إبراهيم رأسه وقبضته في الجدار وانهار وهو يتابع أبوه يمر راحلاً لماذا كنت محقاً يا مروان إلى هذا الحد؟ قفز مروان الناجي من ذاكرته فجأة. ظلت كلمات الناجي تتردد في أذنيه وهو راقدٌ على السرير وأمه تنظر إليه كأنها لم تراه منذ سنين طويلة. مروان قال له: «بلدك ليست الأرض والهواء، مصر ليست جماداً من تراب ومبان. مصر هي الناس، هي أهلك، أبوك وأمك، أصدقائك وذكرياتك. الوطن ليس هرماً ونيلاً وعلماً، الوطن هو البشر»

المجهول

أنا بحثك في الفراغ
وأنا الكامن في ذاتك .

يبحث على الشبكة العنكبوتية عن معلومات، يفتح دفتره ويسجل المزيد. جمع إلى الآن المئات من الملفات، فرزها ورتبها ثم انطلق ينتقي منها ما يريد. كلها أشياء متناقضة وكأنها طلاس، معلومات عن الثورات وأخرى عن مجموعات «الأنيمونس» ظلّ طيلة الليل يشاهد عشرات من مقاطع الفيديو عنهم، ثم بدأ يجرب بعض الحيل عبر شفرات البرمجة. اكتشف بالصدفة أنه بارع في تعلم هذا الأمر عندما نجحت أول محاولة اختراق قام بها انتشى بنجاحه الأول بشدة، ربما لأنه فشل في كل شيء آخر مرّ به مؤخراً يسند رأسه إلى الخلف ويطلع شاشة الكمبيوتر حتى صدح فجأةً ضجيج عاتي، يطن متوالياً بلا توقف، يكاد يفجر رأسه .

ينسحب نحو عالمه الدفين، تظلم كل الأشياء من حوله ويتعملق داخله شيء ما يكبر ويتوغل . يتدافعون من حوله مردّدين الهتاف، مئاتٌ من البشر تتحول إلى ألوف . يكاد ينسحق بين الزحام، يكاد يسقط تحت الأقدام عندما يهرولون. تفرع الطبول عالياً ويهبط

الضباب، سحب من الغاز تحاصره وتخنقه ببطء. لا يجد أحداً حوله، وحيداً وسط الغاز الكثيف والطبول ما زالت تدق بقسوة. يختنق بشدة وتدمع عيناه، يلهب الغاز وجهه ويسقط على الأرض مكتوم الأنفاس. السماء فوقه سوداء سامة والأرض قاسية. يمر زمن طويل قبل أن يأتي إليه، هناك وسط الضباب يلمحه، ها هو هناك يقفز متقللاً، يظهر ثم يختفي في لمح البصر يحاول أن يتبين ملامحه ولكنه لم يقوَ على رفع رأسه، بالكاد يتنفس، من ثم يغيب عن الوعي.

كم سيمر من الوقت وهو غارق في الغياب؟ لم يعرف. عندما يفيق يراه أمامه متجسداً وسط الدخان المستعر، ها هو قد ظهر أخيراً وواضحاً قرود كبير عيناها غاضبتان وقبضته محكمة. يحرق الدخان المستعر عينيه ويخنقه، ولكن القرد يظل صامداً لا يتحرك. لم يعد هناك أحد في المعركة سوى القرد يقف وحده، ينظر في عينيه بقسوة فيرتجف من هول المشهد. يرفع القرد رأسه إلى الأعلى ببطء ثم يطلق صيحةً ترجّ الأركان وترجّ كيانه كله، يقفز القرد كالمجنون يخبط على الأرض بكفيه وعلى جدران محمد محمود ثم يختفي، بينما يظل لصيحاته العالية صدىً يزلزل الطرقات.

أنا المارد العظيم

سأزورك كل ليلة

انتظرنى.

الدرويش

أنا الحزن الخرافي

أنا الفراشات التي تتساقط في النار.

مروان الناجي، لما ذهبت أيها البريء؟

نيسان/ أبريل يمر ولا يمرّ، وياسين السحرتي غارق في أحزانه
وكلمات المذكرات، يناجيه مروان ليل نهار. قضى يوماً طويلاً في
الوكالة، تبعه بنصف ليلة على المقهى، وحيداً يرتشف الشاي ويتطلع
نحو المارين في الشارع فرادى وأفواجاً قرر أن يعود إلى الصندوق.
كحشرة الموت تخرج الأوراق فيرفعها نحو الضوء الخافت،
ويقرأ بصوتٍ خفيض كأنه يريد أن يحفظ ما يتلوه.

«للميدان دراويش.. للميدان كهنةٌ وألف أبٍ غير شرعي..
للميدان شعب غير موجود.. زار وتمسّح بالأرض المباركة
وطاف الأشواط ثم عاد من حيث أتى.. وبقيت البقية الباقية
كبعض البن المترسب في قاع الفنجان.. في قاع الفنجان
خطوطٌ وهالاتٌ وأشباح.. من تبقى؟ ومن تبرك وارتحل؟.. أيها
الدراويش السابحون في الملكوت.. كم أكلت الأرض من
أعماركم؟ أيها التائهون تصارعون الأشباح.. الماضي الذي

يعاد ليس له الوجوه نفسها.. سيأتيكم من حيث لا تدركون..
تلفتوا فلن تجدوه عندما يأتيكم.. صارعوا أشباح غرائمكم
وأشباحكم في المكان.. القوات الآتية لم تعد تركب العربات
المصفحة ولا تصوب مدافع المياه.. دولة النصور السوداء
سترحل عن الجثة بعد أن تركتها عظاماً.. ستهبط من السماء
غربان لتنعق في الأرض.. ستأتي الغربان من كل صوب.. أيا
دراويش الميدان لم تعد الجنود التي تحاربوها مرئية
لتقتلوها.. والأرض التي تتنازعون عليها يكسوها الرماد
المحترق ولم تعد تصلح لزرع أو انتفاع.. الأرض المحروقة لا
تنبت سوى الزبانية.. زبانية تخرج في الظلام.. ملعونة هي
تلك الدائرة.. ملعونة كالخراب الأسود الممزوج بالكرامية
وعفن المؤامرة... هناك على رؤوس الطرقات تحدد جنود
ظلام جديدة في انتظار أي غرر يمر ليمزقوه.. من أنت أيها
القادم من هناك؟ أي حلم غرر بك؟ تعال إلى حتفك الأكيد».

تأتي الكلمات بما لا يطيق، يجيش صدره بما فيه من حزن لا
يقوى عليه. يسمع صوت الشيخ وهو يتمم بالدعاء هناك في الصلاة،
قام العجوز ليصلي الفجر، توضأ ياسين ومضى خلفه إلى المسجد
دون أن يشعر الشيخ به. يصلي العجوز في الأمام ويصلي ياسين
خلفه. بعد أن فرغوا من الصلاة جلس ياسين في الركن القصي وحده
غارقاً في أحزانه، العجوز يجلس هناك بين أصدقائه الشيوخ
يتهامسون في ما بينهم. كانوا يسمون أنفسهم بالعشيرة وكان هذا
أيضاً اسم مسجدهم القائم بين المقابر يراقبه ياسين من بعيد كأنه
شراع قارب يلوح في الأفق الخالي.

كل هذه السنين وهو يحلم بالثورة، يحلم بالتغيير. كل هذه الآمال العريضة تهاوت، كل هذا الزيف أكبر من يبتلع. المتدينون مزيفون، وأصحاب المبادئ خائنون. الكل يبيع الكل في لحظة، الكل يبيع أخلاقه في طرفة عين، كل شيء يُباع من أجل الشهرة والأضواء. القوي والضعيف سواءً في الخنوع. تمرّ في رأسه أسماء مفكرين وقامات انحنى سنوات أمام كتبهم ومقولاتهم، سنوات أمضاها يقرأ لهم ويحضر دروسهم ومحاضراتهم. شيوخ وكتاب يتهاوون الآن الواحد تلو الآخر في رأسه، يتساقطون كأوراق الدومينو، ينكفئون خلف بعضهم البعض. يسقط أحدهم في المستنقع فيتبعه الآخرون. من بقي من تلك الأسماء التي أحترمها ثابتاً على مبادئه؟ لم يعد هناك من أحد! الكل باع نفسه لفريق ما واستمرّ يكابر ويحلل على الفضائيات ويأصل لتعصبه. المبادئ العامة والقيم الكبرى سقطت بين جنبات خريطة السياسة، الدين صار أرخص وسيلة للامتطاء والصعود. لم كانت الحقائق تتوالى مؤلمة؟ يتذكر ميسرة، كان وجهه وابتسامته ينطقان بأشياء خفية عندما سأله عن أبيه. لا لم يعد يقوى ياسين على كلّ هذا يخرج من ركنه البعيد قاصداً الشيخ. يجلس أمام أبيه ويلقي السلام، يمدّ الشيخ يده ويقربّه منه تماماً مثلما كان يفعل معه وهو طفلٌ صغير يتبع أباه في كل مجلس.

يشفق ضوء الفجر ببطءٍ من نوافذ الجامع الكبيرة ويبدأ العاملون في إطفاء الأنوار، ينتظره الشيخ طويلاً ليقول شيئاً، ولكن ياسين يصارع نفسه على الحافة ولا ينطق. بعد صمت طويل يقول الشيخ:

- الحزن شيطانٌ يتلاعب بالبشر يا ياسين . لا تستسلم له .

- بابا احكي لي عن السجن .

- أنا ياما حكيتلك يا ياسين .

يطرق ياسين برأسه بعيداً فيتابع الشيخ :

- زمان جدك الشيخ عزيز السحرتي . رحمة الله عليه وعلى مواتنا وموتى المسلمين . كان يقول دائماً احذر الحق الذي يُراد به باطل . سبحان الله كأنه كان يهديني ولم أتذكر مقولته تلك إلا بعدما زاملت الكثيرين في السجن .

- إنت دخلت السجن ليه؟

- يا بني أي واحد كان بيتكلم في السياسة في الستينيات أو السبعينيات كان بيدخل المعتقل . خطبي وأنا شاب كانت تثير حفيظتهم وأنا لم أكن في تنظيم أو جماعة أو يحزنون . فترة السبعينيات يصعب فهمها على جيل مثلك . كانت مرحلة تصادم فيها الجميع اشتراكيون وشيوعيون إسلاميون وسلطة حاكمة . كلهم ناصبوا العداء لبعضهم سراً وعلناً

يطالع الشيخ الضوء المتسرب من النوافذ ويتمتم ببعض أذكار الصباح مراقباً ياسين بعين مشفقة، ويتابع قائلاً :

- حاولوا يضمّونا للجماعة في تلك الفترة ونجحوا مع كثيرين ومنهم أسماء لامعة، ولكنني كنت أحمل كلمات الشيخ عزيز في صدري، فلم ينطل عليّ الأمر

يحدق ياسين فيه متسائلاً بفضول :

- ليه؟

- لأن من يريد الحق خالصاً لا يعمل في الظلام. من يثق في الله لا يخشى حاكماً ولا سلطَةً. لا يعمل في السر سوى من لديه أشياء يخافها هل لو كنت على حق ستكتمه خوفاً؟ قد يكون الكتمان له أسباب ولكن الحق يجب أن يُعلن أنا أدعو لله ولا أخاف سوى منه عز وجل ما دمت على الحق.

- ليه تدخلت في السياسة؟

- تلك كانت سنوات كنا فيها موجهون بالنكسة ثم ما بعد الحرب. كنت في عفوان الشباب مثلكم الآن وأحلم بالكثير

- إيه حصلك في السجن؟

- تعلمت أن داخل جدران السجن تنبت أخطر الأفكار.

ولكن لم يكن هذا هو الدرس الأكبر

صمت الشيخ وغرق في عالمه، والمسبحة تدور بين أصابعه بلا انتهاء. يطالعه ياسين كمن ينتظر المحيط أن يفرغ ماؤه. بعد طول صمت رفع الشيخ بصره نحو ياسين وقال:

- الإسلام دينٌ يهدي الطريق. وليس غايةً لتفرّق بها بين الناس. أحياناً قد تجد مَنْ يلجأون للدين ليثبتوا أنهم على حق ولكنهم في الحقيقة يبحثون عن غاية. هؤلاء لو أخذتهم خارج الدين ستجدهم ضعفاء وبلا حكمة في الحياة أو مقدرة أو نفع حقيقي فلذلك تجدهم يصنعون من الدين دروعاً غليظة يختبئون خلفها وكلما شعروا بالخطر قاموا بتغليظ تلك الدروع خوفاً وتراجعاً وهكذا أباحوا التكفير والقتل. لا ثقة في أنهم على الحق، بل خوفاً من مَنْ

سواهم . نعود إلى حكايته يا بني .

صمت قليلاً لبيتلغ ريقه ، فهبّ ياسين واقفاً وذهب ليأتي له ببعض الماء . شرب الشيخ حتى ارتوى وحمد الله ثم تابع :

- أنا تعلمت من شيوخ الكبار في الأزهر رحمة الله عليهم أن الداعية هو هادٍ للناس وليس حاكماً عليهم . هذا هو طريق الدعوة الحق . الله هو الرحمن الرحيم والداعية ليس سوى بابٍ مفتوح للناس ليمروا منه . وليس له أن يخالجه في دعواه هوى شخص أو مصلحة يرجوها منهم . فإنما نحن دعاة ليجتمع الناس حول دينهم والحق والعدل والصالح لهم وليس حول عبدالله السحرتي . أنا لا أحب هؤلاء الذين يدعون أنهم دعاة ويسرون بين مريديهم متفاخرين ومزهوين . هؤلاء سقطوا في متاع الدنيا وأصابهم حب الشهرة مثلهم كمثل لاعبي الكرة وغيرهم . هؤلاء صاروا شيوخ طريقة ونجوم فضائيات . فأين الزهد؟ أين الدعوة؟ هنا اختلط الأمر عليهم وصاروا يجرون حملاً ثقيلاً يا ياسين . أنا أعذرهم فهم مثل السياسيين يتحركون في دائرة إرضاء ذوق مريديهم ومحبيهم هذا القيد هم قيدوا به أنفسهم ولم يعودوا دعاة . الداعية هو مصلح بين الناس وليس صاحب حزب يفرق بين الناس . الداعية لا بد أن يقترب من البعيدين ويجهتد معهم أكثر مما يفعل مع المتبعين . الداعي يصلح النفوس ويهدي للحق والعدل ولا يفرق بين الناس . أما السياسة فهي بالضرورة خلاف . اختلف الصحابة فيما بينهم عندما حضرت السياسة وشؤون الخلافة . الخلاف سنة الحياة ولكن الداعية عليه أن يصلح ذات البين . فكيف يكون هؤلاء دعاة وهم يقسمون الناس ويفرقونهم؟

يصمت الشيخ مجدداً والحزن يتملك منه ثم يعاود الحكيم :

- عندما أيقنت أن هؤلاء يريدون الفرقة وينتقون لنفسهم فرقاً ولا بد لك من السمع والطاعة أيقنت أن هذا فراق بيني وبين كل هؤلاء وأني لن أحمّد عن طريقي الذي اخترته لنفسي . سأظل داعيةً أعظ الناس وأجتهد من أجل الصلاح ولن أدع لساني ينطق بما يحضّر الناس على الاقتتال أو الفرقة فيما بينهم . هذا كان اجتهاد عبدالله الفقير إلى الله وأدعو المولى أن يهديني السبيل .

- الناس يا ولدي متفرقين حول الدين .

- أعود بالله . أين عقلك يا ياسين؟ الناس متفرقة حول

أشخاص وليس حول الدين .

- الثورة فشلت في تحقيق كل اللي حلمنا به .

- التجربة هي الشيء الذي يتبقى لك عندما يضع منك كل شيء

آخر

يسرح ياسين فيما قاله الشيخ ولكنه ما زال معلقاً في سقف أحزانه . التجربة لم تغير فينا شيئاً ، التجربة أخرجت منا أسوأ ما فينا الأرض المحروقة لا تنبت البراعم . إلى أين ستأخذنا التجربة؟ هل التجربة دليل؟ أم أنها مجرد حلم يبحث عن واقع له؟

يسير مع الشيخ وهو تائه في تساؤلاته حتى يصل إلى الوكالة ، يجلس الشيخ على كرسيه أمام الباب ويظل ياسين قابلاً داخل الوكالة ، داخل ذاته . كم مرّة من الوقت على ياسين؟ لا أحد يعلم . كل ما كان يريده هو أن يتلاشى . كان يريد أن يكون مروان الناجي ويغيب . تلك النهاية كانت موجهة ولكنها مثالية ، ولكن هل انتهى

مروان الناجي حقاً؟ لماذا ترك خلفه آثاراً غائرة كالندبات؟ لماذا ترك
مذكراته؟ كلما قرأ ياسين سطرأً من المذكرات كان يحفظه عن ظهر
قلب، لا يعرف كيف كانت تعلق برأسه الكلمات وكأنه هو من
كتبها

مر درويشٌ بمبخرة وأحالَ المكان إلى ضباب من الدخان العبق
بروائح الصندل والمسك وهو يصيح بصوت مبحوح:

- «حي ي ي ي»

«أيا دراويش الميدان.. يا حملة المباخر للثورة.. أيا
دراويش الديمقراطية.. أيا دراويش الخداع باسم الشعار
وباسم الدين.. يا حملة المباخر للرئيس القادم .. وللرئيس
الذي مات واندفن من عقود.. أيا حملة المباخر في الفضائيات
والصحف.. كلكم مصنوعون من العجينة للزجة نفسها.. أيا
حملة المباخر للشعارات اليسارية.. أيا حملة النظريات
النخبوية.. أطلقوا الغيوم في فضاء الوطن المتخبَّط على حافة
الهاوية».

خرج الدرويـش ومعه انقشع الضباب، فظهر عند الباب ضابطٌ
يرتدي زياً عسكرياً يسأل عن المدعو ياسين عبدالله السحرتي.

الدرس الأربعون في علم السياسة: تعلم كيف تُبقي على
أوراقك غامضةً حتى الجولة الأخيرة.

جلس أمامه شاب يرتدي زياً عسكرياً في غرفةٍ لا تحمل أية
ملاحح، كأنها صنعت لأجل هذا، طاولة صنعت من زجاجٍ فاخر

شفاف عليها جهاز كمبيوتر ومقاعد صنعت من الألمنيوم البارد،
الغرفة فارغةٌ وحوائطها ناصعة البياض. يشعر كأنه في حلم عن
المستقبل الضابط يحمل رتبة عقيد بالرغم من أن ملامحه توحي بأنه
لم يتجاوز الخامسة والثلاثين، يمتلك حضوراً طاغياً وابتسامة ثقة بلا
حدود تعلقو قسماته الهادئة. أبدى اهتماماً شديداً بياسين لم يفهمه
الأخير حتى سأله فجأة ودون مقدمات:

- تعرف إيه عن طه الغريب؟

بهت ياسين، كان هذا آخر شيء يتوقعه. طه الغريب؟! هذا
كان آخر شيء يتوقعه وفي هذا المكان. رنا نحو النوافذ الشفافة التي
تطل على سماء مصر الجديدة. المبنى الذي دخله قبل دقائق لم يكن
يحمل أية يافطات تدلّ على أنه يتبع جهة رسمية، مجرد مبنى فاخر
يقبع في شارع هادئ بمصر الجديدة. سأل ياسين الضابط بهدوء عن
إثبات الشخصية، فأخرج له الضابط بطاقة. هو بالفعل يحمل رتبة
عقيد. سأل الضابط عن سبب التحقيق، فابتسم الضابط معلناً أنه
ليس بتحقيق وأنه ليس بمحتجز، ثم أردف قائلاً

- يا أستاذ ياسين أنا عارف إنك محامي وأنت على حق بس لي
عندك رجاء. الموضوع بصورة ودية ولو رفضت ممكن نوصلك لحد
البيت.

لم يعقب ياسين بشيء ولكنه كان قد قرر أن لا يجيب بأي
شيء قرأ الضابط ما تقوله ملامح وجه ياسين فأخرج سيجارة
وأشعلها قبل أن يلقي بالمفاجأة، التي جعلت ياسين أكثر شروداً ممّا
كان. مضى يتخيل الحدث الذي ذكره الضابط، توافقت الصورة في

خياله مع صورة الغريب . هو الغريب وحده الذي يفعل تلك الأشياء .
لقاؤهما لم يستمر طويلاً ولكن هذا الضابط الجالس أمامه جرّ حدس
ياسين من أعماقٍ بعيدة كحوت خرج ليتنفس على سطح الماء .
رتبته، فراسته، ثقته التي تملأ حيز الفراغ الكامن بينهما أخرج
الضابط كارت ووضعها في كف ياسين، أخبره بأنه بواسطة هذا
الكارت يستطيع أيُّ أحدٍ أن يصل له أينما كان وتحت أي ظرف .
خرج ياسين أكثر حيرةً مما كان عليه من قبل، تطلع نحو الكارت فلم
يجد سوى شعار واسم، لا توجد أرقام هاتف أو عنوان . ما هذا
الكارت العجيب؟ ولماذا كان صاحبه على ثقة بأنه سيعثر على طه
الغريب . يلوح طه الغريب مقرباً في ذاكرته المشحونة الآن ويدنو
منه، الغريب حقيقةً تبدو وكأنها خيال .

* * *

أدهم

أنت تشبه تماماً أحاسيسك التي لا تفهمها
هي تلك الأشياء التي لا نفهمها، تغيرنا

يرتدي تي شيرت مكتوباً عليها «لا للمحاكمات العسكرية
للمدنيين»، يحمل دوماً حقيية ظهر صغيرة بها علمه الذي قد يكون
أحمر إذا كان متجهاً لحضور تدريب الأهلي بالجزيرة أو لتشجيعه في
المباراة، أو يكون علم مصر إذا كان ذاهباً إلى التحرير، أو علم
الشهيد لو كان ذاهباً إلى مسيرة. في الحقيية أيضاً اللاب توب الذي
يخترن عليه أسراره، أدوات الرسم الهندسي، منشورات الجبهة
للتوعية السياسية، علبة «إسبراي» أسود، كتاب مذكرات جيفارا الذي
منحه إياه مروان الناجي، ومعه كتيب صغير للأذكار والأدعية أعطته
إياه أمه بعد أن مات أبوه منذ عامين يقرأ منه أدعية لأبيه وللشهداء.
في جيبه سماعات ليستمع إلى الموسيقى من هاتفه المحمول،
واشتراك المترو، وعملتين معدنيتين، يحب أن يحمل دوماً جنيهان
في جيبه يدورهما بين أصابعه وهو يسير

أدهم النحيل بجسده الصغير وشعره الطويل الأشعث انضم
للألتراس بسبب عشقه للأهلي، وانضم للجبهة في ميدان التحرير

بسبب عشقه للثورة، وانتسب إلى كلية الهندسة قسم عمارة بسبب مكتب التنسيق. أبوه سجل له كلية الهندسة في استمارة التنسيق واختار له القسم دون أن يحدّد هو أي شيء، لم يكن يعرف ماذا يريد؟ أصدقاؤه نصحوه أن يدرس الموسيقى بدلاً من الهندسة فهو صاحب صوتٍ جميلٍ عذب، ولكنه لم يكن على يقين من هذا لقد تربى في الكويت وعاد مع أسرته عندما أنهى الدراسة الثانوية، لن يستطيع أن يخيب آمال أبيه فيه. عمه المهندس الاستشاري الكبير ينتظر تخرجه ليعمل معه، يقولون إن عمه من فلول النظام السابق وإن الأرض التي أقام عليها منتجاً للفيلات بالطريق الصحراوي أخذها بمقابل رمزي وأنها في الأساس كانت مخصصةً للزراعة. يذهب إلى مكتب عمه كلّ شهر ليحصل على مصروفه فيجده دوماً مشغولاً، وإن تحدّث إليه انتقد الثورة واسترسل في المواعظ والتحليلات السياسية. كل تحليلاته يراها أدهم زائفةً ولا تتمّ سوى عن انتهازيةٍ وخوفٍ على مشاريعه. علاقته بعمه لا تتعدى سوى مصروفه وتعليماتٍ صارمةً بالابتعاد عن الغناء والثورة والكرة، كل الأشياء التي يحبها

يخرج من الجامعة إلى مقر الجبهة ليقابل هناك عرفة. يحب عرفة الدب، يحب أن يجلس بجواره وهو يرسم بالساعات ولا يملّ يحوّل الصفحات البيضاء إلى رسوم كاريكاتير ساخرة ولكنه لا يتركها تنتهي. ما إن يفرغ من صقل خطوطها حتى ينطلق بالقلم كالمجنون فوقها ليطمس معالمها بمئات الخطوط المتشابكة ثم يطرق حزيناً يُصاب أدهم بفيروس الإحباط المتسلّل من عرفة الدب الذي يلقي برأسه وصدرة على الأوراق ثم يعتصرها بكفيه ويقول لأدهم:

- ساعات بكره حسين شامة وبحقد عليه. إزاي بيعرف

يضحك؟ أنا بقيت حاسس بالابتدال في كلّ رسمة برسمها كلها
بايخة ومالهاش طعم. ما تغني يا أدهم. غني أي حاجة. غني
زي أيام الميدان جازي أرجع أحس بنفسي.

يُخرج أدهم الأوراق المعصورة من بين يدي عرفة ويفردها،
يحدق فيها محاولاً استعادة الخطوط الأصلية ولكن محاولته تبوء
بالفشل. يعود عرفة يردّد:

- غني يا أدهم!

يضع أدهم حقيبته على ظهره ثم يقول له وهو يطالع الأوراق
بأسى:

- طز فيك!

يغادر المقر ويمضي نحو مقاهي البورصة، ها هي سلمى تجلس
هناك مع مينا يعلم أن مينا يطالع سلمى بنظراتٍ محيرة. هل يحبها
هو أيضاً؟ لم يعد أدهم يحب مينا لا لشيء له علاقة بسلمى، بل
كان يكره تردّد مينا وخوفه فقط. لا يرى فيه سوى يد أخرى ترفع
للتصويت في مقر الجبهة، همّش نفسه بنفسه أمام سطوة عبد القادر
وطغيان عاطف. لوهلة أطلّ في عيون مينا فبدا مينا وكأنه قرأ شيئاً ما
مفجعاً، أسقط مينا عينيه على الأرض ولم تمرّ لحظات حتى انسحب
ومضى. انزعج أدهم من نفسه. ماذا فعل؟ هل كان بادياً في عينيه ما
يريد قوله؟ ما الذي يفعله؟ ندم وغاص في ذاته وشعر بأن صراعاً ما
يدور في داخله، صراعٌ لم يعد يفهمه أو يقوى على إيقافه. انكمش
في كرسيه ولكن سلمى لم تتركه، تناوشه، تشدّ شعره ضاحكةً. هل
تعلم أنه يحبها؟ هل تعرف بمشاعره تجاهها؟ لا يظن أنها تعرف

الوحيد الذي عرف بالأمر كان ياسين السحرتي، يذكر ذلك اليوم الذي اقترب منه ياسين وسأله إن كان معجباً بسلمى. كيف يعرف ياسين تلك الأشياء؟ يقرؤها قراءة كأنه يطالع كتاباً مفتوحاً لا، ياسين لا يعرف كل شيء، لو كان يعرف كل شيء لعرف أن مروان سيموت، لعرف أن الرفاق سينقسمون. لو كان يعرف كل شيء لفعل شيئاً

سلمى خورشيد هي الموجة العاتية الأشد في كل ما يمر عليه، هي اختلاط الضوء أمام نافذة سيارة تعدو بجنون في شارع للملاهي الليلية، هي التضاد العنيد للانطلاق المكبل بأغلال أحاط بها نفسه، سلمى هي القلق الذي اعتراه منذ دخل الزمرة وانضم إلى الرفاق. عندما رآها لأول مرة أيقن أنها مجنونة وعندما اقتربت منه في شهور الثورة الأولى أصابه الارتباك، كانت عالماً يقف على عتباته مذهولاً عندما تحتدّ تصوير وحشاً لا يطاق، وعندما تهدأ يشعر بأنها أضعف مخلوقٍ رآته عيناه. كان يتحاشاها عندما كانت تسير في ركب شريف سماحة وتشاركه كل شيء يفعل، ما إن انقلبت على شريف بعد انقسام الجبهة حتى صارا أصدقاء واقتربت منه أكثر، تقترب بسرعة جنونية كأنها جوادٌ يعدو نحو خط النهاية، يتراجع أمامها ولكنها تطغى عليه بكل ما عندها من قدرة على القفز بتهور، تتبعه في أماكنه وتنطلق في حديثها ولا تتوقف عن الكلام. يمرّ شهر أو أقل ويتغير الأمر، تنتقل سلمى من حالٍ إلى حال في كل يوم وكل لحظة تمر

غيرت اليوم لون شعرها، صار أحمر. وغيّرت شكله فصار قصيراً على الجانبين وطويلاً من أعلى وكأنه عرف الديك. قرطها

الضحك وبنطالها المزركش ودخان شيشاتها والأبي فون وأشياء أخرى كثيرة تتوه في بعضها البعض. تزم شفيتها ثم تفتحهما بإعوجاج وهي تطالع شاشة هاتفها، تسب إحدى الشخصيات السياسية بأفزع الشتائم. يجزع أدهم دائماً من لسانها البذيء الذي لا يردعه شيء.

قرراً السير نحو محطة المترو. تتحدث سلمى عن كل شيء ولا شيء. تطرقا للحديث عن شيماء البهي، فلا جديد في المحاكمة المستمرة والمتهمون الأجانب تمّ تهريبهم خارج البلد في طائرة خاصة. مرّ شهران على اعتقال شيماء، ما زالت سلمى تحافظ على حنقها وغضبها أما أدهم فلم يعد يشعر بالأمر لم يفهم لماذا كلما ذكرت سلمى اسم شيماء كان يشعر بأنها تتحدث عن شخص ما غريب لا يعرفه؟ في البداية أصابه الأمر بالقلق من نفسه ومن ولائه للجهة والرفاق ولكنه اكتشف أيضاً أن عبد القادر صار بالنسبة إليه مثل شيماء. درويش كذلك وعاطف ومينا الذي رحل منذ قليل. كلهم صاروا غرباء لا يعرفهم. غاص في وجوه الرفاق المحفورة في ذهنه واتضح له أن صورهم تؤمض وتخفت. حتى سلمى انزوت تجيب على هاتفها ثم تركته مهرولة. ها هي تمضي هناك بين الزحام. يشعر باغتراب يقسمه نصفين وشخصين يتنازعان كل شيء داخله. حاول أن يغني كما كان يفعل دوماً، حاول مراراً البحث عن كلمات يحبّها وهو في طريقه إلى المترو. حاول طيلة الطريق الطويل الذي قطعه المترو من وسط البلد حتى عين شمس ولكنه فشل، تاهت الكلمات وكأن جوفه جفّ من ما كان فيه من موسيقى تعزف وأحلام ونهايات سعيدة.

وصل إلى عين شمس مع حلول الظلام. عند آخر شارع المترو

المزدحم كان هناك ذلك المطعم الذي يعمل به إبراهيم الكومي . عندها وجد ما كان يخشاه . صاحب المطعم طرد إبراهيم منذ أن خرج من السجن . أخرج هاتفه واتصل بإبراهيم . دار بينهما حديث غير مريح ، لانه أدهم بشدة على كذبه وكيف أنه ظلّ طيلة الوقت يخبره بأنه على ما يرام وأنه عاد للعمل بالمطعم . إبراهيم استسلم في النهاية ولقّنه عنوان مقهى آخر أمام سور نادي الشمس . ذهب أدهم إلى العنوان فوجد إبراهيم يعمل هناك . يقدم الشيشة للزبائن ويمسح الطاولات . وقف أدهم حزيناً يراقب صديقه من بعيد ولا يعلم هل يعود من حيث أتى أم يتقدم؟ ما أن رآه إبراهيم حتى ناداه ، احتضنه وأجلسه وأتى له بكوب شاي وشيشية بعد نصف ساعة انتهت ورديته ف جذب أدهم من يده وقال :

- يالا بينا في محل بلاي ستيشن قريب . ماتش فيفا من بتوع أيام زمان؟ بس أنا هلعب بريال مدريد . هقطعك .

- إيه اللي حصل يا إبراهيم؟

قالها أدهم وهو لا يريد أن يتحرك من مكانه فهتف إبراهيم

- هحكلك في السكة .

مضيا نحو محل البلاي ستيشن وإبراهيم لم يخبره بشيء . لعبا لعبة أخرى يحبها أدهم تدعى «جي تي إيه» لعبة عن بطل يخلق أسطوره في عالم الجريمة ويجتاز العقبات في شوارع المدينة . اللعبة تتبع ثلاث شخصيات رئيسة من خلال قصصهم . مايكل هو لص بنوك متقاعد في بداية الأربعينيات من عمره يعيش مع عائلته المختلة . تريفور هو شريك مايكل السابق ، يعيش بمفرده في مقطورة في

الصحراء، مدمن على المخدرات وتصرفاته مختلّة. فرنكلين يعمل سمساراً بوكالة سيارات عديمة المبادئ. هذه الشخصيات الثلاث يقودها اللاعب نحو عالم الجريمة في مدينة افتراضية مليئة بالعنف.

لعبا لساعتين متواصلتين دون توقف وسط مجموعة من اللاعبين الآخرين. أدهم كان بحق عبقرياً في تلك اللعبة، كان الأكثر مهارة والأشدّ عنفاً الساعة قد قاربت العاشرة مساءً عندما خرج الاثنان يتسكعان بلا وجهة. شيء ما في أدهم كان يُقلق الكومي. هناك شيء فيه تغير صار جاداً في نظراته أحياناً وأسئلته حادة ويصعب دفعه للكلام. لم يعرف متى حدث وكيف؟ هل حدث شيء ما في الفترة التي سُجن فيها؟ قرر أن يسأله:

- أدهم إنت في حاجة مخبيها؟ إحكي لي يا ااد. أنا البوب. أنا الحب.

علّق أدهم عينيه في الفضاء من حوله دون أن يجيب، بدا حزناً وتائهاً لم يجد إبراهيم بدأ سوى أن يتهور كعادته. قفز نحو منتصف الطريق وانتظر أول سيارة مسرعة. ضغط السائق مكابح السيارة بقوة فأصدرت صريراً قوياً اختلط صوته بصرخة أدهم ولكن إبراهيم بحركة أكروباتية كان قد قفز في الهواء قفزة عالية متفادياً السيارة. صرخ السائق فيه بغضب وسبّه ولكن الكومي هرب مبتعداً طالع أدهم صديقه وهو يقف هناك، يرقص مستمتعاً بما فعل. يضحك أدهم أخيراً ويهمس وهو يضرب كفيه ببعضهما «يا ابن المجنونة»!

قال الكومي ضاحكاً

- مبسوط يا فقر؟ إيه رأيك في الأكشن بقي؟ قاعدين نلعب جيم

بقالنا ساعتين لَمَّا زهقنا الأكشن الحقيقي أحلى .

التمعت عيون أدهم وبدا على وجهه سعادة من نوع خاص .
شيء ما دار في خاطره وتوَعَّل وسيطر على كل ذرة فيه . تطلع نحو
الكومي بإعجاب ثم هتف منتشياً :

- أنت ملهم يااد!

- مش عاوزين نعقدكوا بس .

قالها الكومي وهو يسير متبهاياً ثم فجأة جذب أدهم من يده
قائلاً

- الليلة ليلة أنس فرفشة يالا بينا على وسط البلد نهيس مع
الواد حسين .

قفزا في أول ميكروباص متجه إلى رمسيس ومنه سيراً على
الأقدام نحو شارع الجمهورية . عندما وصلا إلى المحل الذي يمتلكه
حسين وجدا معركة .

أمام واجهة محل حسين كانت هناك معركة بين الكثير من
الشباب . اندفع الاثنان مخترقين المعركة قاصدين مقر حسين . كانت
المقاعد تُلقى في الخارج والزجاجات الفارغة تتهشم على قارعة
الطريق بينما حسين مستغرقاً تماماً في فك وإصلاح لوحة إلكترونية
كبيرة الحجم . دلفا إلى المحل قلقين وما أن رأهما حسين حتى ابتسم
ابتسامةً واسعة وهتف ساخراً بطريقته المعتادة وهو يشير نحو
الخارج :

- خناقة أونطة . معظمها شتيمة . لما حدّ يموت الثاني ما
حدّش يبقى يعرفني .

وقف الاثنان لا يفهمان شيئاً الزجاج المهشم يدوي على قارعة الرصيف وأصوات السباب تتعالى من كل صوب أما حسين فتابع عمله وكأنه في ملكوت آخر اقتربت المعركة من المحل ودخل بعضهم متراجعين أمام هجوم آتٍ من الجانب الآخر. ساد هرج شديد داخل المحل الضيق وأخذ شاب منهم مصاب في رأسه بجرح غائر يفتش كالمجنون في المحل عن شيء ما التقط مفكاً كبيراً من أمام حسين ولكن حسين ارتمى عليه وتشبّث بيده وهو يهتف:

لأ لأ بلاش ده. في إيدي شغل يا كابتن. بقولك إيه.

في ماسورة حديد ورا الباب خدها بتعور أكثر من المفك.

ضحك الكومي وأدهم وهما يتابعان الشاب وهو يخرج كالمذعور. قال حسين بجديّة مفاجئة:

- قعد ياد يا بن الكثيبة إنت وهو

تطلع نحو اللوحة الإلكترونية التي في يده ثم أردف:

كم أنت عظيم أيها الشعب الياباني. هي معقدة أي نعم بس أنا وراكي والزمان بذيّل طويل طويل. معاكوا سجاير؟

تحسّس أدهم جيوبه فلم يجد سوى سيجارة واحدة باقية، أعطاهما لحسين الذي تفحص السيجارة ثم قال مستفهماً

- ليلي مراد؟

رد أدهم متعجباً

الأل أم إنت مسميها ليلي مراد؟

نظر أدهم نحو الكومي لوهلة ثم أصابت الاثنان نوبة عارمة من

الضحك قبل أن يسقط حجر طائش داخل المحل . هنا تملك الضيق
حسين وقام من مكانه ثم أوصد باب المحل الخشبي من الداخل قبل
أن يزق ساخراً

- شطبنا خلاص . عندي ضيوف في أي بي (V I. P) .

توجه نحو الاثنين ثم حياهما بطريقة مسرحية قبل أن يطلق صوته
الفخيم الساخر

- بونسوار إكسلانس . السادة والسيدات تحبوا إيه في برنامج
السهرة؟ عندنا قهوة بس ما فيش سكر ممكن نبعث نجيب
بيسي من القهوة اللي جنبي بس غالباً صاحب القهوة في المستشفى
دلوقتي . ضربوه على دماغه من ساعة لما بدأت الخناقة . ونتيجة
الوضع الراهن والأزمات التي تمر بها البلاد . تقعد إنت وهو
وجزمة في بوقكم . زيكم زي بقية الشعب . تقدرؤا تفتحوا
التلفزيون دلوقتي . ممكن يكونوا جايبين بث حي للخناقة . طبعاً
المحللين الاستراتيجيين على القنوات هيقولوا إن سبب الخناقة
الطرف الثالث وفي ناس هتقول لأ دي معركة بين القوى السياسية
حول المرشحين للانتخابات الرئاسية . طبعاً محدش هيقول إن
السبب كان زيزو الشفاط . باع موبايل مسروق لسيكا واتخفقوا على
السبوبة . تقريباً القصة كلها خمسه وسبعين جنيه!

ضحك الاثنان حتى أدمعت عيونهما بينما عاد حسين مواصلاً
انهماكه في التصليح وكأن شيئاً لم يكن . لم تمض سوى دقائق حتى
انتهى حسين من إصلاح العطل . طالع الاثنان وهما يتبادلان النظرات
ويضحكان ثم قال بخبث :

- انتوا الاتنين مجرمين حرب . شكلكوا عاملين مصيبة .

جاين مين؟

- كنا بنلعب جي تي إيه .

رد الكومي ثم عقب أدهم مبتسماً

- وبعدين المجنون ده رمى نفسه قدام عربية .

قال حسين :

- إيه حصل للعربية؟

ضحك الاثنان فتابع حسين :

- عارف النكتة اللي بتقولك مرة جماعة صعايدة كانوا بيلعبوا

على الهاي واي؟ اللي تخبطه العربية يطلع برا اللعبة؟ دول

عيلة البوب!

ضحك الجميع ثم ساد فترة من الصمت ، سرح حسين لفترة قبل

أن يقول فجأة وكأنه وجد ضالته المنشودة :

- جي تي إيه! يااااه أنا ملعبتش اللعبة دي من زمان . ما

تيجوا نعمل لعبة زيها؟

قفز أدهم من مكانه والتمعت عيناه وهو يقول بفضول :

- إزاي؟!!!

- نعمل لعبة مصممة في شوارع القاهرة والمهمة إنك تدمر أي

حد يعترض طريقك . الأهداف إنك تدمر كل الأحزاب السياسية

وتقضي على كل السياسيين وتحتل المدينة .

- إزاي؟!!!

- لعبة انتقام . تنتقم من كل الإعلاميين والجنباء . حرب إبادة
ضد كل الأطراف السياسية واحد ورا الثاني . حرب شوارع ننتقم
فيها من الكل .

يسترسل حسين ويتابعه أدهم بشغف شديد بينما يطالع الكومي
الاثنين حائراً قبل أن يهتف :

- أنا مش فاهم حاجة يا ولاد المجنونة .

سرح حسين قليلاً قبل أن يقول :

- البلد دي مش نافعة كده . لازم إبادة لكل الموجود ونبدأ
على نظيف .

هتف أدهم :

- فعلاً لازم!!

ما زال الكومي لا يفهم شيئاً ممّا يتكلمون عنه . قرر أن يصمت
قبل أن يبحر في عالمه . اليوم طالعه بعض الشباب على المقهى
وعرفوه . في البداية حاصروه بالأسئلة إن كان هو الفتى صاحب
مقطع الفيديو الشهير على اليوتيوب تحت عنوان «أسد التحرير»
حاول تجنب الأسئلة وانهمك في إعداد الشيثة لهم ولكن لم يتركوه
ينهي مهمته في سلام وظلوا يحاصرونه بالأسئلة . بدا الحزن عليهم
عندما أقرّ الكومي بأنه هو صاحب ذلك المشهد الشهير . أصابهم
الحزن ووجمت وجوههم ثم قرروا مغادرة المقهى . سمعهم وهم
يتهامسون «أبطال الثورة الحقيقيين بينزلوا شيش والمنافقين منتشرين
على الشاشات» طالعهم بأسى للحظات ولكنه لم يبال . لم يعد
يبالي بهذا الآن ، كان لديه من الهموم ما يغنيه . المصنع الذي يعمل

به أبوه توقف وتم تسريحه ومن حينها لم يبارح مقعده في شرفة المنزل سوى للنوم، يقضي الساعات شارداً أخوه أمين التحق بورشة صيانة بعد أن تمّ تسريحه من المصنع هو أيضاً ولكن راتبه الجديد قليل لا يكفي. أخته ستتزوج قريباً وأسرته تمر بضائقة مالية لم يعهدها من قبل. كان عليه أن يعمل في أي مكان ليوفر دخلاً قلل من مصروفاته ولم يعد يذهب إلى مقر الجبهة أو يشارك في الأنشطة السياسية. يحزن عندما تراوده فكرة أنه باع الرفاق ولكنه لم يكن يملك مصيره. كتم أوجاعه في صدره ولم يخبر أحداً شيء ما داخله تغير ربما كان السجن! ربما كان موت مروان! همس في سره ساخراً من نفسه: «يقولوا أسد الثورة؟ قولوا فرخة الثورة!»

مضى الوقت وكأنه يفرّ لينجو بنفسه من عالم البشر الحزين. سقط الليل في غياهبه البعيدة وإبراهيم غارق في عالمه بينما الحديث بين الاثنين ما زال يدور حول لعبة.

سما الضو

أنا الطرف الأخير

أنا الخيط المعلق في الهواء

أنا الخيط الذي تركته فألتف حول عنقك .

الدرس الأول في علم السياسة : ابحث عن المستفيد!

زار ياسين شيماء البهي في محبسها بسجن النساء . ترتدي الملابس البيضاء ووجهاً منكسراً لم يعد فيه ذرة شجاعة . ثلاثة شهور انقضت وهي محتجزة . قلب ياسين أوراق القضية وشيماء تطالعه وحيداً ينتظر القطار الأخير على رصيف محطة مغلقة . كل أصدقائها باعوها وانسحبوا المنظمة الأجنبية لم تضغط لإخلاء سبيلها هربوا رعاياهم الأجانب وباعوا قضيتها الآن فقط عرفت الوجه القبيح لمؤسسات حقوق الإنسان الأجنبية . أغلبها منظمات سياسية مقنعة تلعب من أجل جمع المعلومات وتوزيع مبادئها على شباب العالم الثالث بالمجان . ظاهرٌ براق وقلبٌ لا يعرف سوى المصالح . نعم ، يعملون أحياناً من أجل قضايا إنسانية ولكن هناك في الجانب الآخر ولاءً خفياً ضغوط دولية ومصالح تتحكم في النهاية . المؤسسة التي عملت معها كانت حقيقية وتعمل من أجل قيم ومبادئ ولكن هذا لم

يحصننها من الاختراق. أشخاص يتم تعيينهم داخل تلك المؤسسات كان يلعبون لمصالح أخرى. الآن هي واثقة من أنّ كل الذين هربوا كانوا عملاء. أين المبادئ التي عملوا على نشرها؟ لو كانوا حقيقيين لكانوا صمدوا معنا وواجهوا معنا الملاحقة والمحاكمات بشجاعة. عام حافل قضته شيماء في دهاليز السياسة والصحافة والمنظمات غير الهادفة للربح وعالم النشطاء السياسيين ولكنها لم تكتشف الحقائق سوى في الزنزانة عندما صارت وحدها كانت في دوامة يومية أطبقت حلقاتها حولها، تعدو من الجريدة إلى مقر الجبهة ومنه إلى المؤسسة التي عملت بها ثم في الليل موعد البث المباشر لبرنامج طلب استضافتها بصفتها ناشطة سياسية. الآن بعد أن انحصرت الموجة العالية اكتشفت أنّ كلّ شيء يندرج تحت مسمى واحد «السبوبة». في بداية عملها في المنظمة كانت فخورة بما تفعل ولكن مع الوقت وخلال زيارتها إلى الخارج وأحاديث كانت تدور في السهرات والمناسبات اكتشفت أشياء لم تكن تدري عنها شيئاً المنظمات كانت توثق الانتهاكات وترسل الملفات رأساً إلى سفارات الدول الأجنبية لتستخدم كأوراق ضغط على الحكومات. الراتب الجيد والمقرّ الأنيق والملفات المفتوحة والأجانب القادمون من بلادهم بحواسب أبل وبملابس أنيقة ومراسلي وكالات الأنباء، كلهم يعملون في شبكة متشعبة تجمع المعلومات لبعضها البعض. أما الشباب المصري الذي عينوه لم يكن سوى أداة لجمع البيانات وتوثيقها هذا الشباب الذي ما زال يصدق إلى الآن أنهم يعملون من أجل حقوق الإنسان والدفاع عن المظلومين. كم هي جوفاء كل الشعارات. كم هو عظيم الدرس الذي تعلمته. الثمن كان فادحاً

وساحقاً. نهاية مفاجئة وزنزانة مظلمة ومعركة خسرت فيها كل شيء. مقامر خسر كل ما يملك في لحظة. انفضوا من حوله وأكملوا اللعبة. هكذا يكون السقوط المدوي الذي يتبع الصعود المفاجئ. ما أن تنقطع الخيوط حتى تسقط الدمى بلا حول أو قوة.

بدأ ياسين يسألها عن معلومات تساعده في القضية ولكن إجاباتها كانت مقتضبة. كان هناك شيء يؤرقها فقررت أن تتخلص منه قائلة:

- ياسين في كلام كثير من اللي كان بيدور جوا الجبهة أنا بلغته لأصدقائي الأجانب. منها أفكار كثير للشباب. وتحركات ليك وللقواعد في المحافظات. صدقني يا ياسين أنا بلغت الكلام بحسن نية. مكانش قصدي إنني أخون حدّ.

انهارت تماماً وانطلقت تبكي وتنتحب. ربت ياسين على كتفها متأثراً وقال:

- أنا مش فارق معايا الكلام ده يا شيماء. المعلومات دي مش فارقه كثير دلوقتي. كلامنا كله كان بيتسرب من جهات كثير قالت شيماء وهي تنظر بعيداً عنه:

- إنت مش فاهم!

ساد الصمت قليلاً وظل ياسين يتابعها بصبر حتى قالت:

- عاطف كان بيعرف كل حاجة. كل خطوة وكل مسيرة وكان عارف إيه اللي هيجصل في ماسيرو وفي البالون وفي محمد محمود. اللعين ثانية، ها هو يعتلي صدارة المشهد. كابوس لا يستسلم ولا يملّ العودة. لم يُعد يعرف ياسين هل أسطورة عاطف كانت من

- وقع خياله؟ أم أن اللعين كان يملك بين يديه كل مفاتيح الخطورة
بحق؟ فكر قليلاً ثم سألها
- عرفتني منين الكلام ده؟
- جينا
- جينا مين؟
- زميلة بلجيكة كانت معايا في المنظمة. كانت صاحبتني قوي
وفي يوم اكتشفت إنها تعرف كل حاجة عن عاطف. هي اللي
حكاتلي قبل ما يتم تهريبها مع بقية الأجانب.
- صمت ياسين ولم تبدُ عليه أي آثار دهشة وكأنها لم تقل شيئاً
تعجبت شيماء من هدوئه وملامح وجهه الساكنة وهي التي ظنّت أنها
باحث بسرّ خطير سألته بحيرة:
- إنت تعرف حاجة عن عاطف ومخبيها؟
- عاطف وشريف سماحة وجهين لعملة واحدة.
- مش فاهمة؟
- شريف أناني عاوز يوصل بأيّ شكل والخيانة والتمثيل في
دمه. وعاطف عميل. الفرق إن الأول عميل أهبل لحساب نفسه
وغروره والثاني عميل خطر لحساب من يحميه.
- صاحت شيماء مندهشة:
- إنت كنت عارف كلّ ده؟!!
- أطرق ياسين بعيداً وقال بأسى:
- كنت شاكك..

صمت كبحار جلس يراقب الأفق ويجترّ الذكريات . يخاطب نفسه لفترة ولكن دون أن يشعر انفلتت منه الكلمات :

- آخر كلمة قالها لي مروان الناجي سيبته ليه ينتصر؟
يمكن أنا السبب في موت مروان .

أدمعت عيناه لبرهة ولكنه عاد وتمالك نفسه . اقتربت منه شيماء وقالت بنبرة صادقة :

- مروان مات بسبب المرض والحزن مش بسببك . كان في أسباب كثير اتجمعت ومنها فشل الثورة وفشل قصة حبه .

لأول مرة منذ زمن طويل تكسو الدهشة ملامح وجهه . انتبه على وقع كلمتها الأخيرة فسأل مندهشاً

- مروان كان يبحب؟!!

- سما الضو سما عبدالعزيز الضو

- عبدالعزيز الضو المستشار؟

- أيوه . سما بنته . إنت شوفتها معايا في العزاء بتاع مروان .

تذكر ياسين ذلك الوجه الحزين فسرح قليلاً وبدأت تراوده الأسئلة التي بلا إجابات . لماذا لم يخبره مروان من قبل؟ هل قصّتها موجودة في المذكرات؟ هو لم ينه قراءة المذكرات بعد . عليه أن يعود إلى المذكرات الليلة ويكملها أفاق على يد شيماء التي هزّت كتفه بقوة وأخرجته من عالمه قائلة :

- ياسين؟ أنا كنت فاكرة إنك تعرف الموضوع . مروان لّمّا تقدم للمستشار رفضه . . تقريباً رفضه دي كلمة قليلة . بعدها بدأ

مروان يضعف ويبان عليه الحزن. أنا معرفش تفاصيل كثير عن الموضوع لأن سما اختفت بعدها فترة. سما كانت صاحبتى وما زلنا على اتصال.

ساد بينهما صمت طويل قبل أن ينادي صوت آتٍ من الخارج بانتهاء مدة الزيارة. همست شيما قبل أن تغادر:

- الحب أحياناً يقتل. مروان لَمَّا بيحب كان بيحب قوي.

مروان كان بيحب الثورة وكان بيحب الميدان وكان بيحب سما مروان حب كلّ الأحلام الكبيرة. الأحلام ممكن تخون. أنا أحلامي خاننتي كل أحلامي. ما عدا حلم واحد لسه باقى نظر إليها مستفهماً فقالت وهي تهيمّ بالمغادرة:

- ياسين عبدالله السحرتي لسه موجود.

* * *

«وحيداً أنا.. هكذا أمضيت حياتي أفتش عني.. أفتش في الوحدة عن كل ما يشبهني.. أغرق بين الكتب لأفهم الأشياء ولكن كل ما أفهمه كان لا يحمله لساني إلى أي مكان.. أحلامي مسجونة على طرف لساني..»

شريداً أنا كطفل خرج من بيته ذات ليلة وأعجبه الضياع.. وحيداً أنا أينما ذهبت.. تائهاً في نفسي والأيام تمضي بي.. كل ليلة أميل رأسي على الفراغ وأنام وحيداً.. لدي حنين للبعيد وأتمنى أن يقترب.. لا أعلم ما هو ومن أين سيأتي! ولكنني كنت أرتكن على نفسي وأتمنى.. صارت غريبتى بلاداً بعيدة أمشي فيها ولا أجد بشراً ولا شجراً ولا حياة.. أنا

والخواء فقط.. جدران وأرصفتة غريبة وتعب يسكن أغوار القلب.. أرتكن على حجر الحائط وأسند رأسي ضاماً ركبتي إلى صدري.. هذه عادتي عندما أنام منذ أن كنت طفلاً صغيراً.. قبل أن يلتقي جفني، أشعر بها.. قبل أن أسقط في أغواري المظلمة، ألتفت فأجدها هنا إلى جواري.. لا أتحرك لأنني لا أصدق بعد.. تضع ساقها تحت رأسي وتتركني أنام هنا.. كيف تزول كل الوحشة في لحظة؟.. كيف يزول أسي العمر هكذا ويهدأ القلب الذي تاه.. تسكن الروح بعد طول اغتراب.. هنا عند ساقها نمت ونسيت.. نسيت..

هل صممت ظنوني عندما اقترب الحلم من جفوني ونمت؟ هل كنت طيب القلب وهادئاً في انتظار يوم أشد فيه الرحال نحو حلم جميل؟ أما أنا صاحب وغاضب وكاره لكل ما حولي من الأشياء؟.. هل أنا أشبه همومي وحزني؟ أم أن الزمان تشابه علي وأنا أمر؟

سما.. من أي فضاء أتى هذا الاسم؟ من أي زمن جاء؟ همست به يوم التقينا لأول مرة وغبت فيه.. أفق انفتح وسحب أطلت وريح مضت بي نحو البعيد فتهدت في ذاتي.. وقفت وحدي أطل من الشرفة وتبعثني.. كنت غارقاً في أفكاري وأحسست بك هنا إلى جواري ولم أعرف من تكونين!.. تقفين هنا حيث أقف وتطلين حيث أطل وكأننا دارت بيننا كل الأحاديث ونحن صامتين.

أنا كنت هنا وكأنني على حافة جرف شاهق أطل نحو الزمن الذي يفترش الخلاء بدروبه المحفورة كالمتاهات وأنت بخفة نسمة ريح سكنت المكان.. مع الوقت أشعر بك وكأننا

لسنا غرباء.. كأنك تعرفين مَنْ أنا وكأني أعرفك.. هذا الشعور بالألفة لأحد ما أتى ليسكن إلى جوارك.. هذا الشعور بأنك لست غريباً ولست وحدك.. مرّ الزمان ونحن نطلّ سوياً على حياء الصمت ولكن الوحدة تلاشت وتوارى الظلّ الشاحب أمام سماء ناصعة الضياء.

كيف يسكنك أحدهم دون أن يقول كلمة؟.. يقف حيث تقف فقط ويسكنك بسلام.. يهدأ الوقت القلق وتزول وحدتي عندما سكنتِ جوارِي.. مضى زمن طويل قبل أن تهمسني «بحب كلامك».. أنا المتلعثم وجدت أحداً يشعر بوجودي.. الشجرة المنسية ذات صباح سكنتها البلايل وصدحت بالغناء.. خفتُ أن أتكلم فأتلعثم ولكنك لم تتركيني وحدي وهمستِ ثانية «اسمي سما»... أي اسم هذا يا أيتها الصافية؟ أي حلم هذا الذي أحلم به؟ أي موسيقى تلك التي عزفت ليلتها؟

أنا مروان الناجي الذي رافق وحدته أينما مرّ.. اقتربت منه السماء فحلق بأحلامه.. عرف الحب..»

أنت المسافر على طريق الحكايات وكل حكاية تمرّ بها ترسم لك ظلاً ما مختلفاً وكل ظلّ يرسم أمامك صورتك.

تسقط دموع ياسين في صمت ويتحسّس الأوراق بأنامله، يغلق ضوء المصباح ويظلّ مكانه ساكناً حتى يطلّ عليه الصباح.

المزعوم

أنا اللص وأنت الزبون

أنا المخدر الديمقراطي الحديث

وأنت الضحية التاريخية.

الدرس المائة في علم السياسة: الوسيلة تبرر الغاية وليس

العكس.

أنت أيها الواقف هناك على أعتاب الوطن. أنت أيها الواقف

هناك في طابور الانتخاب تنتظر دورك لنتخب أول رئيس منتظر، ها

نحن على أعتاب الحلم المنتظر الواقفون هنا يتطلعون نحو الغد،

يتهامسون ويتجادبون الحديث الطويل حول مرشحيهم. أحلامهم

تتسع ويعلقون آخر آمالهم على رئيس ديمقراطي يضعهم على طريق

الوطن. هذا الوطن الذي ظلّ قابلاً في الضباب لعقود. أنت أيها

الواقف هناك في انتظار المعجزة. معجزة الحلم الذي غاب عنك

منذ أن ولدت. ها هي الرايات ترفرف هناك عالية. أحلامك في

الوطن هي حقّ سلبوك إياه وجعلوك دوماً متفرجاً لا يصنع مستقبله.

يصطف العجائز في الطابور الطويل في انتظار دورهم، يريدون أن

يصلوا إلى الصندوق ليتأكدوا أن هذا الحلم حقيقة. أما الرفاق

فتفرّقوا بين الصفوف يوزعون الأمل. قالوا فلنختَر حتى لو كان
الاختيار خطأ

الدرس التاسع في علم السياسة: سيصعّبون عليك الخيارات،
لتختار بالضبط ما يريدون.

أنت أيها الواقف هناك لم تكن تعلم بالخدعة بعد. صندوق
السياسة لم يكشف باقي أسراره المخبّأة بعد. لم تكن اللعبة نزيهة
كما كان حلمك. يصعّبون عليك الخيارات لتختار منها ما يريدون.
عام ونصف وهم يجرونك من مرحلة إلى أخرى حتى تفقد زمام
المبادرة. أحكموا السيطرة على حلمك وبدّلوه بآخر ثم عادوا وبدّلوه
بآخر، وهكذا ضربوك في حسابات الدهاليز المعقّدة حتى وجدت
نفسك أمام طرقات بديلة. طرقات من سراب. كلهم أغدقوا عليك
الوعود. كلهم استغلوا عواطفك ولعبوا على نقاط ضعفك. أنت أيها
الواقف هناك على أعتاب الصندوق، مَنْ قال لك إنّ الحلم كله
يسكن هنا؟ مَنْ قال لك إنّ هذا هو نهاية المطاف؟

أنت أيها الواقف هناك تنتخب، احذر الاختيارات التي تُملئ
عليك، احذر مَنْ يختارون لك الاختيارات.

أنا الكتاب الذي كلما قرأته بكيت.

الدرس الذي كان خارج المقرّر في علم السياسة: انس كلّ ما
درسته في كتاب التاريخ وحصّة الجغرافيا ومنهج التربية القومية، كل
هذا مزيف!

عندما سأل درويش الرجل العجوز الواقف في الطابور عن مهنته، أخبره بأنه على باب الله، كان لديه مقهى صغيراً ثم فقدته بعد أن سُجن لخمس سنوات في قضية مخدرات. أثار الرجل فضول درويش فسأله عن ما يحلم به فقال الرجل بنبرة فيها مسحة من المرارة:

- نفسي في رئيس يكون حنين عليا

قال درويش لنفسه وهو يطالع وجه الرجل، ها هو مواطن يحلم. هم كثيرون في هذه الأرض ولكننا لا نراهم. درويش لم يعد يحلم بأشياء جميلة. عندما ينام تراوده الكوابيس فقط. لم يعد يعرف أي عالم ينتمي إليه؟ السياسة أخذته بعيداً عن نفسه وعن الناس. ظلّ يظن طويلاً أنه يعمل من أجلهم ولكنه اكتشف أن السياسة أبعد ما يكون عن الناس. أروقة السياسة لا تعرف سوى الشعارات والاتفاقات والمصالح. مصالح أفراد تحرّك مصالح الشعوب.

الرجل الواقف أمامه يُطلق كحّة ويجلس بعد ساعتَي انتظار في الطابور الطويل. الرجل الذي حيرّ درويش ولكنه أيقظه. هناك على الأرض مَنْ يرتادون دروباً خاطئة ولكنهم في النهاية ضحايا هم يحلمون بالعدل أيضاً يقول درويش لنفسه ساخراً، حتى الحرامي في هذه البلد يحلم بالعدالة لأن هناك ما هو أسوأ، إنها السياسة التي حكمت مصيره. هناك دوماً أشياء في الحياة لن تتعلمها من الكتب. هناك دوماً في الحياة ما هو أقوى من نظريات العقل.

درويش الطبيب الذي انقلب على ذاته، الثورة أمسكت به ولم تتركه وهو الذي مرّ صدفة يوم 25 كانون الثاني/ يناير بمسيرة فظلّ

يشاهدها صامتاً ولكن عندما أمسك به رجل من أمن الدولة وهو في طريقة إلى منزله وفتشه كمجرم وتوَعَّده بأنه والشباب أمثاله سينالون عقاباً وخيماً، قرَّر أن لا رجعة بعد الآن. لم يترك السياسة من يومها وكأنه كان يقف على الحافة وينتظر أن يدفعه أحد.

درويش الذي أثقلت عقله الكتب كان كلما قرأ، أيقن بأنَّ البلد تقف على الحافة مترنحة مثله تماماً، صنعت منه الثورة ذلك الثورجي الغاضب وهو الذي أفنى عمره كشخص منطوي لا يتكلم إلا قليلاً درويش أمضى عمره خجولاً يمسك طيلة الوقت بكتاب، وهو طالب متميز من الحاصلين على أعلى الدرجات والمتفوقين دراسياً صار بين ليلة وضحاها مُسَيِّساً لا يعرف كيف يتوقف وطبيباً على رف الانتظار يمسك في يمينه نص البيان الثوري وفي اليسرى أوراق رسالة الماجستير فيختار البيان الثوري ويقذف بأوراق الرسالة جانباً ينطلق نحو الشارع، نحو المسيرة، نحو هدير الهتاف.

بعد يوم طويلٍ أمضاه في طابور الانتخابات الرئاسية عاد إلى الشارع الذي يقطن به بحي العباسية. يمر بطيئاً وهو يفكر كيف تغير هذا الحي؟ كان هناك على الناصية رجل لديه دكانة لبيع الكتب. طيلة طفولته كان يحلم أن يدخل تلك الدكانة ولا يخرج، يريد أن يقرأ كل الكتب والقصص التي كانت فيها الرجل العجوز صاحب الدكانة كانت له هيبة عجيبة. كان لسبب ما يرى في هذا الرجل بنظارته وشيب لحيته، مصر بعظمتها وشموخها وتاريخها المسرود، مات الرجل ذات يوم والدكان الذي كان كله كتباً اشتراه بائع مخملات وحلَّت محل أصناف الكتب أصنافاً من الطرشي الحي تغير والشارع تبدل والبلد كلها صارت شيئاً آخر حزيناً

عندما ينام يراوده الكابوس نفسه، يرى درويش نفسه في المستشفى الميداني ويأتون له بمصاب مخضب بالدماء، يهرع إليه ويحاول أن يسعفه ولكنه لا يعثر على مكان الجرح ليسده، ينزف المصاب بلا توقف وهو لا يعرف ماذا يفعل، تسيل الدماء فوق يديه بلا توقف وفوق الأرض كأن شريان ذبيح انفجر، يزعق في الحلم ولا يخرج منه صوت، يشعر بالغثيان ويسقط. يتكرر الكابوس كثيراً ويعيد نفسه كل يوم في شكل مصاب جديد. الليلة داهمه كابوس مختلف. الليلة شاهد أفزع كوابيسه على الإطلاق. رأى في منامه شاباً مقتولاً مغطى على طاولة المشرحة. عندما كشف الغطاء عن وجهه كان مروان الناجي، وجهه مشوّه بالخرطوش. صرخ في طرقات المستشفى، صرخ في كل من مرّ به، مروان الناجي قد مات منذ شهور. من المستحيل أن يكون هذا هو مروان الناجي، ولكن الاسم المدوّن على البطاقة كان مروان الناجي.

يصحو من نومه فزعاً ويخرج إلى الشرفة ليلة أخرى حارة من ليالي الصيف يجافيه فيها النوم بعد كابوس حزين. جلس درويش يفكر حتى اقتربت الساعة من الساعة صباحاً، موعد ورديته بالمستشفى. درويش طبيب معيّن بالقصر العيني لم يستطع تحقيق أيّ من أحلامه حتى الآن. أذف العمر وهو في انتظار دوره في الدراسات العليا ليحصل على أيّ تخصّص يجعل منه طبيباً ذا شأن. أحلامه كلها محفوظة في الفورمالين. خاب ظنه في كليته التي اندفع إليها بطموح الالتحاق بالكليات العليا وأوهام مكتب التنسيق وتطلعات الأهل. أدرك مع كل عام يمرّ بأن الطب هو مهنة تصلح بجدارة لمن يريد أن يبيع عمره للشيطان. درويش يرتاد طرقات

المستشفى في الصباح ويقضي يومه في سرقة الدواء ليعطيه للمرضى
البائسين، كان يسرق لهم الدواء المجاني
ذات يوم لم يعد يرى درويش أي شيء عندما ينام. ظلّ لسنوات
بلا أحلام.

مينا

«إنت مسيحي وهقتلوك!»

قالتها أمه وبكت. أشاح بوجهه وصفع الباب خلفه ثم هبط الدرج مسرعاً، لم يكن يعلم إلى أين سيتوجه؟ هذا كان حاله دائماً، تائه على الدوام بين الجبهة والميدان. تائه بين محطات التلفزيون وفيديوهات اليوتيوب. تائه بين تعليقات الفيسبوك وجدليات تويتر تائه بين الزواج المدني والكنسي. تائه بين إعجابه بسلمى وانطلاقها وميريت خطيبته والترتيبات الأسرية للزواج. تائه في معتقداته ولا يعرف إن كان علمانياً ليبرالياً أم أرثوذكسياً متحفظاً؟ مضروب على رأسه كل صباح، محشور بسيارته الصغيرة في زحام كوبري أكتوبر يكره الزحام ويكره وظيفته كمهندس وهو لا يمارس الهندسة. يكره مديره بالرغم من أنه قبطي مثله ولكنه يلمح طيلة الوقت عن فجاجة الشباب القبطي وتحرره من قيم الآباء والكنيسة. على أي حال المصنع سيغلق عن قريب مثل الكثير من المصانع بعد أن ضربته أزمة إضرابات العمال وسيستريح من مديره هذا للأبد. العمال السذج دفعهم تيار سياسي داخل النقابة ووعدهم بالحصول على حقوقهم من المستثمر الجشع مقابل التصويت لهم في الانتخابات. المستثمر كان

بالفعل يسحب استثماره ويقوم بتفكيك خطوط الإنتاج وشحنها إلى مصنعه بالأردن. أيها الأغبياء، سينتهي بنا الحال إلى الشارع جميعاً كاد العمال أن يفتكروا به عندما حاول التحدث إليهم واتهموه بترويج الإشاعات. عما قريب سيلتحق منا ببقية دفعته بالجامعة على مقاهي حي الظاهر يدخنون الشيثة ويلعبون الدومينو. أما هؤلاء العمال الأغبياء فسيسلمون أنفسهم لتجار الهجرة ليغرقونهم في عرض البحر المتوسط أو سيشترون عقود عمل مجحفة ببلاد الخليج وربما ينتهي بهم الحال في المصنع نفسه بالأردن ليعملوا بالسخرة وسط الهنود والبنغاليين. اللعنة على غبائهم وسذاجتهم!

يقف على أعتاب مقر الجبهة متردداً المقر لم يعد يحمل سوى الخبيات الكبرى. يدخل ليحضر الاجتماع الموسّع مع قواعد الجبهة القادمة من مقرات المحافظات. عاطف كان حديث الساعة. بعضهم يقول إنه انشق عن الجبهة أما الآخرون فيقولون إنه كان عميلاً منذ البداية. عاطف خرج على صفحات الجرائد يهاجم العشرات من النشطاء ومنهم رفاقه القدامى بما فيهم عبد القادر ودرويش وكريم عمر هذا الأخير كان على حق في كل ما قاله عن عاطف. تبدو الخيانة مصلوبة على الوجوه من حوله. إبراهيم الكومي حضر ومعه سلمى وأدهم وجلسوا يتبادلون الاتهامات مع درويش وعبدالقادر. عبد القادر حَضَّرَ بياناً يعلن فيه عدم انتماء عاطف إلى الجبهة وإنه لم يكن في أي يوم عضواً في الجبهة. هل هذا هو الحل؟ تساءل درويش غاضباً أما الكومي فمزَّق البيان واشتبك مع عبد القادر في معركة كلامية حامية. لسبب ما كان كريم عمر صامتاً لا يتكلم ممّا دفع مينا لينفرد به في ممرّ الجبهة ويسأله إن كان يخفي شيئاً آخر لا

يعرفه الرفاق. أشعل كريم عمر سيجارة وهو يشير نحو غرفة الاجتماعات قائلاً

- أنا مش فارق معايا إن عاطف انكشف. كان مصيره ينكشف عاجلاً أم آجلاً أنا صعبان عليا العيال دول.
أخذ نفساً عميقاً من سيجارته قبل أن يتابع

- إحنا اتبغنا وضحكوا علينا بمسار ديمقراطي وهمي والعيال دي اتزقت للشارع في معارك وهمية كثيرة بعد الثورة علشان عاطف وأمثاله يركبوا أنا فهمت ليه ياسين السحرتي انسحب بعد أحداث محمد محمود. ياسين قرأ المشهد وفهم اللي جاي إيه. حسين كمان سحب نفسه بعد استفتاء مارس. فاكر الاستفتاء؟ فاكر مواده؟ محدش فاكر!! ده كان قياس للرأي العام ولما سبعين في المية قالوا نعم رتبوا الورق وعرفوا مين الحصان الرابع اللي يراهنوا عليه
تقصد الأطراف الخارجية؟

طبعاَ ومعها أطراف كتير داخلية. كل حاجة اترتبت من قبل مبارك ما يخرج من القصر رتبوا شكل المسار الديمقراطي المزيف اللي هيضحكوا علينا بيه المشكلة دلوقتي في الشباب الصغير شباب الجبهة اللي قاد المسيرات في الميادين والمحافظات الشباب الغلبان اللي صدق الجبهة وصدقنا أنا لو من الكومي أحدف عبد القادر من الشباك خيلنا نخلص من سذاجته الثورية ظهر على مينا الامتعاض من فكرة كريم وتابع بعينه عرفة الدب وهو يخرج من غرفة الاجتماعات منكس الرأس. تابع كريم قائلاً
- عرفة اتجنن خلاص! ضحية هو كمان.. كلنا ضحايا .

الكومي وأدهم وسلمى وإنت وأنا وشيماء وألوف من شباب الجبهة
ومن ثورية الميدان. وقبلهم كلهم مروان الناجي.

هوى مينا في مكانه وجلس على الأرض، ركبته محنيتين إلى
صدره. يستعيد بينه وبين نفسه شريطاً طويلاً من الأحداث. عاطف
الذي تفاوض مع كلّ القوى السياسية باسم الجبهة وأنّضح أنه كان
يتفاوض لنفسه ولمكاسبه. كان يشعر أحياناً كثيرة بأن عاطف متشدّد
ضد الجميع ولكنه يداري ذلك بابتسامة صفراء وربطة عنق وشعارات
ثورية جوفاء. كان يستفزّه بنعومة أمام الجميع ويتعجرف معه من وراء
ظهورهم. يجرّه إلى معركة كراهية ليس لها نهاية. يهيمن على الجبهة
ويتحرك كالخفاش فاردأً جناحيه على كلّ الأنشطة داخل المقرّ عبد
القادر ذو الرومانسية الثورية والغرور المستفحل، كان الضحية
الكبرى لعاطف اللصّ، كان يحركه كيف يشاء.

مَن نحن في هذا العالم السياسي اللولبي الدهاليز؟ هؤلاء
المتمرسون على الخيانة والكذب غرّروا بنا

قال لنفسه وهو يتابع غضبة إبراهيم الكومي: «لو تركنا الكومي
سيقتل عاطف لا محال» لم يكن مينا يعرف ما تخبئه الأيام.

سما الضو 2

«سما.. كيف هبطتِ على أرض الحقد والكراهية؟.. أيتها الصافية لم أتيتِ إلى هذا العالم؟ أنت والوطن حلمين سارا مع بعضهما نحو حافة حتفي الأخير.. تلك كانت نزوة النهاية.. لم أكل لعدة أيام.. لا أبارح فراشي الذي سكنته منتظراً النهاية.. كيف سكنني كلّ هذا الحزن وكرهت نفسي الضعيفة؟.. لم أعرف أن الحزن قد يفرش المدى الواسع غابات أسى في لحظة.. غابات نبتت وأحاطتني من كلّ صوب.. أضرب في قفاري الباردة كشريدٍ غربته الأيام.. لماذا صدقت الوطن وكذبت نفسي؟.. لماذا لم يخرج صوتي وتهدت في ذاتي عندما قاطعني أبك.. صادر كل شيء ورمقني بنظرة باردة.. ذكرني بوطن لا يعترف بنا.. كم هو ملعون لساني العاجز.. كم أتمنى لو أهذي وأهذي وأهذي دون توقف ودون تردد.. كم أكره كلماتي المترددة وأحاسيسي المتلجلجة.. أتمنى لو تنفك عقدتي ويجوب لساني بحور الكلام حتى لو كان كلاماً تافهاً أو سفيهاً.. اللعنة على كلّ المفوهين وهم يصيغون العبارات لتنتلق رنانة في الأجواء.. ماذا ينفعني وأنا أعني ما أحسّ به ولكني لا أعرف كيف أبوح به؟.. اللعنة على كلّ الكلمات التي

أحملها ولا يطبق عليها لساني الثقيل.. أنا من فعلت بنفسى كل هذا.. أنا الذي صدقت.. وقفت أنتظر الآخرين كي يصدقوا حلمي ولكنهم انسحبوا.. أنتِ رضختِ لسطوة اليأس.. هو أيضاً رضح وانكسر.. لم أحسبه سينكسر مهما حدث.. ربما كانت الأشياء أكبر منا..

أنا الوحيد في الشارع المزدهم بالثوار.. أرقب اللحم الذي لا يريد أن ينتصر.. أتطلع في عيني صديقي الذي انسحب.. ما الذي تبقى منى لانتظره؟.. مكبّل أنا في سلاسل أحلامي.. كلما صادفت حلماً اعتقلني.. هذا الزمن لا يشبهني ولا يعترف بي.. هذا الزمن لم يتركني لأحلم».

الآن يعلم ياسين ما كان يجهله، ذلك الجانب من الحكاية الذي لم يُروَ من قبل. كم هو غريب أن تعرف! كم هو غريب أن تكتشف ما خفي! يتخيل نفسه مروان الناجي. يحاجي نفسه ويتألم ثم يعود إلى كنف المذكرات مرتحلاً داخل عالم مروان الناجي.

«سما لما أتيت؟»

كنت أجوب طريق الكورنيش وأعبر كوبري قصر النيل وحدي كل مساء مفكراً بك وتراودني أحلام بعيدة تسمو بي فوق كل مآسي الأحداث.. كنت أطيل النظر إليك وتدور الكلمات في رأسي ولا أعرف متى وكيف سأقولها.. كيف كان كل شيء يدور في فلكك دون أن أدري!.. كيف كانت عيناك تخترقني وكأنني ضباب آخر حدوده إشراقتك! كيف وسط كل هذا الصخب اخترق صوتك الهامس مسامعي وقلت برقة «بحب كلامك» وأنا الذي كان لا يتكلم في حضرتك.. كيف

سمعت عني وأنا المجهول.. لما انسلت من الجمع العاصف
وتبعني حيث انتهيت إلى الشرفة ووقفت وحدي أدخن
سيجارتني.. لما ابتسمت تلك الابتسامة العذبة وكأننا نعرف
بعضنا بعضاً منذ سنوات وكأنني لست غريباً وكأنني الملجأ
الوحيد لك..

كل تلك الأشياء البسيطة في.. هي ذاتها الأشياء التي
تجعل مني معقداً إلى هذا الحد.. الحب يأتي عندما لا تتوقعه
ويغادرك عندما تنفذ منك الخيارات..

سما.. كم كنتُ أغمض عيني وأجلس في ظلمتي وحدي
لأحتفظ بالحلم حتى لا أفقده.. الآن لم أعد أشعر به.. الآن
نفترق..»

كان يقف على أعلى التلة الخضراء بحديقة الأزهر يرقب سور
القاهرة المسكون بالتاريخ عندما أتت من بعيد تصعد التلة نحوه .
الآن يعرفها ، تلك التي كانت تبكي بحراً من الدمع يوم العزاء ، تماماً
كما وصفها صديقه في المذكرات .

سما عبد العزيز الضو ضللت سائق والدها في خان الخليلي
واختفت بين الزحام المتسلق شارع الأزهر نحو نهايته ثم ذهبت إلى
الحديقة حيث اتفقت مع ياسين على اللقاء عندما هاتفته هذا
الصباح . طالع ياسين أفق المدينة المكّس بالبيوت والوجع بعدها
جلسا صامتين كأنهما في حضرة الغياب . ها هو الزمن يقف دون أن
يتزحزح وسما تجلس إلى جواره دون أن تتكلم .
يقول لنفسه : «لماذا لم يخبر أحداً عنك؟» .

تقول لنفسها «كان يوماً يحدثني عنك».

يقول لنفسه: «هي جميلة كما وصفها كان مروان يحب يوماً الأشياء الجميلة. كان يحب الأشياء التي تفضي إلى الموت»
بالرغم من كل شيء لم يكن من السهل أن يتحدثوا سوياً كان مروان حاضراً يطلّ عليهم. يقعد هناك على مقعد الحديد الخالي. يديه في جيوب معطفه كعادته وهو يطالعهم بعيونه الحزينة ظلاً جالسين وتبادلاً بعض الأحاديث العابرة عن قضية شيما. لماذا أرادت أن تقابله؟ لم يكن ليعلم. لم تقل الكثير ولكنه عرف لاحقاً أن أبوها هو القاضي الذي يحاكم شيما البهي. تمضي هابطة التلة ويتهدى صوت مروان الناجي من مكان بعيد.

«هل سألت نفسك يوماً، كيف ترى حياتك من دونك؟.. كيف ستكون شكل أشيائك من دونك؟ كيف سيمر الوقت دون أن تكون موجوداً فيه؟.. من سيجلس على مقعدك ومن سينام على سريرك؟.. من سيركب سيارتك من بعدك وإلى أي الأماكن سيذهب بها؟.. من سيأخذ مكانك في العمل؟.. عن ماذا سيتحدث الناس وأنت لم تعد بينهم؟.. من سيرتدي ملابسك التي تركتها؟ ربما سيتبرعون بها لأحد الفقراء.. كيف ستبدو ملابسك عليهم؟.. من سيحبّ فتاتك؟ ومن سيتزوج منها؟.. من سيسير على الدرب من بعدك مع أصدقائك الذين تركتهم خلفك؟.. من سينكر اسمك؟.. من سيحمل قضيتك؟ من سينتصر على من؟ ومتى؟ وكيف؟ هذه هي الأسئلة الحقيقية والباقي كله هباء.. نحن كلنا غرباء».

عندما مات مروان الناجي لم يكن يعلم أن سما الضو ستتزوج بعدها بسنتين وفي ذكرى ميلاده نفسها بتشرين الثاني/ نوفمبر. لم يكن مروان الناجي يعلم أيضاً أن اسمه سيعود إلى الحياة ذات يوم أقوى ممّا كان.

سلمى خورشيد

أنا الواقع الذي تجاوز الخيال

أنا جمجمتك التي انفجرت .

«إحنا عايشين في مجتمع بيدعي المثالية والطهر والحياء والتدين

وإحنا أبعد ما نكون عنهم!»

تتذكر سلمى كلمات مروان الناجي وهي تجوب طرقات وسط

البلد بلا وجهة . لا تعرف كيف صارت غاضبة إلى هذا الحد؟ لا

تعرف سلمى خورشيد كيف انتُهكت وأنهَكت، حتى صارت هكذا

تواجه كل يوم خطر الانهيار . كيف صار عليها كل صباح أن تواجه

أزماتها مع عيون الناس في الطريق وهي تهول نحو الباص؟

دعهم يقولون إنني مجذوبة، وإنني وقحة، وإنني متحررة، وإنني

معقدة نفسياً وشاذة ومنحلة وأنتمي إلى كل الفصائل الوسخة . ماذا

يهمك من ثيابي إن كانت تستر أو تفضح؟ فأنت تعرّيني بعينيك في كل

مرة أمرّ فيها من أمامك، عينك تغتصبان كلّ موضع فيّ وتنتهكاني .

«لكل قاعدة شواذ أمّا نحن فشواذ بلا قاعدة» هكذا تذكرت

كلمات مروان الناجي ذات مساء عندما انتقد مينا ما تنشره على

الفيسبوك وتويتر من سُبَاب وألفاظ خارجة . كلما انتقدتها أمها

تذكرت مروان الناجي وهو يقول «جيلهم يحمل كلّ التناقضات ويريدون من جيلنا أن يصبح سوياً؟!» أمها بالأمس ضربتها بينما طالع أبوها المشهد راضياً وسعيداً بما يحدث. لا يضرّ، هو دوماً رجل سلبي ولم يكن يفعل شيئاً في الحياة سوى مطالعة الصحف وتصفّح المواقع والدخول في مشاريع تجارية خاسرة مع أصدقائه. أمها التي تدرس الدين وتحفظ القرآن ترى فيها ابنة فاجرة. ضربتها أمها هذا الصباح وشجّت شفتها بعدة صفعات وأصابت جسدها بكدمات عديدة. سلمى ضُربت من قبل عدة مرات في الميدان خلال فضّ الاعتصام وفي المسيرات ولكنها اليوم تشعر بمرارة لم تعرفها من قبل أمها اهتمتها بأنها عدوة الإسلام لأنها اعترضت على قرارات الرئيس المنتخب. أمها سبّتها وسبب الثورة ونعتتها بأنها عميلة لأميركا مثل كلّ شباب الثورة. لم تعد تطيق البيت ولم تعد تطيق كل من حولها أسرتها منقسمة سياسياً للدرجة التي جعلت أمها ولأول مرة تضربها وبعنف كأنها غريم يجب أن يُسحق. مات كل شيء بينهم في ذروة الغضب والخلاف. خالها طلق زوجته إثر خلاف سياسي نشب بينهما كل شيء داخل أسرتها وكل الأسر التي تعرفها صار يشبه حرباً نفسية طاحنة. متى تحولت أمها إلى هذا الخصم البشع؟ أمها التي عاشت حياتها كلها امرأة مستسلمة وخانعة لزوج لم يصنع في حياته شيئاً يُذكر امرأة كان كلّ همها الطبخ وملابس المدرسة ودروس الأولاد ومستلزمات البيت صارت الآن تتابع الأحداث وتخرج في مسيرات الإسلاميين وتشارك في أنشطتهم. أمها التي كانت تدّعي لها في كل صلاة صارت الآن تتهمها بالكفر وتدّعي عليها.

إلى أين تذهب سلمى؟ المنزل صار جحيماً والشارع صار موبوءاً بالتحرش والزحام ومقرّ الجبهة صار قبواً سريعاً للضياع والانقسام والميدان لم يعد يسكنه سوى الباعة الجوالين والمنحرفين أين الرفاق؟ شيماء في السجن ومروان مات وباسين تلاشى وعرفة مكتئب وشريف وغد قدر وعاطف أسوأ منه وإبراهيم يعمل ليل نهار ليعول أسرته وعبدالقادر غارق في تمثيل الدور ومينا يرافق درويش في المقر ينتبان سويماً في رفات ثورة حدثت ذات يوم. لم يعد هناك سواه، عيونه البريئة وحساسيته المفرطة وغضبه الذي يشبه غضبها لأول مرة تشعر بأن هناك شَبهاً بين أدهم ومروان. لو حلق أدهم شعره الطويل وارتدى نظارة طبية وأطلق لحية خفيفة سيثبه مروان إلى حدّ كبير ستظن أنهما أخوة. كيف لم تلاحظ هذا من قبل؟ تعود لترنّ في رأسها كلمات مروان:

«لكل قاعدة شواذ أما نحن فشواذ بلا قاعدة».

على قارعة الشارع المظلم القصير ما بين محمود بسيوني وهدى شعراوي ينتشرون في مجموعات تفترش المكان. الحوائط القديمة مدجّجة بالرسومات والقلق، الشعارات تتشعب كشباك العناكب، ورقة الماريجون تقف فوق القبضة، والقبضة تخرج من حبل مشنقة، والمشنقة فوق بيت شعر لأمل دنقل يقول «معلّق على مشانق الصباح وجبهتي محنية بالموت» الشعر مخطوط فوق وجه شهيد، والشهيد على وجهه مكتوب القصاص بلون الدم الأحمر، الأحمر يطلّ على الأسود الذي يهتف «يسقط حكم العسكر» وفوقه كتب بالأحمر «يسقط حكم المرشد».

في قلب الشارع الأسود يفتريشون الرصيف، انشقت الأرض
عنهم ليخرجوا إلى الأركان والأرصفة. يدبذب أحدهم الأرض
والآخر يصفرُ بغمه بينما يغني أدهم بصوته القوي.

«كل حاجة هية هية. لسه العفن معشش فيها لسه الظلم
بينهش فيها لسه الغاز خانقني والرصاصة في عيني عمر الحق
ما هيتكمم ولا سجنك هيقضييني. كل حاجة هية هية. شلنا
حرامي وجبنا الزبانية.

دخلت سلمى خورشيد بينهم وجلست على قارعة الرصيف
تدندن معهم وتتابع أدهم وهو يغني. تنسى مرارة الضرب وتتلاشى
صورة أمها تغني معهم وتضج معهم. تطلق حمم غضبها المعهود.
تلعن كل الأشياء التي تبغضها. تمارس ثورتها من جديد.

المنبوذ

«أنا المنبوذ ولديّ شهادة ميلاد وبطاقة هوية وجواز سفر أخضر مثل الجميع.. أنا المولود في نوفمبر البائس قبل عقدين وبضعة سنوات.. أنا ابن هذه الأرض ولدت وحيداً.. حافياً ولقيطاً كابن زنا.. أدبٌ في طرقاتك وتمنّين عليّ بأني ابنك وبأني مواطن؟!.. أنا النكرة في كنفك يا سمراء.. أي أرض تلك التي توتدنا صغاراً؟!.. تلفظنا نحو خليج النفط على دفعات.. تقذفنا في عرض المتوسط الشمالي الغائم.. العجائز تمنّ علينا الأرض.. اللحية المشعثة على الفضائيات تمنّ علينا ديننا.. تمنّ علينا الله أن لم ندخل في زمرتهم كقطعان الثغاء.. أنا الذي لا دور لي.. وجهي إلى الشارع وظهري إلى الكومي.. سيموت مثلي.. لمّ تبكون علينا؟!.. نحن نكرة فلا تولّهُونا بنحيب قصاص.. نحن جيل آخر أنجبوه بعد ليلة تلفزيونية من سهرات الثمانينيات.. ربما لو مدّ صفوت الشريف ساعات البث أيامها لما أتينا.. جيل أنجبوه ليحصد هياكل الإسمنت من فوق الأرض بدلاً من قطنها.. أنا وأنتم أبناء الزيف.. لم تعترف بنا الأرض يوماً.. جئنا بعد أن فرغت الأرض من الدوران واستعرت الشمس فوق الرؤوس.. نحن أبناء نهاية

الزمن والمحتوم القدرى الجنائزى الهالك المتداعى.. جئنا
ليتداعى التاريخ على أمة رؤوسنا.. ليصرخ العجائز فينا: أنتم
تحرقون البلد.. فلتحترق لتكويكم وتكوينا ونهلك.. لعله طوفان
يمحينا ويمحيكم ونخلص من جهلكم ومن إحباطنا.. لعلّ
الأرض تستوي بعد أن نسمدّها بالجثث.. لعلها تنبت آخرون
بعد الزمن يزرعها بالأخضر.. ضقنا بلغوكم وأفواهم
الكبيرة المبحرة في لعبة التلفاز كقروش تأكل ما تقابلها في
لعبة لحصد النقاط.. ضقتم بثوراتنا وهتافنا وخيامنا.. لا تتسع
الأرض لكلينا.. سنبيدكم أو ستبيدوننا.. هذه هي النهاية..
ولتكن المعركة دامية حتى آخر النهاية».

الحياة كموج البحر لا يتوقف عن أرجحة مركبك، إن تبحر
وتستمر أو تتوقف في مكانك ستستمر هي في مواصلة الأرجحة.
يتذكر ياسين الأشياء الغائبة البعيدة، يتذكر صديقه. كانا يجلسان
متجاورين كظلال شجرة مرسومة على بصيص ضوء شاحب يطلّ من
النهاية. يتذكر مروان الآن وهو يحكي. صوت مروان لم يكن يتلعثم
في ذاكرته

- عارف ليه بنحكي الحقيقة للغرباء؟ لأننا مش محتاجين
نبرلهم الأسباب. عارف لّمّا تعدي على الدنيا والناس. في حدّ
دايماً بتقف قدامه وتثبت. فيه حاجة بتشدك من غير ما يعمل
حاجة. في علامة للشخص ده. بتحسّها وبتوصلك من غير
تفكير دي الناس اللي بتشدنا بعيد. بنقف عندهم ونحكي
الحكاية. يطلع الكلام الساكن فينا وكأنه أساطير تطلع
الحكايات واحدة ورا الثانية. تطلع الحقيقة.

فجأة صمت مروان ثم هتف :

- فإكر الؒرربؑ ؟ ساعات بتخيل إنى بحكى معاه وبكلمه
وبحكيله .

يسرح شاردأ فى دروب ذاكرته . تأتبه صورة طه الؒررب فى ليله
جمعه الؒضب . كان يمرّ وسط الؒاز متجهأ نحو المعركة بثبات وكأَن
شبحأ مات من قبل عدة مرات . الؒررب الذى كان يأتى دومأ لا
يتلاشى . مروان كان مثل الؒررب؁ ظهر من قلب الثوره وتلاشى
فيها يشعر أحيانأ بأنهم كلهم كانوا غرباء . غرباء عاشوا داخل
الؒلم ولم يخرجوا منه .

* * *

تساوى الأيام والشهور والسنوات فى فعلها الممتد ولا تنكسر
ولا تتغير سوى فى لحظه قرار يبحث فى ذاته عن قرار تائه فى
ملفات الؒزن . اليوم وقف أمام القضاة ليرافع عن شيماء البهى .
وقف أمام المستشار عبدالعزير الضو يتطلع إليه متؒديأ

أيها السادة القضاة؁ مَن تحاكمون؟ وعلى ماذا؟ شيماء البهى
التي التؒقت بوظيفة لتدافع عن المظلومين . ما ذنبها وعلى ماذا
تحاسبونها؟ على تلقي أموال؟ على الإضرار بالأمن القومي للوطن؟
أي وطن؟ ذلك الوطن الذى حاولنا أن نغيره ليستولى عليه الآخرون؟
ما الذى ربحناه نحن؟ أيها السادة القضاة؁ العملاء فى كل مكان .
فى أروقة الوزارات يقسمون أنصبتهم من المنح الأجنبية؁ المخايز
تهربّ الدقيق المدعوم؁ المستشفيات تباع الدواء المجاني؁ رؤساء
الأحياء يقبضون مقابل رخص بناء مخالفة . أيها السادة المستشارون؁

كل شيء في هذا الوطن ممول من الخارج. اقتصادنا قائم على شركات متعددة الجنسيات، موازنة الحكومة قائمة على قروض تأتي من الخارج. حتى تلك الانتخابات الديمقراطية النزيهة أنا وأنتم نعرف أنها مولت من الخارج. أيها السادة الكرام، من تحاكمون الآن؟ وبأيّ تهمه؟ هذا الوطن لسنا نحن أعداءه. شيماء حسنين البهي المائلة في قفص الاتهام الآن كانت تقف هناك على سلم نقابة الصحفيين وعلى بعد أمتار من ناديكم الموقر، نادي القضاة، لتهتف ضد الظلم. كانت تُضرب وتُسحل لينتصر الحق. أين هذا الحق الآن؟ على ماذا تحاكموننا؟ تحاكمون جيلاً انتفض في وجه الظلم؟ تحاكمون جيلاً طالبَ بالعدل؟ نعم هذا العدل المعلق ميزانه أعلى رؤوسكم. نحن جيل له ما له وعليه ما عليه. نحن جيل لم يمتلك ناصية الكلام. نعم، لقد خسرنا كل حروب الكلام معكم ولكننا في النهاية سننتصر.

الصندوق

أنا القلق اللانهائي
أنا البث المتواصل
أنا الجهل الكبير
وأنت المتلقي الساذج
أنت الزبون!

«أنا أكذب وأتجمل وأبيعك أي شيء فيّ.. سترتي.. ربطة
عنقي المملة.. ياقة قميصي المبللة بكبح لَغوي في الكذب
طيلة ساعات البث الفضائي.. أبيعك مصطلحاتي الرنانة..
كلماتي الطنانة.. شعاراتي الملتهبة كقولوني من كثرة
المنبهات.. لا وقت لدي للنوم أو للراحة فالمزاد مستعر..
أسهمي بلغت عنان السماء وأنا أبيع كمرابي يهودي جشع..
أبيعك جشعي وخبلي ونظريات مؤامرة.. هذا هو منتجي
المفضل.. سأصنع لك مؤامرات محبوكة حسب المقاس
وحسب الحالة النفسية التي تمرّ بها.. أنت الساذج الذي
يشترى.. تشتري كل ما أبيعك لك بينما أنت جالس على
الأريكة كآلة تلقّي خاوية.. أبيع لك نفسك أيضاً وبخصم

100% وأنت تشتري. أبيع لك نفسي.. وأبيع الوطن.. وأبيع القيم في ذروة المضاربات.. أبيعك الجهل الكبير وأنت تشتري بنهم.. أبيعك السياسة بشعارين .. وأبيعك الدين بتسيبحتين وحديث.. وفي الفواصل أبيعك السمن وجهاز التكييف ولحاف السرير.. التجارة شطارة والخسة إدارة وأنا أمنحك الباكج كاملاً.. طبختة وأنا في الطريق إلى الأستوديو قبل البث بدقائق.. هذه صفتي: قران متمرّس.. سريع في عجن الرغيف للطاير الجائع.. للشعب المستهلك للغو الفارغ بشراهة».

الوطن لم يعد سوى شاشة تلفزيون لا تتوقف عن بث اللغظ. مستطيل صغير يبتلع العمر ويأكل الرؤوس. ذلك التكرار المستمر سيجعلك تؤمن بما لا يمكن تصديقه. ستعاد القصة مئات المرات وستُطرح للمناقشة وستخرج نظريات تلو نظريات وسيحمى وطيس الدراما ستجد نفسك ساعتهما في وسط الحدث وستنحاز إلى الجانب الذي يستهويك. ستصدق كل ما يدور وستبنى الأفكار التي تقف في صفك.

دراما رخيصة وتغطيات مزيفة وجيل من محترفي الدعارة يدفع رواتبهم رجال البيزنس وأموال الإعلانات المستهلكة ليستنزفوا عمرك في هذا المستطيل. يخرجون الواحد تلو الآخر ليغذون في نفسك ذلك الجانب المظلم. كلما أجمّجوا خوفك كلما أصبحت فريسة سهلة الاصطياد.

أنت تشبه الشخص الأحمق الذي صنعه.
أنت وهو تلاكمان في المرأة.

الدرس المتكرر في علم السياسة: لا تصنع من الأحمق خصماً
سياً

هواء! انطلق الهراء يصدق في بث مباشر محشو بفواصل
إعلانات لمنتجات بلا قيمة، منتجات يلقون لها شعارات رنانة
ويقدمونها لك في سياق قضايا إنسانية. نحن نرعى الأطفال، اشتر
منتجنا نحن ندعم المجتمع والقرى الفقيرة، اشتر نحن سبب
الفرحة. نحن سبب القوة. نحن لا نبيع لك مشروباً أو مصاصة
فقط، نحن نبيع لك شعاراً إنسانياً نحن نحمل القضية الإنسانية
والوطنية وصرفنا على الإعلان ملايين لا لغرض تسويقي، بل لكي
تصبح من السعداء. نحن نبيع لك السعادة في زجاجة!

هواء يا سادة، أين الضيف؟ أجلسوه هنا انظر إلى تلك
الكاميرا عندما تتحدث. تفضلي يا آنسة، جاهزين. وضع المعد بين
يدي المذبة ورقة مكتوباً فيها بعض الأسطر على عجلة فأخذت
تطلع فيها، من فيهم من؟ سألت الأول:

- حضرتك أحمد عبد القادر؟

رد شريف سماحة حانقاً

- شريف سماحة مؤسس الحركة والمنسق العام!

اشتبك عبد القادر غاضباً

- على نفسك!

قاطعهم المخرج قائلاً:

- ابقوا اتخنقوا في الحلقة يا أستاذة مش قبلها إنا طالعين

هواء.

ابتسم المخرج لمساعدته وهو يهمس له :

- حلو . شكلنا عندنا حلقة ساخنة الليلة!

وضعوا الغريمين أحدهما أمام الآخر وانطلقت المذيعه بمقدمة رنانة بعد أن فشلت في قراءة الورقة التي كتبها معدّ البرنامج . قررت أن ترتجل وتستخدم مهارتها، رددت كلمة «الثورة» عدة مرات و«نشطاء» و«أهداف الثورة» و«محمد محمود» هذا كل ما يحتاجه الأمر لا يهم الإعداد للحلقة، لا يهم عن ماذا سنتحدث اليوم، لا يهم من هم الضيوف، فليكونوا أي أحد، المهم أن نملاً ثلاث ساعات من البث المباشر الليلة، المهم الإعلانات فلها نسبة شهرية من حصيلة الإعلانات طبقاً للعقد الذي أبرمته مع صاحب المحطة .

عندما صحوت من النوم في الساعة الثانية بعد الظهر هاتفت المعدّ وطلبت منه حلقة ساخنة الليلة . ترك المعد كوب الشاي الذي كان يتجرعه على مقهى البورصة وقرر أن يهاتف الاثنين كان هذا أسهل الخيارات المتاحة في تلك اللحظة . هاتف شريف سماحة :

- شيري . حبيبي . معاك فادي الحلو الصحفي . عاوزينك النهار ده في البرنامج على الهوا الساعة 8 . حلقة هتبقى جامدة عن الوضع السياسي الحالي والمسار الثوري . كل فريق البرنامج طلبوك بالاسم

انتهى من الضيف الأول ثم تحوّل نحو الثاني وكرّر نص الحوار نفسه مع تبديل الأسماء . الموضوع بسيط ولا يستغرق مجهوداً الكل يريد الظهور على الشاشة . تبقى الآن الفقرة الأخيرة من البرنامج ويجب ملؤها . عبث بقائمة الأسماء على هاتفه حتى وجد اسمها .

الراقصة صاحبة القضية الشهيرة. استغرق الأمر معها تملق أكثر
ودفعات من الغزل القبيح حتى تنازلت وقررت الحضور وإلغاء
ارتباطاتها الأخرى البالغة الأهمية!

أغلق الهاتف بعد أن لعنها في سرّه ثم نادى على عامل المقهى
قائلاً:

- شيشة تفاح بسرعة يا ابني. وانا أشغال متلثة.

أتى بالغريمين قبل الهواء بخمس دقائق متعمداً حتى لا يدع لهما
الفرصة. بدأ البث وانطلق الغريمان يمزقان بعضهما بعضاً بينما كان
عاطف في الاستديو المجاور يتحدث عن إنجازات المرحلة وعن
التجربة الديمقراطية الوليدة التي يجب حمايتها

المُسيِّون

«نسير على غير هدى.. ثوارٌ سائرون في بلاد التيه..
أنفسنا تمقتنا وتعشق الأرض.. الأرض عزيزةٌ حتى وإن
نجَّستها الذئاب بلُعبائها النهم... ذات يوم ستطهّر الأرض
دماءنا.. من ذا الذي سيقتلنا من الأرض ونحن التراب المغبر
لطرقاتها؟.. نحن الرابضون على المفارق ونواصي المقاهي في
الليالي.. نحن الجيل الذي خرج من الشقوق الضيقة بعد
ضياح كلّ الفرص.. نبتنا في جوف الزحام والأرق.. نحن
الجيل الذي لا ينام الليل.. نجوب فيه غرباء في أنفسنا
وتائهين في دروب الأرق والإحباط.. مَنْ يأخذنا من هنا ونحن
لونها وطعمها وملحها.. نحن المشبّعون بذلّها.. والمدجّجون
بشكواها.. نحن شكوى الأرض لنفسها.. نحن الجيل الذي
صرخ بصوتها في قلب الميادين والطرقات.. نحن الجيل الذي
أسقط أسوار الخوف وهتف بأوجاع الوطن.. نحن الجيل الذي
هتف ليغيّركم فرفضتم.. أردتم أن تسجنوا الأمل.. خفتم أن
تتغيروا مثلنا.. لم تدخلوا المتاهة مثلنا لتفهموا أننا تغيّرنا
لأننا تحطمتنا ولم نعد كما كنا.. الوطن الذي نريده لا تعرفوه..
الأرض التي نحلم بها لم تراودكم في الأحلام.. سمّوها كما

تريدون.. سموها ثورة بلا قائد.. سموها ربيع.. سموها خراب
ودمار.. لن تغير أسماءكم أحلامنا.. لن تتغير مفاهيمنا لتناسب
فزعكم والهلع المسطور في أعينكم.. الحلم خاننا الآن ولكننا
لا نملك غيره.. سنأتي إليه جيل بعد جيل.. ستنبت الأرض
الهتاف.. سيدبت الشجر شهداء.. ستمطر السماء أحلاماً..
وسنعود مهما طالت الأيام»

أنا الزمان المُعاد

أكمل لعبتك مع الأشياء

لن تكسب ولن تخسر، ستظلّ تدور فقط .

عندما يغرق كلُّ شيءٍ في صراعاتٍ جانبيةٍ فليس أمامك سوى
أن تعود إلى مربع الصفر لا يوجد يمينٌ أو يسار، كلُّ الاتجاهات
تعود بك إلى مربع الصفر سلمى وعرفة ومينا وكريم ودرويش
يتابعون اللقاء على شاشة المقهى الكامن أسفل مقرّ الجبهة وينفثون
غضبهم وخيباتهم في صورة تعليقات فاترة ونقاشات حائرة. من أين
سيبدوون وبمن سيثقون بعد الآن؟ هناك في مكان ما فقدوا إحساسهم
بكلِّ ما اكتسبوه وفقدوا الثقة في كلِّ شيء. شريف سماحة ذلك
الناشط السياسي الذي احتكر الثورة في نفسه يصدح على الهواء
مشهراً أسلحته في وجه عبد القادر. يتفاخر شريف بنشاطه السياسي
قبل الثورة وباعتقاله عدّة مرات، يتحدث كأنه هو الثورة ويزهو
بتكريمه في عدة بلدانٍ كمناضل سياسي عانى من أجل الديمقراطية.
شريف الذي تاجر بثورته منذ اليوم الأول، كلُّ مواقفه الثورية كانت

تحركها تلك الصورة التي صنعها لنفسه في الإعلام. شريف المدافع عن حقوق الإنسان وحقوق الشهداء، كان كلُّ ما يهيمه هو أسطوره الشخصية وفتيات وسط البلد اللاتي يتحلقن حوله في المناسبات والحفلات، كلُّ ما يهيمه هو تسجيل اللقاءات مع مراسلات الصحف الأجنبية وتلقي الدعوات الخاصة من السفارات ومن المنظمات الحقوقية في مدن أوروبا وأميركا أما عبد القادر فظل سياسياً على الورق وثورجيّ تنظيمٍ لم يخرج لأرض الواقع يوماً ترك نفسه لعاطف ليقوده ويغرّر به، خلق له عاطف أشباحاً يصارعها وجرّه هو والجبهة إلى صراعاتٍ وهمية مع الجميع. لعب عاطف بهم جميعاً ليعتلي الأكتاف صعوداً نحو مجده هو. ها هو الآن على القناة الأخرى يدعي أنه من مؤسسي الجبهة وشباب الثورة. عاطف يتقدم وحده، يتمرس أكثر على ملء الواجبة الخاوية، ينتفخ.

المرارة تشق صدر إبراهيم الكومي وهو يتابع عاطف على الشاشة، هذا الخائن الذي اعتلى الأكتاف سيدفع يوماً ما الثمن. تستعر نارُ الجمر التي يعدّها لأحجار الشيشة وهو يتابع عاطف يتكلم على الشاشة الكبيرة المعلقة في قاعة المقهى.

أنا اللافهم

أنا اللاوعي

أنا الجهل عندما يعترف على نفسه!

يلتف كل شيء في المدينة حول السياسة، الكل يتابع الشاشة

ويتصارع مع نفسه. المقاهي تتابع الأحاديث والمنازعات، المحلات تبتث اللقاءات، الكل يتحدث معلقاً عمّا يدور. الديمقراطية لم تعد سوى ذلك النزاع بين كل حشد وغريمه. الديمقراطية تحشد الأغبياء سويّاً وتغلب رأيهم. السياسة تقسّم الشعب وتحشده ضد بعضه. الأفكار صارت غلّ متشعب والتحليلات صارت مسطحة ليتجرعها العامة في كبسولات.

أقرب الأقرباء صار غريماً والصدقات تتهاوى تحت وطأة الخلاف السياسي. كلُّ منهم حارب اليأس في داخله وحارب صديقاً اختلف معه حول الهدف. انعزلوا أمام أنفسهم واستنزفوا في معارك كلامية على مواقع التواصل وداخل البيوت. صاروا هم أعداء الوطن بالرغم من كلِّ ما فقدوه.

المعركة النفسية تطحن الرفاق أكثر من أيّ وقت. على خطّ الزمن والأحداث، يحاربون إحباطاتهم وأنفسهم. تسقط الرموز وتتبدل الوجوه والوطن صار غير قابل للتغيير

«أنفسنا تحتاج إلى الثورة عليها.. نحتاج إلى ثورة على نفسيتنا المريضة الموبوءة بالكراهية والغل والتطرف.. نحن أبناء السبعة آلاف سنة نعاني عدوانية المساحات الضيقة المحتشدين فيها.. الوادي الضيق والفكر الضيق والشعارات الفارغة.. نحن أبناء الفصل المدرسي المزدهم وفناء المدرسة الضيق.. أبناء الفرص الفادحة الثمن كالزواج والشقة.. لم يبقَ في الرصيف موطئ لنا لنمرّ.. لم يبقَ لنا على النيل منفذ لنحب.. لم يتبقَ لنا من هواء العوادم نفحة أكسجين لنعيش.. غرباء أتينا وغرباء سنرحل.. عابرون من ضيق الواقع نحو

حلم الميدان.. اخفق بقلوبنا أيها العلم المرفرف فوق الرؤوس..
نحن موجوعون وغاضبون فلا تتركنا فنبتعد.. نحن نحب فيك
صورتنا الجميلة أمام أنفسنا.. نحب فيك تلك القوة التي
تمنحنا إياها.. بدونك ننهزم أمام أنفسنا ونتوه.. الوطن هو
الحب للأشياء التي أردتم أن نكرهها».

* * *

على هذه الأرض تمضي الحياة غائبة عن الوعي . يمر قادماً من
هنا إلى هناك وتشابه أمامه الأشياء . الفوضى تتلوى في الطرقات
وتطلق في كل صوب أناساً وضجيجاً وصراعات . القاهرة صارت
ساحة قتال ، غابة للصراع من أجل البقاء ، غابة يتربص فيها الخطر
على الدوام .

تصدح الشاشات بمعارك على المقاهي بالصراع المحموم ما بين
سماحة وعبدالقادر وعلى الجانب الآخر يتنمر الملعون وينتشي فرحاً
بانتصاره . ما أسوأ أن تكون طرفاً في حرب لا تريدها ، حرب بلا
جدوى وبلا موازين . ترك ياسين نفسه لزحام الطرقات كورقة تائهة
في مهب ريح هوجاء . على الأرصفة تُباع أسوأ منتجات العالم .
نستهلك الأسوأ بنهم وبلا توقف . بضاعاتنا كأفكارنا ، كلها رخيصة
لا تصلح سوى لسد فراغ خاوي بديكور بلاستيكي ، رخيص وفتح
الألوان ومهلهل . صراع الفضائيات يشبه تلك المنتجات الرخيصة
التي يطالعها على الأرصفة . كل شيء بلاستيكي .

يمضي تائهاً في المدينة المتخمة بالزحام والقلق . القاهرة
صارت وحشاً ضخماً يتخبط في ممرات ضيقة لا تتسع له ، حيوان

هائج فرّ من السلاسل وطاح ينطح في الجدران التي تحاصره كالمجنون. المدينة تضجّ بالهوس، بالزحام، بالسياسة.

ما كلّ هذا الجنون الذي حلّ؟ المدينة تكتسي بلون السياسة العكر السياسة صارت الخبز اليومي وهمهم الدائم. تجوب السياسة طرقات المدينة أكثر من أي وقت مضى. كأننا في زمن الحرب، حرب خفية لا ترى أطرافها ولكنك ترى ضحاياها الشاشات تبتلع الجميع وتلهب الصراع كلّما هدأ الصحف غسيل منشور بين الأيدي يشيع حكايات الأزمات التي تتلاحق لاهثة من كل صوب. الأخبار تسقط فوق المدينة كقطس سيئ يوحل الطرقات ويسدّ الأفق. السياسة احتلّت المشهد بكلّ تفاصيله وصار كل شيء مسيئاً حتى النخاع. الشعب نسي كرة القدم والفن وأخبار المشاهير وحتى أنفسهم وحكاياتهم اليومية وصار يلوك السياسة ويمضغها في كل حديث. كل الحوائط تكسوها شعارات ثورية أو ملصقات انتخابية كل شيء صار أكثر ضجيجاً وأكثر صخباً والسياسة شبح يخيم على فضاء المدينة العشوائية المعالم والمزدحمة التفاصيل والمتصارعة مع بعضها السياسة تفور في المدينة كماء يغلي فوق نيران مستعرة. ماء يغلي بعضه مع بعض وينفث في الأفق بخاراً ضبابياً كثيفاً يحجب الرؤية ويلهب الأبصار.

كل شيء صار مرعباً وكأنّ الخطر يقف على النواصي وعند كلّ الأركان. الأسئلة تعصف بكل شيء والتوقعات تتبجح من كل اتجاه. السياسة تقلب المدينة رأساً على عقب ويختلط في الأسواق وفي الطرقات كلّ الأنباء. الأزمة تتصاعد وتتهاوى في وقت لا يكاد يُذكر والمدينة تصحو وتنام على غزو أخبار ينهمر من سماء ملبدة

بالضباب . المدينة صارت عنيفة أكثر ممّا يُطاق وانقسم الجميع ما بين متشدّدين ومشجعين ومتخوِّفين ومنعزلين والكلّ محموم يسرّ أسلحته لمواجهة أشباحه .

«نحن الذين صنعنا الصراع ونحن الذين لم نعد قادرين على أن نطيقه.. نقدّس ثقافة الغضب في كل شيء.. الدين لدينا غضب وتكفير.. السياسة لدينا غضب واتهامات وجدل.. انظر إلينا.. أنا وهو وهم.. جميعنا كنا هنا في الدائرة التي جمعتنا.. هتفنا واتحدنا وفي الدائرة نفسها دُرنا ثم انقسمنا ثم تأمرنا على أنفسنا ثم هزمتنا أنفسنا وفي النهاية كلُّ منا احتفل بانتصار نفسه على الجميع.. كيف تكون الهزيمة انتصاراً؟.. نحن شعوب الشرق لم نخرج بعد من أزمنة الخرافات وعجائب الأساطير.. تاريخنا دونه في صورة ألف ليلة وليلة.. تاريخ كتب لا لكي يصدق.. بل كي يمحو العقل ويغلب الأسطورة.. لم نعد نعرف متى انتصرنا، ومتى انهزمتنا».

* * *

الدرس المائتان والخمسون في علم السياسة: كان يجب أن تعدو بأقصى طاقاتك حتى تبقى في المكان نفسه . هذا المكان إن توقفت سيبتعد وسيسكنه آخرون .

الساحة تفرغ من الرفقاء ويحتلها آخرون أتوا من كل صوب . الحشود الأخرى تبحث عن نصيبها فيما سيكون . أتوا من كل صوب وحذب ليرفعوا شعاراتهم التي كانوا يختزنونها لعقود . مع الوقت يحتلون كل الأماكن ويعلوا صوتهم وتبتعد أنت . لم يعد هناك موطأ

قدم، حتى هتافك تاه في ضجيج حشودهم. أعدادهم تسد عين الشمس ويتجمعون في المنتصف ويدفعون بك بعيداً على الأطراف فيخبو صوتك ويصير كل ما تقوله حراك على الهامش. لم تعد قضيتهم هي قضيتك. أنت مع الحرية وهم يبحثون عن الثمار التي ستقطف. أتوا من أجلها وجيشوا لها الأعداد. ها هو الشعب يجر الغنيمة المذبوحة إلى مكمنه. ها هم المنتفعون يوفرون الغطاء عاطف وقف يخطب فيهم في الميدان. نال حظه الثمين وصيده الوفير رفوعه عالياً وجعلوه أيقونتهم. الشعارات نفسها التي صنعوها في أيام السحل والضرب ومحاربة الطغيان، سرقتها اللعين وملاً بها فمه الكبير وخاطب العالم بها الشعارات نفسها التي دفعوا من أجلها الثمنَ دماً رصّها اللعين في خُطبه سرقت الشعارات، سرقت الهتافات، سرق البساط من تحت الأقدام.

يضيق المشهد وتتحذب الرؤية. يعلو الشعب ويحتلّ الساحة ويصطفّ خلفه أعداء سابقين وحلفاء حاليين. كم من الوقت سيطول شهر العسل بينكم؟ متى ستشهرن على بعضكم السلاح؟
الدرس الألفان وثلاثة عشر في علم السياسة: لا تستهين بالأغبياء عندما يصيروا مجموعات.

القصر

«أنا القتييل الذي عاد.. الموت يخشاني لأنني لا أتحاشاه.. اقتلني ثانية وسأعود.. اقتلني مراراً ومراراً وسأعود حياً.. أنا القتييل الحي.. أنا الفكرة التي لا تموت».

أشار إلى المجموعة ليتخذوا وضع الاستعداد وأخرج مؤشر الليزر ثم تأكد من أنه يعمل. ربض في الظلام منتظراً هو قادم لا محال. يخشاه كما يخشى كل ما كان ينكره ويهرب من مواجهته. يجلس بين مجموعته الذي اتخذ منهم حراساً يجابه اللحظات التي تنفذ منه. ترتجف دقات قلبه ويخشى طيفاً يهدر من ذاكرته المنسية. يحاول أن يتجاهل مخاوفه ويركز سمعه وبصره على المجموعة التي حوله. يصغي إلى الحلقة التي حوله. إنهم نتاج اتفاق جانبي تم قبل أشهر في فندق الفيرمونت. لقد وعدوه بفريق يدعمه عند الضرورة مقابل مساندته لهم. يتعمق إحساسه بقوته ودهائه رويداً رويداً يقول لنفسه أقوى منهم جميعاً، أنا أكثرهم حيطة ودهاء، لقد حسبت حساب كل شيء ولدي خطة، أما هم فهمج يكرون ويفرون. أتت الرسالة من أحد عيونته التي دسّها داخل الجبهة. البعض قد تحرك بالفعل نحو القصر. أرسل بالردّ مستفسراً عن الأسماء ولكن لم تأت

إجابة لا يهم! لقد أعدّ نفسه وأحاط نفسه بمجموعة منتقاة، ها قد جاءته الفرصة ليقتنص وسط وطيس الصراع.

هو الأسد العنيد

هم الضباع الليلية

وأنا قانون الطبيعة الذي لا يرحم!

عندما يمتلك الآخرون كل الأشياء التي ضحيتَ من أجلها فليس أمامك سوى أن تهلكهم أو تدعهم يهلكونك.

يمضي إبراهيم الكومي نحو القضبان الممتدة في وسط شارع الميرغني متّجهاً نحو حشودهم. تدوي أصوات الطلقات في كل مكان ولكن صوت الكومي الجمهوري يعلو فوق كل شيء: «يا عاااااطف»

يخترق صوت إبراهيم أذنيه، يعرف هذا الصوت جيداً ترتعد أوصاله ويلتصق أكثر بالكتلة الإسمنتية التي اتخذها درعاً يخبئ خلفه. يدوي صوت الكومي ثانية منادياً عليه فينكمش في مكانه أكثر ترواده الهواجس، ماذا لو نجح الكومي في الوصول إليه؟ هذا المجنون لا يخشى شيئاً! ينظر إليه رجاله منتظرين إشارته المتفّقة بفارغ الصبر استجمع قواه وأطلّ من خلف الحاجز مصوّباً ضوء الليزر على صدر الكومي. تبعوا إشارته وصوبوا بنادق الخرطوش تجاه الهدف وأطلقوا دفعات متوالية. الخرطوش المصوّب من مدى بعيد لم يوقف الكومي، بل دفعه للتقدم نحوهم يرفع يديه عالياً ويهتف بأعلى صوته «اظهّر يا جبان!» يدوي صوت الخرطوش ويدوي ولكن الكومي لا يتراجع أصاب عاطف الهلع وأخذ يزق في من حوله «اقتلوه.. اقتلوه»

يعدو أدهم ويعدو بأقصى طاقته نحو مصدر الصوت الذي سمعه مختلطاً بدويّ الطلقات، إنه صوت إبراهيم يدوي هناك. اتّفقا على الذهاب إلى الاتحادية هذا المساء ولكنه لم يلحق به، لقد سبقه إبراهيم. يتملص أدهم من عساكر الأمن المركزي التي شكلت حاجزاً يمنع الثوار من الاقتراب. يرى الكومي هناك على شريط المترو رافعاً يديه ويهتف. يغوص قلبه في صدره ويعدو كطائر الليل الأخير نحو صديقه هناك. تتقدم القناصة من الكومي مصوّبين نحو رأسه ويواصلون إطلاق الأعيرة حتى يسقط على ركبتيه. «لا أحد يقدر على القلب الأسد» يقول أدهم لنفسه وساقه تسابق الريح. كل ذرة في جسده تقول «لا تسقط، لا تتركهم ينتصرون، الأسد لا تأكله الضباع، لا تسقط، لا تسقط». يسقط إبراهيم الكومي على الأرض مغطى بالدماء.

يبكي أدهم ويمزق صراخه عنان السماء وهو يجثو على الأرض. يأخذ رأسه ويضمّه إلى صدره. ترسم على صدر أدهم نقطة ضوء خضراء. يشير عاطف نحو أدهم فيبدأ رجاله بالتصويب. تدوي السماء فجأة وتمطر قنابل مولوتوف لا نهاية لعددها ينتشر الدخان فوق الرؤوس ويظهر طه الغريب. يطلق قنبلة المولوتوف التي في يده نحو حشودهم قبل أن يقترب من جسد الكومي ويمدّ يده. يرفع الكومي كفه نحو طه الغريب فيقبض عليها. يميل الكومي برأسه نحو أدهم ويطلّ في عينيه. يبتسم ابتسامته الأخيرة ويغمض عينيه. يحمله الاثنان على أكتفاهم ويخرجون

الرفاق

«أحذر خيانة الحلم»

هكذا قال شاهد القبر الذي ضمّ الفتى الشجاع الذي لم يَهَب الموت يوماً ما ولم يخشَ جبروت الأعداء. هناك في قلب الحزن يرسم المشهد من خيال مرتجف. أسمع ضرب النار؟ الطلقات تتطاير هناك. أترى المتساقطون؟ الدماء تسقط على الأرصفة هنا لقد سقط قلب الأسد على يد الثعلب.

«احذر خيانة الحلم»

هكذا قال الصندوق الذي انفتح فوجد فيه قلب مطعون ينزف المذكرات الفاضحة التي عرّت الأشياء أمامه، كل شيء كان قد تبدل أمامه في لحظة وللأبد. هو في القصة أحياناً فكرة أو حلمٌ يمشي على قدمين. القصة كانت هو، وكانت هم، وكانت نفسها تفرقوا في دروبها وتلاقوا وحكت عنهم جميعاً كانوا كلهم ملء الحضور عندما تلاقوا فيه وتلاقوا مع أنفسهم.

ذات مساء روت القصة نفسها عندما أطلت في المرأة، كشفت نفسها بنفسها وأخرجت ما اختزنته. الغائبون يطلون عليه من قلب الأحزان. الغياب يصفع الحاضر بمواجهة مؤجلة، يعرّيه أمام نفسه

ليرى أين يقف، يحفر له ذاكرته ويُعيد القصة إلى البدايات .

تنتهي القصص عندما لا تجد من يصدّقها، ولا تنتهي القصص التي تظلّ تُحكى وتعبّر عبر الأخيطة والأزمان، تلك القصة كانت تُروى كثيراً هنا وهناك . كانت تخلق منها قصصاً صغيرة وقصصاً كبيرة وهوامش، وفي كلّ مرة كانت تُحرّف وتنقص وتزيد حتى صارت أحياناً قصة أخرى لأحداث أخرى لأشخاص آخرون . القصة كانت كثيراً ما تمشي بعيداً حتى إنها تنصّلت من أصحابها ولم يعودوا موجودين فيها . ربما عندما كان هم أنفسهم يحكونها كانوا يخشون منها، وفي أحيان أخرى خافوا أن تطأهم وتقتلهم في غمار أحداثها، أو أن تنتهي بهم في زمن لم يروه في أحلامهم . خافوا أن يتوهوا في غياهب اليأس فيخرجون في النهاية بلا قصة . كثيرون شوهوا القصة وكثيرون لم يقرّوا حتى بحدوثها ولكن رغم كل ذلك القصة لم تنته فقد بقيت لأنها حكّت الكثيرون فحكوها وظلّوا يحكونها حتى لأنفسهم عندما لم يكن أحد هناك ليستمع

مَن منا يعرف طيلة الوقت إلى أين يمضي؟ وأي طريق فيه الخلاص؟ مَن منا يعرف الإجابة الكاملة؟ ومن منا كان يعرف أين يكمن السؤال الحقيقي؟ من منا الذي يفهم البدايات أو النهايات وهو في منتصف الحدث وفي منتصف الطريق؟ القصة نصفها أحلام ونصفها حقائق . الحلم يكمل فيها الجزء الناقص حتى لا يظل ناقصاً والحقيقة تمضي بأحمالها كطريق لا يدل على وجهة أو نهاية . من منا الذي يتبع الحلم حتى النهاية؟ ومن منا الذي يخاف عاقبة الأمور؟ في كل مساء تنام لتسأل ماذا يحمل الغد؟ وفي كل صباح تسأل ما كل هذا الذي كان يدور حولنا بالأمس؟ كل المشاهد تختلط في

رأسك ففتوه المعالم وتبقى وحيداً هو كان وحيداً، وحيداً جداً وكلما اقترب كان يبتعد. ظنّ أن القصة كانت قصته حتى دخلها آخرون ومضى يمر من بينهم. بعضهم كانوا حوائط تسدّ الطريق وبعضهم الآخر كانوا أبواباً نحو دروب أخرى.

مضى معهم ومضوا به بين أحلام وانكسارات وبقي الزمن غريباً يمرّ ولا يمر كانوا معه هنا وبقوا حتى عندما غابوا في الدروب. عندما أطلّ على ذاكرته تحدثوا إليه، أشاروا، تجمعوا في الدائرة وهتفوا، شاركوه الرغيف والشاي، شاركوه الحلم عندما كان طريق الحلم مغلق الأبواب. هؤلاء هم الفرقاء الذين تجمعوا هنا وتركوا آثارهم على الحوائط والأرصفة والأحداث. لقد كانوا حقيقة هنا على تلك الأرض ثم بقيت القصة في مهبّ الريح. ذاكرته الوحيدة تقف ما بين حافة التذكّر والنسيان. خاف أن ينسى فتألم وخاف أن يتذكر فيتوه.

يقف أمام شاهد القبر النبات وسط الظلام. هنا ابتلعت الأرض صديقاً آخر مَنْ منهم تبع مَنْ؟ ومن القادم؟ بكى الناجي، بكى الكومي وبكى الآخرون المجهولون. خرج هاتف من قرار بعيد في نفسه ليقول «افتح طريقاً جديداً للقادمين سيأتون ذات يوم». في تلك الليلة أيقن ياسين السحرتي أن عليه أن يبدأ من مكان ما أيقن أن القصة لا يجب أن تنتهي هنا وأن لا تمضي هكذا

اللعبة

أنا اللاحل

أنا الغضب الذي يأكلك

وأنت الشفرة.

لا القرد يهدأ ولا الأرض تستقر

يخرج من مكمنه ويلحق به يضرب بقوة في الأرض. يخرق بقبضته جبين الأفق. يقفز في لمح البصر كلاهما يراقبان بعضهما بعضاً من كثب، يدوران حول مركز الدائرة متواجهين، كل منهما يتأهب للانقضاض. لا نوماً ولا هدنة. صراعه مع ذاته يدوي بقوة، يطرق كل أبوابه بلا مجيب. ينبت في جوفه الغضب وينتشر كحشائش البحر على مرفأ مهجور.

يصرخ المارد بداخله ويضرب كفيه برأسه وبالأرض وبالحوائط. يكشّر عن أنيابه ويقفز بجنون. مسجوننا في داخله يريد الخروج، يريد أن ينطلق مدمراً كلّ ما في طريقه. فجأة يهدأ ويقف أمامه وعيناه تتسعان: غاضباً، وشرساً ومجنوناً يتواجهان، كلّ منهما يخشى الآخر والمعركة على وشك الانطلاق في أيّ وقت!

أمضى الأيام والشهور يشقّره في ألوف من سطور البرمجة.

يرسم له الطرقات ثلاثية الأبعاد، المباني والمنافذ. خَطَّط له معاركه الافتراضية وطوّر مواهبه. دَجَّجه بالحلول وحصَّنه من كل شيء سيقف في طريقه يوماً ما يقسمه ويطرحة ويضربه في ذاته ليكون غير قابل للاختراق.

بداياته الغامضة تكوَّنت قبل ذلك ببضعة شهور، حدث هذا في اليوم الذي قرَّر أن يمحو هويته وينضم إلى الأنيمونس. محا كلَّ ما يدلُّ عليه والتحق بمنصَّتهم وقَدَّم نفسه لمجموعة «أوب نيو بلود». أول هجمة شارك فيها بصورة رسمية كانت العملية الشهيرة «أوب إسرائيل». منذ ذلك الحين تحول إلى شبح. انقطعت علاقته بالعالم من حوله وصار مجهولاً يجوب كأنيمنونس في دروب الشبكة اللامتناهية تحت رمز مستعار. يدمن المبادئ التي يتبنونها، يشاركهم هجماتهم ويضرب معهم في توقيت واحد. تتساقط المواقع بضربات «البوت» المتلاحقة. يلجون الخوادم وينشرون الملفات السرية. يفضحون الشركات ويكشفون الخبايا

في كل ليلة يغوص أكثر في شبكات سرية لرفقاء جدد منتشرين حول العالم.

اثنان من المراهقين السويديين علّماه كيفية النفاذ عبر الأبواب الخلفية للخوادم وتطبيقات الهواتف. ساعده ثلاثة من المطورين اليابانيين في السوم ثلاثية الأبعاد. قراصنة روس أمدوه بطرق حماية مبتكرة ولوغاريتيمات معقدة. انتشر اسمه الحركي بعد أن أسس مجموعة سرية أطلق عليها «جامينج أتاك» نجحت تلك المجموعة في اختراق ثلاث ألعاب إلكترونية كبرى. انشغلت المجموعة بالعبث

في أرقام النتائج المسجلة بينما هو استغلّ الفرصة في اكتشاف الشفرات الخاصة بتصميمات الألعاب. لقد تعلم جيداً كيف يخفي أغراضه داخل أهداف أخرى. لقد تعلمها من السياسة.

أمضى الليالي الطويلة يطوّر في اللوغاريتمات المتشابكة. يحسب حساب كل الأشياء المحتملة ويدرجها في قلعة حصينة من الشفرات. كان عليه أن يحصن القرد ضد العالم. قرّر أن لا يُخرجه إلى العالم قبل أن يحميه. يطوّر وسائل القرد، يبني له عالمه. يهندس له أسطوره. يحصنه ويسلحه بخطط المواجهة. بعد عامين فرغ من الخيوط التي تتشابك وترسم مسار المارد. كل لوغاريتم يُضاف يقويه ويحصنه كل مرحلة يهندسها ويضيف إليها تحديات متوقعة. يطوّر العلاقات بين الأشياء ويضع نفسه في قلب المعركة. من هنا يأتي الغاز ومن هناك يلتفون. إن تلك المعركة يحفظها عن ظهر قلب. لقد كان هناك في كلّ مرة.

ذات مساء خرج إليه المارد الغاضب الذي سجنه في داخله. يريد أن يتحرّر من سطوة القيود، يريد أن ينتقم لنفسه من الجميع يصرخ القرد نائراً يضرب بقبضته الجدران فيخرقها يقفز فوق كل شيء ويصرخ فيه بجنون. يريد أن ينطلق من سجنه. أيقن أنه عليه الآن أن يُطلق سراح القرد. هبط من سريره وفتح اللعبة. يعرف أنه الآن ذاهب إلى أبعد مدى. تطلّع نحو الصورة الموضوعية في برواز صغير على المكتب. قرر أن يضع الاسم في اللعبة ثم كتب رسالته الأولى كنداء أطلقه في الفضاء الواسع. حمل الشعار وضغط زر الإرسال. ارتدى سترته وهبط قاصداً حافة الجبل. هناك وقف تحت سماء المدينة الحزينة يتطلع إلى العالم.

الرسالة الأولى انطلقت ذات ليلة من مكان غير معلوم وفي غضون أيام انتشرت كالإعصار وتداولها مئات الألوف. يظهر القرد ليتلو تعويذته الأولى الخالدة:

«أنت القرد الأحمر

كل منا قرد أحمر

كل قرد أحمر قائد

القرد الأحمر هو رئيس جمهورية نفسه

انضم إلى القبضة الكبرى وقم بتحميل اللعبة»

لم يمر أسبوع حتى تمّ تحميل التطبيق من قبل مئات الألوف. انتشرت اللعبة بسرعة البرق وصارت حديث الجميع تكتسي الشاشات باللون الأحمر القاني ويبدأ تحميل شعار القرد مع موسيقى مارشات حماسية تحبس الأنفاس. الكل في انتظار القرد الأحمر اللعبة فرضت نفسها على الفضاء الإلكتروني في زمن قياسي وأدمنها كل من لعبها

القرء

3

القرد الأحمر

أنا القرد الأحمر

انس كلّ ما مضى

انس كل ما كنت تعرفه

نحن الدولة الجديدة

اجمعوا كل شيء تعرفونه وتعلّمتموه واضربوه في ألف . نحن هذا الرقم

اضرب خوفك في ألف . أنا هذا الفرع

اضرب ضياعك في ألف . أنا هذا الزمن

اضرب عقدتك في ألف . أنا هذا الألم

أنا القرد الأحمر

أعلن تأسيس الجمهورية الجديدة

اجمع كل نخبك السياسية . اجمع كل مؤسساتك وأجهزتك

البوليسية . اجمع حشودك وإعلامك وكل قوتك الضاربة واضربها

في ألف . وستنهزم .

لقد سيطرنا على كلّ المنافذ وأقمنا المتاريس وانتصرنا في حرب

شوارع . لقد علقنا المشانق لنعلّق عليها كل من يمر من هنا . . لقد

نزعنا الأبيض والأسود من العلم وذبحنا النسر الغيبي ورفعنا القرد

ليعلو فوق الجميع . ليسود .

القرد الأحمر الآن هو الملك .

كل قرد أحمر يموت يظهر مكانه ألف قرد أحمر

نحن سلالة لا تنقرض .

اضرب كل شيء في ألف . نحن هذا الكمّ المجنون

نحن قادمون .

* * *

أيها الواقف هناك محاولاً التشبُّث بآخر ما تبقى في رأسك .

مرحباً بك !

أنت الآن في العام 2017 والقاعدة الوحيدة هي : أنت لم تُعد

تملك الحق في أن تكون نفسك . كنْ تحت رحمة العالم من حولك .

هنا حافة العالم المتداعي ، تصدع الأشياء من حولك وتسقط .

تتهاوى الأركان التي سكنت المكان وتكسو أنقاضها طبقات من

الرماد الأسود . يزحف الخراب مكتسحاً الأرصفة ويعتلي

الواجهات . يهوي الضباب الرمادي فوق المدينة ويسدّ الأفق . الهواء

صار مسموماً حتى آخر زفرة تستشري رائحة الحرائق والغاز .

الطرقات تقبع تحت رحمة الخطر المتوالي القادم من صوب محوم .

البنائيات تطلّ خاوية بعد أن أكلتها النيران . ظلال الأسود والرمادي

تخطّ كلّ ما حولك وكأنك في قلب مدينة رسمت بأقلام من فحم .

كم تريد أن تغمض عينيك وتصحو في مكان آخر أينما التفتّ

حولك ستجد معالم الأشياء تشتبك مع نفسها وتستعر ثم تأكل نفسها حتى النهاية. أنت هنا وحدك تحت رحمة العالم المتداعي.

أنت أيها الأخير، تلك هي مدينتك العملاقة تنهار فوقك. هنا يدير الوقت عجلاته نحو فوهة المجهول بجنون. كل شيء كان يحدث في اللحظة نفسها لا تفتش عن الزمن الآن! إنه كان يعدو ولم ينتظر أحداً ولم يترك لك علامات لتفهم متى وكيف تغيّر كل شيء. قد تكون قد أتيت متأخراً!

المعركة العظمى كانت قد بدأت مع الذكرى السابعة للثورة. عند ذلك المساء الموعود وفي الخامس والعشرين من كانون الثاني/يناير، انفتحت أبواب الجحيم من كل صوب. خرجت ألوف من المقنعين لتضرب الطرقات بعنف. الحرائق تأكل أحياء كاملة وتستعر بلا انتهاء. الجميع يعدو في كل صوب والمدينة تختنق تحت ضباب دخان كثيف. هذه المرة لم ينذرهم أحد بما هو قادم. هذه المرة وجدوا أنفسهم في قلب المعركة المجهولة. تعملق الخوف قادماً من مكانه.

في قلب العاصمة استمرت المعركة لساعات طويلة أعنف معركة شهدتها المدينة منذ انطلاق الثورة الأولى قبل سبع سنوات. في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي كانت الحرائق قد أتت على وسط المدينة وتحولت مبانيها إلى أطلال قاتمة وخرائب. سيطرت جحافل القرد وأحكمت قبضتها وفرت قوات الشرطة تاركة مواقعها

الصيحات تدوي والطبول تدقّ وأعلامهم العملاقة تخفق في

الميادين، القرد يطوف في الطرقات وحده. عملاق يدك الأرض أينما ذهب ولا يتركها حتى تسلّم. الأحياء سقطت في قبضتهم كما تتساقط القوارب الجانحة تحت طغيان المد العاتي. قرب ميدان العباسية مدّ سياج فاصل من السلك الشائك يفصل ضواحي مصر الجديدة ومدينة نصر عن القادمين من وسط المدينة. عند مفارق صلاح سالم تكتّلت الحراسات وأطلق على المفرق اسم الممر المحروق على خريطة اللعبة لأنهم فشلوا في اختراقه. في الليلة التالية أكلوا في جوفهم المزيد من أحياء القاهرة والجيزة. لم تتبقّ سوى مناطق قليلة متفرقة في العاصمة التحمت فيها اللجان الشعبية مع قوات نظامية وظلت صامدة تقاوم هجماتهم الليلية المتوالية. شاعت في اليوم التالي الأخبار القادمة من كل صوب، المحلة والسويس والمنصورة والإسكندرية رفعوا شعار القرد الأحمر القرود احتلوا الميادين الكبرى وقطعوا الطرقات. الأخبار تبثّ متضاربة من كل مكان. كل شيء كان يحدث بسرعة جنونية حتى أن الكثيرين اعتقدوا بأنّ كل ما يحدث هو حلم خيالي الفزع استشرى عندما تيقنوا أن ما يحدث على الأرض كان أكبر من كل شيء رأوه أو شاهدوه من قبل الرعب يستشري ولا شيء يوقفه. الخوف يتوغل كالسحر ويسمم الجميع. يرتعدون في أماكنهم خلف الجدران والنوافذ الموصدة بينما تضحج الشوارع بصيحات القرد الأحمر ودوي جحافله في أواخر الليل

هل حدث كل شيء فجأة أم أنه كان يحدث ويتشكل منذ زمن؟ لا أحد يعلم! كانوا يتابعون شاشات التلفزيون في المساء تذيع أخباراً متفرقة عن هجمات القرد الأحمر حتى انقطع البث فجأة. دقائق

معدودة مرت كالدهر قبل أن يظهر قناع كبير على الشاشة ليذيع

بصوت معدني أجش بيان القرد الأحمر

«نحن القرد الأحمر

نحن الغاضبون

من القمع والذل والخيانة

نحن القرد الأحمر

نحن كلنا واحد

أتينا من أجل هدف واحد

الحرية

المجد للثورة. المجد للشهداء»

في الخلفية يظهر بث حي لبرج القاهرة يكسوه من أعلى إلى أسفل علم أحمر عملاق، أكبر علم ستراه في حياتك، علم القرد الأحمر الرهيب.

دقائق قليلة أخرى مضت قبل أن يبثوا مقاطع فيديو على الشاشات والمواقع الإلكترونية يتم تصويرها من قبل فرق القرد الأحمر الفيديو يصور الهجوم الذي لا يصدق. كيف طوقت ألوف من القرد الأحمر مباني البث الفضائي؟ كيف اجتاحتها في التوقيت نفسه؟ الحشود تخرج من كل مكان. أعدادهم اللانهائية تحيط بمبنى ماسبيرو وتزحف إلى أعلى. يتسلقون جدران المبنى كالعناكب، يعتلون أجهزة التكييف والنوافذ. تمتد الحبال من أعلى ويلحق بهم

المئات حتى اكتسى المبنى من الخارج بأجساد القروء. دقائق وتضاء
سما الليل بالشمايخ والألعاب النارية. تفرد الأعلام، يكسو
الأحمر المبنى من الخارج وتذق طبول القرد الأحمر وتهتف
جحافلهم بصيحات النصر مدوية.

تحولت كل القنوات التلفزيونية إلى بثّ شريط طويل من صور
الشهداء وأسمائهم. يعرضون مشاهد فيديو لوقائع قتل الشهداء الذين
سقطوا ضحايا على مرّ السنوات. ينقطع البث بعدها للحظات ثم
تأتي صور حية من داخل اللعبة ترصد المناطق الجديدة المحررة
وأعلامهم تخفق في الطرقات. ظلوا على مدار الساعة يبثون
شعاراتهم وصور الشهداء وأغاني ثورية. لقد سيطروا على القمر
الصناعي وكل ترددات البث. ضجت موجات الراديو وقنوات
التلفزيون بأغانيهم الصاخبة. مئات من أغاني الراب الشعبية عن
الثورة تهدر عبر الأثير بلا انتهاء.

انتقلت بعض المحطات الخاصة لتبث برامجها من الخارج عبر
أقمار صناعية عربية. كل ساعات البث امتلأت بصور الرعب
والحرائق التي نشبت. وكالات الأنباء نقلت أخباراً متضاربة
وتحليلات على الهواء عن الوضع الحالي في البلد. كل النظريات
بدت متضاربة ومبهمة عن حقيقة القرد الأحمر

المرافق انقطعت في عدة أحياء وبدأت رحلات نزوح جماعي
نحو الريف ومدن الساحل. بعضهم خاف مغادرة المناطق التي
يقطنها وخاف حتى من الخروج إلى الشوارع الرئيسة حيث ما زالت
المعارك مستمرة في الليل. الطرقات السريعة والكباري داخل المدن

صارت مقفرة، لا تحوي شيئاً سوى ألوف من السيارات المهشمة وأكوام من الحجارة. الشعارات الحمراء تلتطخ كل شيء، أينما التفتت ستجد قرداً أحمر مرسوماً، يطل عليك ويراقبك.

أوصدوا النوافذ بإحكام خوفاً كانوا يشاهدون القرود المقنعة وهي تتسلق الأبنية. ينتشرون أفقياً ورأسياً ويخترقون كل ما يقف في طريقهم. يصعدون الواجهات ويحتلون الأسطح. لا تعرف من أي جهة هم قادمون؟ يباغتون بحشود مفاجئة دون سابق إنذار. يتصدرون شاشات التلفزيون، يذيعون من محطات الراديو، يطبقون على الشوارع الكبرى، يلطّخون الجدران أينما ذهبوا

لا شيء يوقفهم، إعصار يتحرك ليكتسح. القرود تقفز، تخترق وتطبق قبضتها قبل أن يفهم أحد ما الذي يحدث. قبل أن تهب واقفاً من مقعدك على صوت صرخة. قبل أن يرتد إليك حدثك ويُنبئك بما يجري، كان هناك قرد أحمر يقفز فوقك ويرديك أرضاً، ثم يتم تحميل الموقع بالمئات والألوف وتنطلق الصيحات.

الربع يجتاح الشعب كالحمي والخوف يرديهم قتلى قبل أن يموتوا لا حديث لهم سوى عن القرد الأحمر من هم هؤلاء؟ من أين أتوا بالملايين وسدّوا عين الشمس؟ كيف انفجرت الأرض وأطلقتهم صوب كل طريق ومبنى وحجر؟

يقولون إنه ظهر قرد أحمر في كل بيت، في كل أسرة قفز واحد على الأقل، قفز إلى الخارج وترك البيت وصار قرداً أحمر كل هؤلاء الذين أدمنوا اللعبة لسنوات لبوا النداء وخرجوا مقنّعين إلى الطرقات. أعداد هائلة خرجت من كل حي ومدينة ولم يعرف أحد

شيئاً عنهم. كل بيت يحن إلى فقيد صار قرداً، وكل بيت يخاف مليون قرد آخر، مقنَّعين في الطرقات.

كيف بدأ الأمر؟ كيف صار أبناؤهم قروداً؟ لم يكن أحد يتخيل أن يحدث كل هذا حتى في أحلك كوابيسهم لم يروا هذا قادماً لم يروا المجهول وهو قادم ليجتاح.

«أنا أعرف القرد الأحمر.. أنا رأيته قادماً منذ سنوات.. كان يتشكل هناك قي قلب الأزمة.. القرد الأحمر هو جندي المعركة الذي وجد نفسه وحيداً وسط المأساة.. أنا أعرف القرد الأحمر.. أنا الذي تركته وحده ورحلت.. أنا الذي دفعته إلى المعركة ورحلت.. هناك عرف بأن الأقنعة سقطت وأن كل قياداته باعوه بلا حلّ.. تركوه لسنوات بلا حلّ على خط الجبهة يحارب وحيداً... فقرر أن ينتقم من الجميع.. ارتدى قناعه لينتقم.. قرّر أن يحرق أرض المعركة بكل من عليها».

* * *

أنا يناير العنيد

أنا المضاد للجميع.

تطوق الدولة المترنحة المدن بالقوات من الخارج بينما يعيث القرد في طرقاتها وأحيائها كالملك المتوج. تفرد جيوش القرد راياتها وتطلق استعراضاتها في الطرقات الكبرى. تدقّ طبولهم العملاقة فترجّ الأبنية. تعلق الحناجر بالصيحات والهتاف. تتقدمهم ألوف من الدراجات البخارية تستعرض. تتبعها صفوف لا نهائية تسير في موكب مهيب. يرفعون أعلامهم العملاقة في السماء ويترنح العالم تحت أقدامهم.

أتعرف الخوف؟ لا ، ليس خوفك القديم من ما يحمله الغد .
لا ، ليس ضالَّتكَ أمام القدر عندما يأتي بما لا تطيق . لا ، ليس
خوفك من كل ما كنت تهرب من مواجهته . إنه خوف آخر إنه خوف
جديد . خوفٌ يحوّل كل الأشياء التي كنت تعرفها إلى خطر مبهم .
حتى أفكارك الكامنة في رأسك ، صارت مرعبة . صارت تشبه العالم
من حولك . صرت تخاف حتى من نفسك . لم تكن تعلم كيف
تحوّلت هكذا ولكنه الزمن كان يسحبك تحت مدّه الطاغي كان
يفتّت كل قناعتك ويسكن مكانها الهذيان والهلاوس . الآن لم تُعد
تعرف هل أنت موهوم أم واعٍ؟ لم تُعد قادراً على تمييز الحقيقة من
الخيال . تسير كالمحموم ما بين ذاتك وظلك ورأسك تدور في
دوامات تجرّك نحو هاوية بلا قرار

السبع سنوات الضائعة أكلت الرؤوس . ثورة تلو ثورة وصراع
تلو صراع وأنت في الخضم . لم تُعد تعرف أين بدأت؟ وإلى أين
كنت تمضي؟ طيلة الوقت كنت تلجأ إلى فكرة أو قناعة ما تحميك
من كلّ ما يدور من حولك . كنت تظنّ أنك ستنجو من الطوفان .
الآن خانتك كلّ أفكارك . لم يُعد هناك حجر تستطيع أن تختبئ
خلفه . الآن تسقط أمامك كل البروج الحصينة التي بنيتها في رأسك
كأنها قصور من الرمال . الآن والآن فقط ، ستسقط أوهامك أمام
الثورة القاضية التي ولدت من رحم الثورات الفاشلة . كل شيء
انقلب على نفسه وصار مضاداً للجميع . الطعنة الكبرى في القلب
مباشرة ودون مقدمات هي الترياق الشافي للتاريخ المتأرجح . السبع
سنوات خلقوا المارد الذي خرج الآن إلى المعركة .

أنا الرأس المطل من نهاية الزمن

أنا البديهي اللامعقول.

أنت أيها الواقف هناك تتابع ما يحدث، كل نظرياتك فاشلة! كل تحليلاتك لما يجري ليست سوى أوهام. كل مخاوفك لا تنتج سوى ضياع كبير يبتلع كل هواجسك القديمة. لا أحد يعرف القرد الأحمر ولم يكن هناك أحد يعلم بوجوده. المفاجأة، أنه بدأ كلعبة في الفضاء الافتراضي، لعبة احتلت ساحات الإنترنت وخرجت منها تلك الجيوش التي تراها أمامك على أرض الواقع.

كل النظريات لم تُعد تخدم أصحابها كلّ الأفكار المتداولة عن وجود تنظيم كبير خارجي أو داخلي، كلها هراء. كل نظريات المؤامرة عن كيفية تشكل القرد الأحمر ليست سوى ضجيج فارغ كل النظريات والتحليلات وقفت مذهولة أمام دولة القرد الأحمر وهي تتقدم وتسيطر وترفع راياتها الحمراء.

جاري تحديد الهدف. ها هي نقطة لهب على الخريطة ترسل إشارتها على شاشات الهواتف. تتحرك النقاط السوداء الصغيرة تجاه اللهب الأحمر كجيوش من النمل تتجمع فوق الضحية. تبدأ الإحداثيات في الوضوح وترسم المسارات والمنافذ ثم ينقضون. الرسائل تومض آتية من النقطة الحمراء «أحتاج حياة». يرسلون رسائلهم وهم يتحركون «جاري تحميل أسلحة جديدة». كل نقطة لهب حمراء يقوم بتحديد لها أحدهم ثم تجتذب الباقيين. فرق التسلق تومض بعلامة السلم. فرق الإسعافات تومض بشعار هلال أحمر

فرق السيطرة الإلكترونية تومض بشعار الكمبيوتر فرق الدعم الهندسي تومض بشعار المثلث. فرق الحراسة والتأمين تومض بشعار القبضة. فرق النقل والإمدادات تومض بشعار الدراجة البخارية. كانت هناك فرقة واحدة تومض بشعار القرد، هم الذين سجلوا أعلى نقاط. هؤلاء هم مَنْ حصلوا على المكانة السامية وأصبحوا قرداً كبيراً

الليل هو مملكتهم الأثيرة. يتحركون تحت جناحه ويضربون الطرقات المقطوعة ويسقطون أهدافهم الواحد تلو الآخر لا تعرف متى يتحركون، ولا كيف يباغتون، يناوشون في الصباح ولكن ما أن يهبط الليل حتى تنفتح أبواب الجحيم ويطبّقون كالكماشة بأعداد جراحة لا قبل لأحد بها

الشرطة غادرت العاصمة في غضون ساعات قليلة بعد خسائر فادحة ألحقتها بهم جحافل القرد الأحمر تمرّسهم طيلة السنوات السابقة وخبرتهم في مواجهة المسيرات والتجمعات لم تسعفهم في اللعب مع اللعبة. القرد الأحمر أغرقوا قوات الشرطة في مياه المجاري. فرق القرد الأحمر استخدمت أطناناً من الرمال والحجارة لتسدّ أنابيب المجاري عند مفارق الطرق. وجّهوا المياه ناحية الطرقات التي تهاجمهم منها قوات الشرطة. ما أن يحتلوا ميداناً حتى يفتحوا بالوعات وبالوعات الطرق المؤدية إليه ويلقون فيها أطناناً من الرمال فتنفجر مياه المجاري مغرقةً محيط المكان. في الطرقات السريعة والمفتوحة كانوا يكسرون خطوط الماء الكبرى فتنهار الطرقات وتهاوى البنايات على الجانبين ويصبح من المستحيل المرور. الأحياء صارت جزراً معزولة والتنقل داخل المدينة صار

محفوظاً بالمخاطر لم يكن لديهم أسلحة ولكن كانت لديهم خطط لكل شيء يريدون فعله .

القوات تطوق المدن من الخارج وترسم حدوداً فاصلة بينهم وبين مناطق القرد. لم يستطيعوا التقدم في مواجهة جحافل القرود التي قدّر عددها بمئات الآلاف. أرسلوا وسائط للتفاوض ولكن لم يكن أحد هناك ليتفاوضوا معه. لم يكن أحد يعلم بعد أن القرد الأحمر ليس له من تنظيم سياسي أو قادة أو حتى ممثلين عنه. أرسلوا التحذيرات لشوار القرد الأحمر بالانسحاب من المياني السيادية ووسط المدينة ولكن اللعبة كانت تواصل بلا رادع. القوات ترابض حول المدن والمنشآت العسكرية ولا تتقدم، أبقوا على مسافة فاصلة بينهم وبينه. مذبحه الجامعة التي حدثت منذ شهور ما زالت ماثلة في الأذهان وتميل بالكفة نحو حلّ آخر سلمي. انتظروا حلول سياسية للأزمة. كلما تمّ الإعلان عن تغيير سياسي وخريطة طريق جديدة أرسلوا إلى القرد مطالبينه بالتوقف ولكنهم لم يتلقوا ردّاً أسقطوا الحكومة وتمّ الإعلان عن تعديلات دستورية ولكن القرد لا يستجيب لشيء. يجتاح مناطق جديدة ويطبق على الطرقات ثم يقيم المتاريس ويوسع زمام حدوده. لم يكن أحد يفهم بعد أنهم ماضون بلا عودة. لم يكن أحد يعلم ما هم عازمون عليه. لقد أعلنوها في بيانهم الأول، أنهم يقيمون دولة. إنهم يدفنون رفاة دولة ويقيمون على أنقاضها دولة أخرى، إنهم قادمون بلا انتهاء، من أطراف الأرض وشقوق الجدران. سيواصلون حتى النهاية، حتى يسقط آخر ركن من الماضي

ألوية القرد الأحمر لا تعرف تنظيماً، جيوشه الجرارة لا تعرف

تعليمات أو قيادات. لا يتبعون شيئاً سوى اللعبة. كل منهم كان قرداً وكل قرد كان يتحرك داخل حدود اللعبة. اللعبة هي الدولة الجديدة وهي المتحكمة في كل شيء. اللعبة تتيح لك السيطرة. تمكّنك من اختيار أهدافك ومن تجميع الآخرين. اللعبة هستيرية التفاصيل والأحداث، تقودك من مرحلة إلى أخرى ومن عملية إلى أخرى بلا انتهاء. كل مساء يطالعون شاشات هواتفهم بشغف منتظرين كرات اللهب التي تشتعل على الخريطة ثم ينطلقون صوب الهدف. عندما يطل الصباح كانوا يشاهدون انتصاراتهم على الخريطة. ينتشون بتقدّمهم واتساع الرقعة الحمراء. لم يعد هناك أحد قادر على إيقافهم.

الكل تراجع أمام جيوشهم الجرارة وأعدادهم اللانهائية التي تجوب الطرقات. الكل خاف من مواجهة القرد الأحمر المقتنعون كانوا فيهم أبنائهم وأخوتهم. آلاف من الشباب نزلوا إلى الطرقات مع النداء الذي انطلق في صباح ذكرى الثورة. القرد الأحمر كان هوسهم الأكبر تلك اللعبة التي انتشرت بينهم منذ سنتين وتمّ تحميل ثلاثة ملايين نسخة منها، شكلت جيلاً وغيرت مفاهيمه. أدمنوها وأفنوا أوقاتهم في غياهبها أتاحت لهم كل ما كانوا يبحثون عنه أتت بالعالم إليهم ليتلاعبوا به. يخلقون فيها كل ما يريدونه وأكثر ما أن تبدأ في اللعب حتى تملكك وتلهب حواسك دافعة بك من مرحلة إلى أخرى. في كل مرة فاجأتهم اللعبة بمرحلة جديدة وتحذّ أكبر، حتى أتى يومٌ وقادتهم اللعبة إلى الشارع. تلك المرحلة سمّيت باللعب الحي.

انطلقوا من بيوتهم مقتنعين وخاضوا في غمار اللعبة. تشابكوا

وتشابهوا وانقطعت الاتصالات الهاتفية بينهم وبين العالم. ما أن بدأت اللعبة في تحميل مرحلة اللعب الحي على هواتفهم حتى قامت بإغلاق خصائص الاتصال الصوتي والرسائل. تلك كانت شروط المرحلة الجديدة: اقطع صلتك بالعالم واتّحد مع القرد. لم تقف اللعبة عند هذا. أتت المهمات بقطع الاتصالات الهاتفية عن الجميع. مع الضربات الأولى لهجوم القرد قاموا بقطع كافة وسائل الاتصالات الهاتفية. أي رقم ستحاول الاتّصال به سيأتيك الردّ على الطرف الآخر برسالة مسجّلة من القرد «الرقم الذي توذّ الاتصال به لن يجيب عليك مهما حاولت» تركوا شبكة الإنترنت تعمل في بعض المناطق ولكن يبدو أنها كانت تحت سيطرتهم. المحادثات عبر الإنترنت صارت مستحيلة. مئات الآلاف من المواقع الإلكترونية تمّ اختراقها وصارت تنشر شعارات القرد الأحمر وبياناته. مواقع الأخبار تمّ محوها جميعاً ملايين من الصفحات الشخصية على مواقع التواصل احتلها الشعار. الشبكات الاجتماعية صارت مكسوة بالشعار نفسه ولا شيء غيره. الفضاء الإلكتروني صار أحمر.

حصان طروادة

أنا حصان طروادة
وأنت المدينة النائمة.

عادوا بوجوه جديدة، استنسخوا أنفسهم. فيروسات لا تنتهي ولا تفتنى، تستنسخ نفسها وتعود من الرماد. تعود محصّنة وأكثر شراسة ممّا مضى. توغلت تحت أديم الأرض وانبطحت حتى مرّ الإعصار ثم عادت لتمصّ الدماء بشراسة. هذا الحزب الذي نشأ ذات يوم واجتذب قطاعات كبيرة من الشباب كحزب محايد وثورى كان هو حصان طروادة الكبير لم يكن هذا الحزب وحده الذي صنعوه، بل ولدوا أيضاً العديد من الأحزاب الأخرى في حقول تفرّيح أيديولوجية، كلّ حزب منهم كان ذا توجه مختلف. أيّاً كان رأيك وتوجهك ستجد حزباً هناك يقول ما تقوله أنت نفسه ويتبنى أفكارك. خلقوا لك تنوعاً فسيحاً لئبتلعك في جدله الأيديولوجي. تلك كانت الخدعة الكبرى!

الدرس التاسع في علم السياسة: لا تبحث عن مَنْ يتفق معك في الرأي، ابحث عن مَنْ يحارب معك حتى النهاية!
سبع سنوات تبدلت الوجوه وتغير اللاعبون حول طاولة اللعبة

الجهنمية . سبع سنوات من الكرّ والفر بينهم . سبع سنوات من القلق والفرزع ونيران الصراع . كلما اشتعل الشارع وأسقط نظام عاد في حصان طروادة جديد . غير شكله وزين ملامحه وتغلغل بخبث بحثاً عن ضربة قاصمة لغريمه المسيطر على الحكم . سبع سنوات من التناوب بينهم على هتك عرض الوطن .

الطرق لم تكن تمرّ من هنا الحزب الثوري الذي أخذ في التشكّل تحت قيادة أحد المنشقين عنهم كان حصان طروادة الأكبر توغلوا فيه ببطء حتى لا يلاحظ أحد . أخفوا الوجوه التي احترقت في غمار التقلبات الثورية وأظهروا جيلاً آخر غير معروف . أنتجوا أنفسهم في شكل جديد . تبنا قضايا قوية ورسخوا لأنفسهم بين طلاب الجامعات . لم يتركوا هذه المرة ثغرات خلفهم . هم بالنسبة إلى الجميع طرف جديد في اللعبة قدم نفسه كقوى ثورية . تم أيضاً توفير الغطاء بخلق أحزاب شكلية أخرى إلى جواره . أحزاب صُنعت لُتُحرق في الشارع . كل هذا تمّ هندسته لمصلحة حصان طروادة الجديد . صنع ليخترق ويحتل عادوا إلى البرلمان الذي كان ذات يوم لعبتهم الأثيرة وأسقطوا الحكومات مستغلين الأزمات الاقتصادية المتعاقبة .

عندما حلّ العام السادس للثورة كانت كل القوى السياسية قد تناحرت للإطاحة ببعضها البعض خلال الانتخابات . في كل مرة كانت تخرج النتائج وتشكّل حكومة لا تلبث أن تُحلّ في خلال عامين مرّاً أعيدت ثلاث مرات . لم يعد هناك تيارات لم يتم حرقها ولم يعد هناك أشخاص غير مطعون فيهم . كل القوى السياسية كانت تأتي إلى السلطة لتُذبح .

في آذار/ مارس 2016 تمّ اغتيال رئيس الوزراء السابق في البهو الرئيس للبرلمان ومعه اثنين من الوزراء بعد جلسة ساخنة لتراشق الاتهامات بين الحكومة والمعارضة حول الموازنة. كانت هناك تسريبات وفضائح حول عمولات قروض وتسهيلات بالمليارات. التحقيقات لم تثبت شيئاً كالعادة والإعلام أطلق العديد من الشائعات عن أنّ مرتكبي المذبحة هم جهات سرية لإصاقها بالمعارضة بينما جزم بعض المحللين أنّ النواب المعارضين هم من قاموا بالمذبحة. الشارع اعتبر أنّ من قام بالعملية هم أبطال اقتصوا من لصّ نهب أموال الدولة. لم تشكّل حكومة لشهرين والكل تنصّل من المسؤولية. هرب كثير من السياسيين والوزراء إلى الخارج وسادت الفوضى في أروقة المصالح الحكومية.

عندما حلّ الصيف كان حصان طروادة قد انفتح وخرج منه الفصيل السياسي الذي تخفى لسنوات. وصلوا إلى السلطة وشكلوا حكومة ائتلافية بصفقة مشبوهة تمّت مع أكبر فصيل سياسي على الساحة. ضغوط الوضع الاقتصادي وصدى سقوط الحكومة السابقة المتورّطة في سلسلة من الفضائح أتاحت لهم الثغرة التي أرادوها أثمر ضغطهم عن صلح سياسي تمّ تمريره في الخفاء. الاتفاق كان بسحب كلّ فصيل لحشوده من الشارع وتوافق إعلامي على تعديلات دستورية تمنح البرلمان سلطات واسعة. نجحت الهدنة السياسية في نزع حالة الاحتقان ولكن الهدنة انهارت بعد شهر واحد. يُقال إن شخصاً ما هربّ تفاصيل الصفقة. كان هذا العميل اسمه معروفاً منذ زمن كعضو سابق بجماعة ثورية.

خرج الشباب في مظاهرات عارمة بعد أن عرفوا بتفاصيل

الصفقة التي تمّت في الخفاء. شعروا بأن هذا الاستفتاء القادم ليس سوى تمثيلية جديدة. رفعوا يافطات تندد بالمؤامرة. التاريخ كان يعيد نفسه بعد سنوات قليلة. الصفقة المشبوهة كانت تشبه صفقة سابقة حدثت من قبل.

تم إجراء الاستفتاء وسط حالة من الاضطرابات ومظاهرات لم تتوقف. خرجت نتيجة الاستفتاء على التعديل الدستوري بمفاجأة كبرى. كانت أول مرة في تاريخ مصر تخرج الأغلبية لتصوّت بـ«لا». ما أن أعلنت النتائج حتى بدأت المأساة المنتظرة.

في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 2016 ضربت المصادمات العارمة جامعة القاهرة. عرفت تلك المصادمات بمعركة المولوتوف. احترق مدرّج كلية التجارة بمن فيه وامتدّت النيران نحو عدة مباني. سقط آلاف الطلبة قتلى في الحريق. في الصباح التالي امتدت معارك المولوتوف لتشمل كلّ الجامعات المصرية وسقط قتلى جدد.

رفض أعضاء البرلمان حلّ المجلس أو الحكومة المشكّلة وأعلنوا سحب الثقة من الرئيس وقاموا بالاعتصام بمبنى البرلمان. أعلن الرئيس فرض قانون الطوارئ وحلّ الحكومة والبرلمان مستنداً إلى نتائج الاستفتاء. أعلنت كل الفصائل الثورية محاصرة البرلمان ومجلس الوزراء. الحصار امتدّ لثلاثة أيام فشلت فيها قوات الأمن في تفريق المتظاهرين.

في اليوم الرابع للحصار توجه المؤيدون إلى البرلمان للمتظاهر أمام البرلمان واشتبكوا مع الثوريين. نشبت معركة طاحنة بين الطرفين أسقطت الكثير من الثوريين ونجح المؤيدون في احتلال محيط

البرلمان. في الصباح التالي حشد الثوار أنفسهم وهاجموا المؤيدين الموجودين في البرلمان وأضرموا النيران في المبنى انتقاماً لحرائق الجامعات.

مات المئات من أعضاء البرلمان وأسقطت الحكومة. انتشرت أعمال السلب والنهب والاعتقالات السياسية في الأسابيع الأولى من كانون الثاني/يناير بينما ظلت الدولة بلا حكومة. كل الأطراف بلا استثناء أعلنت خوفها من المشاركة في الحكومة في ظلّ الحالة الراهنة ولم يكن هناك مخرج سوى تشكيل حكومة من شباب القوى الثورية. ما أن أعلنت الترشيحات حتى تناحرت القوى الشبابية فيما بينها واختلفوا حول المرشحين. رفض الكثير منهم تشكيل حكومة قبل أن يتمّ القصاص من المسؤولين عن المذابح التي حدثت. تأزم الوضع أكثر وصار بلا مخرج.

أطلقوا القرد من سلسله. استدعوه من مكمته في الفضاء الإلكتروني. حقنوه بالسم السياسي فضرب الحوائط من حوله وخرج إليهم ليأكلهم جميعاً خرج القرد بعد أن يئس جيل كامل من نفسه. خرج ليُعيد لهم الحياة. ما أن بدأ هياجه حتى انتشرت على الجدران شعارات القرد الأحمر

القناع

أنا خيالك المريض

أنا الصديق الوحيد المتبقي

أهلاً بك في ملكوت العالم المتصدع.

عندما يظهر القرد سيكون عليك أن تختار. هل تريد السيطرة؟ أم تريد الحرية؟ أم تريد الخلاص؟ اختر الآن بحكمة واذهب لتصلّي وأنت تدعو أن تبلغ مكنك عندما تستخدم النهايات.

تتلو العاصمة قصتها اللامعقولة مع بداية العام السابع للثورة. هنا تنقلب الأحداث ويخرج القرد مع ذكرى يناير هنا أنت تقف على أنقاض أقدم دولة شهدها التاريخ. هنا اللامعقول الحتمي خرج بعد عقود من الانهيار. خرج لبيطش بالجميع عندما حانت اللحظة، أرسل رسالته المنتظرة. الرسالة انتشرت عبر الهواتف الذكية وصارت متاحة لكل اللاعبين. ذات مساء احمرّت شاشات الهواتف وظهر القرد بوجهه الصارم لدقائق حُبِست فيها الأنفاس منتظرة. بخط أسود بدأت تظهر الكلمات:

«ضع قناعك

كلنا القرد الأحمر

لقد سرقوا منا الثورة .

لا تصالح

الآن حان موعد الانتقام الكبير

انضم إلى الثورة الكبرى

ضع القناع على وجهك

لا تخلعه مهما حدث

نحن كلنا واحد

نحن لا نعترف بأيّ قادة

نحن لا نعرف الحلول الوسط

نحن لا نعرف سوى الثورة

الثورة ستنتقم من كل الخونة

الثورة ستقتصم للشهداء

الثورة ستسقط كل أعدائها

الثورة لن تموت أبداً

انزل إلى الشارع

لا رجوع

في كل مرة تركنا الشارع سرقونا

هذه المرة ستبدأ الثورة الكبرى

لن نعود مهما حدث

اضرب بقبضتك
أطلق عنان غضبك
خذ ثورتك بالقوة.

لا تصالح

لا تراجع

لا هدنة

لن يروا منا سوى الثورة.

نحن قادمون

وسنبقى حتى النهاية.

ما أن انتهت الرسالة حتى بدأ تحميل الإصدار الجديد من اللعبة المسمى باللعبة الحي. في الخامس والعشرين من يناير نزلت اللعبة إلى أرض الشارع وانتشر القرد الأحمر في الطرقات. ظهرت الأقنعة في كل مكان. كلهم على الخريطة يتحركون كنقاط سود. هم يعلمون إلى أين يمشون وأنت لا تعلم. أنت ترى الحشود وهي تنطلق وتنقض فقط. مع حلول مساء الليلة الأولى كانت كرات النار قد بدأت في الاشتعال. لقد تحوّل الخيال إلى حقيقة. الآن كان عليهم أن يصدّقوا أنفسهم. القرد فعلها كل لاعبي القرد الأحمر نزلوا إلى الطرقات واحتشدوا خلف الأهداف. هم لاعبون متمرّسون أمضوا سنوات يلعبون القرد الأحمر منذ أن خرج إصدارها الأول. يحفظون اللعبة عن ظهر قلب. متمرّسون على قواعدها ومراحلها. كانت

بالنسبة إليهم التسلية الكبرى التي أشبعت خيالهم. واقع افتراضي
بديلاً كانوا يمارسون فيه الثورة وحرب الشوارع. لعبة كانوا يبنون
فيها دولة من خيالهم. يحاربون فيها سويًا قوى الشرّ ويتغلبون عليها
لعبة أتاحت لهم كل ما كانوا يحلمون به في أرض الخيال. الآن
اللعبة أنزلتهم إلى الطرقات. مكّنتهم من حشد أنفسهم ضد الجميع.
تعلو دقات الطبول ويعلو الهتاف. تتحرك الجموع نحو
الميادين أعدادهم لا تحصى وزئيرهم لا يهدأ لا يدخل في زمرة
القرود سوى من يتحرك كنقطة على الخريطة ويرتدي القناع. أهلاً بك
أيها الثوري في المعركة الفاصلة. أهلاً بك في الثورة الكبرى. أهلاً
بك في طريق اللاعودة.

القرد الأول

أنا الشفرة الأم
أنا القناع الأول والأخير
أنا المرحلة الخطيرة.

الدرس المائة والثلاثة عشر في علم السياسة: لا تترك أحداً خلفك باقياً امح الجميع!
في غرفته تطلّ فوق رأسه الصورة الكبيرة القديمة على الحائط، يقف متطلعاً إليه ثم يرفع يده بالتحية، يهمس نحوه بثقة «لن أعود قبل أن آتي بحقك» يطلّ على الغرفة من حوله مودّعاً الذكريات الطويلة، يتأمل البرواز الصغير حيث يقف وسط الرفيقين القديمين. عليه الآن أن يستعدّ للجولة التي انتظرها طويلاً ألقى نظرة متفحصة مراجعاً شفرات المراحل القادمة حتى تأكّد من أنّ كل شيء على أهبة الاستعداد، قام ببدء تحميل الملفات على هاتفه. تابع شاشات البث التلفزيوني وهي تُكتسى بشعارات القرد الأحمر انتقل إلى اللعبة وأخذ يتابع مؤشرات حصد النقاط على شاشة النتائج. تتوالى الصور التي التقطوها وفيديوهات البث المباشر من مواقع الأهداف. الخريطة تشير إلى تأمين كامل لمناطق وسط البلد والمنيل

والمهندسين والدقيي بينما أشارت الخريطة إلى مناطق أخرى ما زال الصراع فيها مستمراً ولم يحسمها القرد بعد.

يقوم بالضغط على أيقونة الجوكر يفتح الجوكر فمه الكبير مهووساً بكل ما اقتنصه. يستعرض ذكائه بسلسلة من الجولات بين الملفات. الوثائق تفتح والحسابات تُخترق والجوكر يلتهم كل شيء بضمٍ شره لا يشبع. المخترقون غذوه بالدماء وبسطوا شبكته العنكبوتية في خوادم متفرقة حول العالم. المؤشرات أمامه على الشاشة تشير أن هناك قرابة الألفي ناشط يتفاعلون مع المنصة. انتهى من تحميل الملفات ثم بدأ في اختبار هاتفه. تأكد من تفعيل كل شيء ثم تأكد من فاعلية الاتصال بين هاتفه ومنصة الجوكر يومض اللون الأخضر على الشاشة، الفم الكبير متأهب للانطلاق، الأخطبوط الجهنمي متأهب لخدمة القرد.

ها هي الأشياء كلها تقترب منه. لقد مرّت أعوام لم يغادر فيها مكمنه، لقد أمضى سنوات يبني في الشفرات، يطور في المنصة ويعدل في الرسومات والحلول. الآن هو على بُعد خطوات من ما يريد. الآن عليه أن يخرج إلى الأرض، الآن تبدأ المراحل الحاسمة.

أسند رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه لدقائق، هناك في عالمه يرى ضباب الغاز ويسمع دوي الطلقات، يهدر صوت المعركة بينما ينادي الصوت العظيم قبل أن يسقط على الأرض. يظهر القرد فجأة ويقفز من مكمنه ليضرب الأرض بقبضته. يلتفت إليه القرد قبل أن يتأهب للتحرك. يلقي عليه نظرة أخيرة ثم ينطلق نحو المعركة. الآن

لا يشعر بالخطر، الآن هو مستعدُّ للركض خلف القرد أينما ذهب .

فتح عينيه وقفز من مكانه . ارتدى الشعار القاسي الذي طبعه على قميصه ثم وضع على كتفيه المعطف الطويل . قام بتحميل كل الملفات التي يحتاجها لمهمته . لفّ عنقه بوشاحه القديم، ذلك الوشاح الذي كان عليه بقع دماء لم يزيلها منذ سنوات . غطى وجهه بالقناع وربط هاتفه في سلسلة طويلة يلفها حول عنقه .

من مكان ما على حافة الهضبة العالية أطلَّ على المدينة، عصف الهواء البارد به وهو يطالع ملايين من نقاط الضوء تومض في الأفق الملبّد بالدخان . هذه كانت اللحظات الأخيرة التي قضاها مع نفسه على الخط الفارق بين الماضي والقادم . هذه كانت أول مرة يغادر مكمنه منذ سنوات طويلة .

قفز فوق دراجته البخارية وأدار محركها في جوف الليل خرج، الآن تبدأ الرحلة . على الطريق المنحدر نحو المدينة دارت إطارات دراجته البخارية بسرعة جنونية .

إنه القرد الأول! لم يصدقوا أعينهم عندما ومضت أكبر نقطة على الخريطة . جاري الآن تحميل القرد الأول . ها هو قادم إلى الشارع . ها هو قادم إليهم بعد طول انتظار .

لم يكونوا يعرفون الكثير عن القرد الأول ولكنهم كانوا يعتبرونه أسطورة . يقولون إنه هو مَنْ اخترع اللعبة منذ سنوات . يقولون إنه أعظم العقول على الإطلاق . يقولون إنه اللاعب الأمهر بين الجميع يعرفون الرمز الخاص به منذ أن بدأت اللعبة قبل سنوات عبر الفضاء الإلكتروني . يقولون إنه لم يترك ثغرة واحدة في اللعبة لينفذ منها

أحد. يقولون إنه لا أحد يعرف مَنْ هو! ولا من أين جاء! ها هو القرد الأول يتحرك على شاشات هواتفهم للمرة الأولى منذ أن تمّ تحميل الإصدار الحيّ للعبة، منذ أن نزلت اللعبة إلى أرض الشارع. ساد الترقُّب الجميع وهم يتابعون. القرد الأول يتحرك على الخريطة مخترقاً الطرقات صوب وسط المدينة. فتحوا له المتاريس وأزالوا الحواجز من طريقه غير مصدّقين أن الأسطورة نزلت إليهم. كلما مرّ بفريق من فرق القروء المنتشرة في الطرقات صاحوا وقرعوا الطبول وأشعلوا الشماريخ. يرفع قبضته لهم محيياً وهو ينطلق فينتشون. تشتعل المحادثات بين فرق القرد في كل مكان، تتوالى الرسائل على الفرق التي مرّ بها، هل رأيتموه حقاً؟ ما شكله؟ يا لكم من محظوظين! يقال إنه طويلٌ وقوي البنيان. هل أتى وحده؟ ما المهمة التي اختارها لنفسه؟ لا بد من أنها مهمة كبرى. يتطلعون نحو شاشات هواتفهم بشغف، الكل في انتظار الرمز الأول. الأدرينالين ينتشي والصيحات تضرب الطرقات التي اشتعلت بأضواء الألعاب النارية والشماريخ.

يهبط النفق الطويل نحو وسط المدينة ويميل بدراجته البخارية متفادياً السيارات المحطّمة داخل النفق. يزيد سرعته بجنون متجهاً صوب اللحظة التي انتظرها طويلاً

وصلت النقطة الكبيرة إلى وسط المدينة ثم توقفت. المكان «مركز المعلومات» كان المكان محصّناً تحت سيطرة أعتى فرق القرد ولكنه لم يتمّ اقتحامه بعد. اللاعبون الأوائل الذين وصلوا إلى المبنى وحرروه من قبضة الشرطة ثم رفعوا عليه شعار القفل. هذا الشعار طبقاً لقواعد اللعبة يمثل الأماكن التي يجب حمايتها فور

تحريرها عندما وصل إلى المبنى قام بتغيير الشعار من قفل إلى مفتاح فقاموا على التوّ بفتح أبوابه له ثم إغلاقها ورائه. مرّت بعدها الساعات ثقيلة والكل يرقب شاشة هاتفه متوتراً فجأة ومضت الشاشات مُعلنة توفر تحديث جديد للعبة جاهز للتحميل. علت الهتافات ترجّ الطرقات في الخارج فابتسم وهو يرقب أجهزة الخوادم المصفوفة أمامه. الآن القرد يسيطر على المنفذ الأم للشبكة.

يلتهب الأدرينالين في عروقهم. القرد الأحمر يحترف لعبة المفاجآت. كلّ مرحلة هي مفاجأة جديدة غير متوقعة. يرفع القرد هوسهم بالمجهول ويحلّق به نحو سماء اللامعقول ثم يأتي به عند أطراف أصابعهم. ضغطة زر التحميل ويبدأ القرد في كشف أغوار المستوى الجديد. يستمر اللعب.

«جاري الآن تحميل الإصدار الجديد.

تم الانتهاء من تحديث اللعبة»

تظهر رسالة القرد الجديدة مع بداية كل مرحلة باللون الأحمر على الشاشات:

«إنهم جميعاً خدعونا ويجب القصاص منهم

القرد يزورهم في مكنهم

القرد يتسلل في الظلام ويأتي بالخونة

المهمة:

ابحث في اللعبة عن الساسة الخونة

ابحث عن النشطاء

ابحث عن المخلوعين
ابحث عن أعداء الثورات
ابحث عن المنتفعين من الثورات
ابحث عن الإعلاميين الفاسدين
سنحاكمهم في الميدان»

دقائق وبدأت تتغير الخريطة. القروء تنتشر بحثاً عن السياسيين، كل السياسيين من كل التيارات بلا استثناء. يشقون الأرض بحثاً عن النشطاء، بحثاً عن الإعلاميين، بحثاً عن أعدائهم اللعبة تتيح الآن السيطرة الإلكترونية عبر المستوى الجديد. القراصنة يخترقون الفضاء الإلكتروني ويُسقطون جدران الأسرار. ها هي الشبكة الرئيسة للإنترنت تفتح لهم دروبها الأكثر فتكاً من طريق تطبيقات الهاتف الذكي يستطيعون تحديد موقعك على الخريطة وكل الأماكن التي كنت تتردد عليها يستطيعون اختراق كل الملفات التي قمت بتسجيلها على هاتفك، كل الأرقام التي تحتفظ بها، كل بياناتك المسجلة على مواقع التواصل الاجتماعي، بريدك الشخصي وكل مراسلاتك. يلجون حساب الفيسبوك الخاص بك ويحملون تاريخه الكامل ثم يشحنونه دفعة واحدة بضغطة زر لبرنامجهم الشهير «الجوكر آر دي» هذا البرنامج كان أسطورتهم المقدسة التي ابتدعها القرد الأحمر يبتلع هذا البرنامج أرشيفك الكامل على الفيسبوك ويخرج بالعجائب. هذا البرنامج سيقول لك مَنْ أنت، وَمَنْ كنت، ما الذي تحبه وما الذي تكرهه. يحلّل هذا البرنامج أماكن تواجدك وكل

مراسلاتك وشبكة علاقاتك. إنه عقلك الباطن الحاضر. يحفظك عن ظهر قلب، يفكر كما تفكر ويتحرك كما تتحرك. الآن أنت صيدٌ مكشوفٌ في العراء والقروود تتأهب للانقضاض عليك، إنهم يعرفون عنك كل شيء. برنامجهم يحسب حتى مستوى ذكائك، يعدّ أنفاسك ويقيس مهارتك، برنامجهم يتوقع كل ما أنت بصدده وفي بعض الأحيان ربما يكون قد سبقك. كلها معادلات رياضية تحسب عدد مشاركاتك وسمات شخصيتك وتوجهاتك الإلكترونية. معادلات تقيس صلاتك بشبكة معارفك وأصدقائك وكل من حولك، ينقب في دهاليز علاقتك معهم ويتعرف على الأقرب منك وأيهم تفضّل وأيهم تتابع. خاصية تتبع الأماكن تتيح بحسابات بسيطة أماكن ترددك والأشخاص التي قد تلجأ إليهم. ينفّذوا من خلالك إلى شبكة علاقاتك ويحللون الواحدة تلو الأخرى ويتوقعون خطوتك القادمة. أقرب صديق لك سيسقط في أيديهم وسيعترف عليك وقد يكون أقرب صديق لهم هو قرد منهم.

ها هي خريطة اللعبة تومض بأهداف بشرية اخترقوا عوالمها تمّ تفعيل خاصية التعقّب وتحركوا نحو الأهداف. في الإصدار الثاني للعبة يتم الآن تعقّب الأهداف المتحركة. أعتى اللاعبين وأمهر القروود بدؤوا التحدي. يتحركون تحت جناح الظلام كالأشباح. تشير علامة الدمية إلى الهدف المُراد. عند الضغط على الدمية يتيح لك القرد الأحمر التواصل مع القراصنة. هؤلاء هم متقّفوا الأثر يحملون شعار الجوكر الشهير بابتسامته العريضة ويمدّون اللاعبين ببيانات عن الهدف عبر برنامجهم الأسطورة. يواصلون اختراق حساباته وتقفي كل بياناته والأماكن التي يتردّد عليها. حتى الصور

الشخصية والعلاقات الغرامية كانوا يحللونها القرد تنطلق تحت جناح الظلام خلف أهدافها كالكوايبس اللعينة. فرق القرد تتنافس على تحطيم الأرقام القياسية في الوصول إلى الأهداف التي كانت تفرّ من بيوتها وتتخفى. ساعات العدّ تلهث وكل فريق يبحث عن حصد نقاط الفوز والترقية إلى مرتبة قرد كبير

يطوقون البيوت تحت جناح الظلام. هم كالقدر المستعجل الذي لا ينتظر يقفون فوق رؤوس السياسيين والإعلاميين والمسؤولين السابقين في غرف نومهم. الانتصارات تتوالى والمئات يترقون في اللعبة. ها هي الدمى التي سقطت تتحرك نحو وسط المدينة يقتادونهم معصوبي الأعين ومكبّلين ويتمّ الزجّ بهم في غرف مجمع التحرير تمهيداً لمحاكمتهم. لم يعثروا على كلّ أهدافهم في الليالي الأولى، كانت هناك أهداف صمدت لعدة أيام في لعبة تخفي وتتبع عنيفة. هناك الكثيرون أيضاً قد غادروا البلاد مع الموجة الأولى للقرد ولم يتمّ العثور عليهم، لكن الجوكر لا يستسلم، اخترقت قرصنة الجوكر بيانات المطارات والمنافذ الحدودية وتأكدوا من أسماء الذين فرّوا ولكنهم لم يفروا ببياناتهم. سقطت فضائهم في يد القرد الأحمر الجوكر بيتسم دائماً

مرحلة إسقاط الدمى كانت ضربة مباغته لم يتوقعها أحد. لم يكن أحد يتخيل أن يسقط بكلّ أسراره في أحضان القرد. لم يكن أحد يتخيل أنّ القرد قادرٌ على الاختراق والغوص في أغوار الدهاليز المدفونة والملفات القديمة المنسية. لم يكن أحد منهم يتخيل أن الثقب الإلكتروني بهذا الاتساع الضخم. إنه الشريك الخفي الذي نمت في كنفه طيلة الوقت. إنه يعرف عنك ما قد تكون قد نسيت. كل

عادتك، كل اهتماماتك، كل ما استقبلته وأرسلته. ذلك الشريك الخفي كان يدون حياتك كلمة كلمة. كان حاضراً طيلة الوقت. كان يتذكر كل شيء عنك حتى إن نسيت.

كل دمية تسقط في أيديهم يثون بعضاً من فضائحتها إلى العالم. يكشفون الاتصالات السرية التي جرت بين السياسيين لطبخ الدساتير والقوانين الواحد تلو الآخر. يكشفون العلاقات داخل الأحزاب. يكشفون ملاك القنوات الخاصة واتصالاتهم ومصادر تمويلهم. يكشفون شبكات من مافيا المصالح التي تمت بين معدي البرامج ونشطاء وسياسيين لتزييف الحقائق. يثون وثائق تقشعراً لها الأبدان. التاريخ يفتح أبوابه لألوف من الفضائح. يستعر الرعب داخل البيوت الموصدة وهم يشاهدون قدرات القرد على الاختراق والتوغّل. قراصنة القرد الأحمر تتوغل كالجراد الشرس وتغطي الفضاء. يأكلون في طريقهم كل التحصينات المنيعة وينخرون عظام الدولة المهترئة. الحرب الإلكترونية تضحّ بنبضات لانهاية وتعريّ الجميع. الوثائق تنهال على موجات البث والفضائح تدوي بلا انتهاء مع كلّ دمية تسقط.

القرد يكشّر عن أنيابه ويطيح بالمدينة. الرعب عاد ليجتاح الجميع أكثر من أي وقت مضى

مضت أيام قبل أن تظهر رسالة القرد الجديدة على شاشتهم ذات

مساء

«المدينة الفاضلة ليس فيها ساسة

دولة القرد الأحمر يحكمها الشعب بنفسه

الثورة الآن تحكم

القرود الأحمر يعلن منع كل الشعارات السياسية
كل التيارات السياسية صنعت من أجل السلطة
كل الأفكار السياسية صنعت من أجل الصراع

أنت الآن حر كما لا تكن من قبل»

أرسل القرود الأول رسالته بينما كان يقف في الظلام بين رسومات الحوائط في شارع محمد محمود. هنا تطلّ الوجوه عليه بعد سنوات. يحدثهم في سره ويعدّهم بالقصاص. يفتح الجوكر منقّباً عن دميته ولكن الجوكر لم يكن لديه الكثير يُطبق قبضته بغضب شديد. ذلك الملعون يجب أن يسقط! سينسف العالم بحثاً عنه. سيذهب بالقرود حتى آخر المدى.

يخرج القرود الأول من محمد محمود وتبدأ العيون تتعلق بالرأس الكبير وهي تتحرك على الخريطة بعد أيام من البقاء ثابتة بشارع محمد محمود. يراقبون المهمة التي بدأها إنه يتعقب دمية ما لم تسقط بعد. إن القرود الكبير لا يتحرك سوى للمهام الكبيرة، يتهامون: يبدو أنّ تلك الدمية هي الأخطر على الإطلاق.

يطارد القرود الأول دميته بلا أمل إنه سراب على الطريق يتشكّل ثم يتلاشى كلما قرّر الاقتراب. تقف القرود دميته في كلّ مكان وأرسل فرقه للبحث ولكن لا دليل على أنه موجود. لا أثر له في أي مكان.

الجوكر يقف حائراً أمام اللغز فشل في رسم مسار له. كل

الحسابات الإلكترونية للدمية خاوية. البيانات تشير إلى أن الحسابات تمّ تفريغها عدة مرات طيلة السنوات الخمسة الماضية. أرقام هواتفه مجهولة، زوجته وأولاده هاجروا إلى تركيا في العام 2014، لائحة أعوانه كلها في السجون حسب معلومات الجوكر لم يكن له أي حسابات بنكية أو وثائق سفر أو حتى عنواناً ثابتاً الجوكر يخرج استنتاجاته عن الدمية في صورة بيانات عشوائية ومسارات مقطوعة ودوائر لا تكتمل. كل مسار يرسم علاقات الدمية يقف مبتوراً عند نقاط مبهمة. الدمية ليست سوى شبح يجيد التخفي والتشكل حسب البيئة السياسية المتاحة. يتحالف مع من على الأرض وثم يتوغل في اللحظة الحاسمة، يتلاشى ويتبخر بلا أثر خلفه.

يعلو الهتاف في الخارج القروود تنتشي بانتصارها بينما القرد الأول يجلس أمام شاشة حاسوبه في إحدى الغرف المطلّة على الميدان يتطلع نحو اللعبة أيقن لسبب ما أنّ لعبته لن تصل إلى الوغد الذي يبحث عنه. هنا تقف إمكاناتها عاجزة عن المواصلة. الوغد ليس له حلّ في لوغاريمات المارد الأحمر أو في تقنيات الجوكر يشعر بفداحة الثغرة المجهولة. لم يعد أمامه من حلّ. يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ثم يستحضر في ذهنه صور القدامى أين ذهبوا في تلك السنوات التي غاب فيها؟ يطلق بحثه مفتشاً عنهم وتتوالى الصور محمّلة بالذكريات. لقد كان حاضراً في صورهم القديمة. رأسه يطلّ من الماضي بملامح لم يعد يعرفها الآن. يتوقف أمام وجه يطلّ من أقصى الصورة. ترى أين هو الآن؟

المواطن صفر

الوطن . الوطن .

يقف ياسين السحرتي بعد سنوات على بعد خطوتين من الرجل
الطاعن في السن الذي قال له مستفهماً «الوطن؟!»
يضجّ صوت مولّد الكهرباء من المستودع القديم بينما يعدو في
الجوار كلب صحراوي أشهب يحفظ المكان ويرافق العجوز . يختلط
نباح الكلب بصوت المولد وتميل الشمس خلف الجبال العالية فبدت
كأن السماء القانية تتوحد مع رؤوس الجبال وتصلي . هبّت الرياح من
بعيد وتلاعبت بجلباب العجوز الممزق الذي وقف أمامه في هذا
المكان النائي متعجباً ممّا حدث .

يتذكر المذكرات كطيف بعيد عندما يشتدّ الهواء فجأة

«الريح هي أكثر الأشياء حرية.. تهبّ من بعيد وتمضي
حتى آخر المدى.. تأتي وتذهب كأنها مطلق لا يعرف قيوداً..
تعلو وتيرتها أحياناً وتهمس أحياناً وتسافر بلا طرقات.. الرياح
لا توقفها الأماكن ولا المدن ولا البشر.. تمرّ وتتحرر.. وتخفت
خلفها الأشياء في البعيد...»

كانت تلك البقعة من جبال الجلالة تقع على خط النهاية لرحلة

ياسين السحرتي في أنحاء مصر، عدة سنوات قضاها ياسين مرتحلاً بين المدن والدروب. سنوات قطعها يؤسس في الفكرة التي أرادها أن تتشكّل على الأرض. كان عليه أن يمضي في غمار الرحلة حاملاً على كتفيه الحلم العنيد.

يقف أمام الحارس العجوز الذي بدا مندهشاً ممّا حدث للوطن. قال العجوز إن آخر ما وصله من أخبار هو خلع مبارك. لم يكن يعلم العجوز أي شيء كان قد حدث منذ ذلك الحين. سبع سنوات انقلبت الأحداث في هذا الوطن رأساً على عقب ولكن العجوز المقيم بين الجبال على بعد كيلومتر واحد من دير الأنبا أنطونيوس لم يكن يعلم أي شيء عمّا حدث. لم تكن تصله أخبار أو جرائد في تلك البقعة ولم يكن يخرج من كشكه الخشبي. الرهبان قليلو الكلام كانوا يرسلون له الطعام وخزانات الوقود مرّة كل شهر يقولون إن هذا الدير هو أقدم دير على وجه الأرض ولكن حتى هذه المعلومة لا يعرفها حارس الجبال العجوز. مضى العجوز متسكعاً في الوادي يبحث عن حطب وعاد ليُشعل النار ويعدّ الشاي. قال لياسين بلهجة صعيدية وهو يصبّ الشاي الساخن من براد عتيق شبه محترق: - كان عندي راديو من عشر سنين. خرب ومن يومها ما عرفش حاجة. نورني يا ولدي.

وصل ياسين إلى المواطن صفر المواطن الذي لم تطعّ عليه تقلبات السياسة التي اخترقت الوطن وصارت الخبز اليومي لأحاديثه. لم يكن للحديث مع الرجل من هدف ولكن كان بالنسبة إلى ياسين هو خطّ النهاية. الآن عليه أن يعود.

الأخبار أتت من العاصمة، لقد بدأ الجنون! القرد مزق المدن الكبرى واحتل الأفق الثقيل في أيام معدودة اعتلى الطوفان الأرض مكتسحاً كل شيء في طريقه الفزع يعتلي الوجوه بينما هو وحده يطل كأنه رأى كل هذا من قبل. لقد كان ينتظر كل هذا

في طريقه من الزعفرانة إلى العين السخنة رأى آلافاً من الفارين الذين هربوا من الجحيم. الطرقات مكدسة بالسيارات والناس تبني بيوتاً وعششاً لتسكنها على جانبي الطريق. الألوف يجلسون على جانبي الطريق السريع يتسولون أي شيء وكل شيء.

حاول تفعيل هاتفه ولكن الاتصالات كانت مقطوعة. بعد ساعتين من محاولات مضية للمرور وسط أكداس البشر والسيارات تلقى رسالة من حسين شامة المفقود منذ شهر.

«عُدْ إلى القاهرة فوراً كل خطوط الاتصال مقطوعة ولكنني سأصل إليك في بيتك الليلة»

الرحلة

أنا درب كل الدروب

أنا العودة الأخيرة .

لكي تفهم أين تقف وأين انتهيت، عليك أن تعود إلى البداية .
ذات يوم خرج ياسين السحرتي عندما ناداه هاتف بعيد . ترك كل ما
حوله وقرّر أن يبدأ من بعيد، من خارج الأرض المستهلكة .

«الثورة على الظلم هي بداية الطريق.. أما الثورة على
الجهل فهي الطريق كله.. نحن أجيال دفعت ثمن الجهل باهظاً..
الجهل يُبيد أقوى من أيّ سلاح.. الجهل يجرنا إلى أسفل
والعالم لا يتوقف.. عالم يدهس الجهلة تحت أقدامه.. الحرية
بلا علم لا تساوي شيئاً.. الديمقراطية بلا فهم لا تؤدي إلى
شيء.. الأمم لا تقف على أكتاف الساسة، بل تقف على أكتاف
المفكرين.. الرصاصة قد تحرر أرضاً ولكنها لا تحرّر عقلاً..
الثورات لا تنتصر بالشعارات.. الثورات لا تنتصر بالهتاف..
الثورات لا تنتصر بالدساتير والانتخابات.. الثورات تنتصر
عندما تشعل قناديل على الطريق للقادمين..

نحن الوطن النائم في ظلّ التاريخ البليد.. نحن المنتجون

لمليون شاب متدلي السراويل كل عام عاطلين على النواصي.. نحن المنتجون لمائة ألف سائق ميكروباص كل عام.. نحن ننتج الجهل داخل المدارس والجامعات.. نحن نبني وجدان الأجيال على مفاهيم مغلوطة.. نحن نلوث الماء الذي نشربه والغذاء الذي نأكله ونزرع الأرض بالخرسانة بدلاً من القمح.. نحن نقتل طموح أبنائنا أمام أبواب مكتب التنسيق.. نحن ننسخهم بعضهم من بعض..

لم يعد أمامك من حلّ سوى أن تنسى نفسك.. انسَ كلّ ما تريده.. انسَ إحباطات جيلك وخيباته.. انكِرْ نفسك وفكر في القادمين.. علينا أن نبني جيلاً جديداً.. اجمعوا كل قرش وابنوا مدارس في القرى والنجوع.. ازرعوا الوعي في العقول تحصّدون المستقبل.. أنتجوا أجيالاً تعي أكثر منّا.. لا تنتجوا أجيالاً مشحونة بالصراع مثلنا.. تلك هي الثورة الكبرى».

كان ياسين منذ اللحظة الأولى للثورة يعرف أن المهمة ثقيلة. عندما شكل الجبهة هو والرفاق حاول أن يوحدهم حول هدف ولكنهم ظلوا مشغولين بالنزاعات والمستجدات اليومية على الساحة السياسية. الجبهة فشلت في كل شيء والرفاق انساقوا خلف التطورات المتوالية وتمّ جرهم في حروب جانبية أهلكتهم.

ذات ليلة شتوية وفي مقرّ الجبهة تبادلوا الأحلام. مروان الناجي أطلّ نحو النافذة مرتكناً على كتف حسين شامة وأخذوا يتحدثون عن مشروع طموح يهدف إلى تطوير التعليم. كان ذلك في شباط/ فبراير 2011 وقد كانت مصر كلها تتحدث عن مشاريع ما بعد سقوط النظام. الكلّ كان يملؤه الحماس إلا ياسين. ربما لم يكن قد وجد

ضالته بعد. لم ينتبه إليهما ياسين إلا عندما اقتربا منه والتمعت
عيونهم. كان لديهم مشروع ولكنه بدا كحلم بعيد صعب التحقيق.
تحدثوا طيلة الليل عن ما يمكن تحقيقه وكالعادة كان مروان يحلق
عالياً في أحلامه بينما ياسين يفكر في أرض الواقع وفي الأشياء
القابلة للتحقيق. تجادل الاثنان ولكن حسين قفز في المنتصف
وبدأت أفكاره تربط الأشياء ببعضها

في تلك الليلة خرجوا بفكرة المنظمة وفي اليوم التالي بدأ حسين
في تجميع البيانات، لكن كل شيء توقف بعد إجهاض الفكرة
وملاحقة بعض الشباب الذين روجوا لها الفكرة كانت تراود ياسين
طيلة الوقت ولكنها ظلت بالنسبة إليه مجرد حلم بعيد، طيف من
الحماس زارهم ذات ليلة ثم خبا في الظلام.

عندما دفن إبراهيم الكومي بيديه ذات مساء، وقف أمام القبر
وقطع سيل الدموع المتساقطة على وجنتيه. لو كان الكومي حياً لما
قبل بهذا الوداع. لا يليق وداع الرجال الشجعان بالنحيب. انحنى
أمام الكومي وكأنه يقف أمامه ثم ودّعه. كل خطوة خطاها مبتعداً عن
الكومي كان لا يريد لها أن تضيع هباء. ناداه الهاتف البعيد «اخرج من
نفسك لترى العالم»

عندما حلّ الصباح التالي كان ياسين السحرتي قد خرج ولم
يُعد. كان نهاية الغائب الذي ولد وعاش فيه طيلة عمره. خرج ياسين
من أرض الغياب إلى أرض الوطن. بدأ أولى خطواته نحو مشروعه
الأكبر بدأ في تشكيل المنظمة.

حروب العالم المتداعي

أنا الجشع

أنا التحوّل البشع

أنا المستقبل القريب أكثر من ما ينبغي .

انسف عقلك واتبعني! أنت لم تعد بحاجة إليه بعد الآن. انظر حولك! هل ترى كل هذا الجنون؟ احترس لخطواتك فهذا الزحام قد يكون قاتلاً فجأة، سوف يتصادمون وسيقتك بعضهم ببعض وقد تسقط صريعاً تحت أقدامهم. أعلم أن لا ذنب لك في كل ما يحدث. أعلم أنك أتيت غريباً إلى هنا رغم أن كل أوراقك تثبت أنك ولدت هنا يوماً ما لا عليك، انسف عقلك واتبعني!

الزمن هو الذي يصعد الأشياء نحو ذروتها، وهو أيضاً الذي يُنسيك تلك الأشياء. لولا الزمن لحدث كل شيء في الوقت نفسه ولصار من المستحيل أن تفهم كل هذا ربما هذه الأيام التي تعيشها كانت بلا زمن، كل شيء كان يحدث في اللحظة نفسها

أنت في العالم الذي يشبه نفسه إلى حدّ كبير، منتفخ وقابل للانفجار في أي وقت. لقد كان يتلكأ وحده في انتظار أن يبدأ في التداعي الحرّ ذات يوم عادي من تلك الأيام التي أحياناً لا نشعر

بها، ودون أيّ مقدمات سقطت البورصات العالمية. بدأ الأمر كله فجأة وتدحرجت كرة الثلج من أعلى نحو الأخدود السحيق. هوت الأسهم في صباح اليوم الأول وانطلقت حمى البيع، الكل يبيع بجنون. رفعت وول ستريت والبورصات العالمية شعار التجميد لإيقاف الإعصار، لقد سطع عصر جليدي جديد في الأفق. عندما حلّ الصباح التالي بدأت العملة الأولى في العالم بالتداعي وارتفع سعر الذهب نحو عنان السماء. التنين الأحمر قرر الاحتماء وسحب البساط من تحت أقدام العالم القديم. هوت أسعار العقارات في كلّ مكان بحدّة وتأرجح العالم في الهواء. أصاب الهلع المواطنين في كلّ مكان وبدأ الجميع سحب أموالهم من ماكينات الصراف الآلي خوفاً من القادم. هوجمت المتاجر في كلّ مكان ونهبت الأغذية والمنتجات. السطو على كل شيء صار شعار القادمين من أسفل. المتاجر تُنهب، السيارات تُسرق من الطرقات، المطحونون تحت رحمة الأقساط يسطون على البنوك، دافعوا الضرائب يهجمون على مقرات الحكومة، الواقعون أسفل ظلمات السلم الوظيفي يحطّمون مكاتب شركاتهم وفروعها، الكل يثور ضد الرأسمالية غير العادلة.

يضرّب العالم نفسه في المجهول بعنف، يتطوح بالثقل غير المتوازن على حافة الهذيان. تنقض حروب التكنولوجيا على ساحات العالم، تنفك الشفرات المحصنة وتتوالى التسريبات من داخل تخوم الإمبراطوريات العجوزة. مجموعات الأنيمونس تطلق ألباباً مشابهة للقرد الأحمر في كل مكان، الحرب تقف على الأبواب وتدقّ بعنف. يرتدون القناع، يعلقون الشعار على الصدور، يلطخون

الجدران: «فلتسقط الحكومات»، «كل الساسة محتالون»، «فلتسقط الميديا»، «لا تنصاع»، «الحرية للشعوب»، «نحن قادمون». الأناركيين يتقافزون كالشياطين ويعبرون الحواجز، يديرون المعارك ضدّ الشرطة في الطرقات وضد النظم في الفضاء الإلكتروني. القرد الأحمر صار النموذج المجرب، صار النموذج الأكثر شهرة وإلهاماً تُرفع أعلام القرد في ثلاث عواصم عربية وبعض المدن الأوروبية والآسيوية. الأنيمونس يغزون الفضاء الإلكتروني محاولين استنساخ اللعبة ويطالبون بالمدد من القاهرة. يريدون الإصدار مع تغيير الخرائط، يخلقون نماذج مشابهة ويطلقون المسميات المختلفة عليها الكل يطوّر المنصة، والدولة الجديدة هي التكنولوجيا، الدولة الجديدة هي المنصة الافتراضية أما الأنظمة التي على الأرض فيجب أن تسقط. هذا الفضاء هو عالمهم وهو أدواتهم الفتاكة، التكنولوجيا لم تُعد تحشد فقط مثلما كانت تفعل منذ سنوات، بل صارت قادرة على السيطرة أيضاً، التكنولوجيا صارت تسقط الشبكات وتشلّ الاتصالات وتوحّد الهجمات. التكنولوجيا التي في جيوب الملايين قادرة على تحريك الألوف في لحظة، قادرة على أفعال لا تصدق عندما تتوحد. ملايين من الهواتف في لحظة واحدة تستطيع أن توجه ضربتها تجاه شبكة فتسقطها، ملايين من الإشارات تومض حول الأرض وترسل إشاراتهما يرسمون حدود عالمهم ويضربون بأفكارهم قشرة المجتمع البالية فينفجر البركان الرابض تحتها

لم يكن أحد يتوقع هذا المستقبل من قبل، الكل كان مشغولاً بالتجسس على الآخرين وصراع الموارد والسيطرة، الدول كانت تشيخ خلف جدران من الحماية الوهمية، الدول كانت تتحصّن خلف

قلاع عمياء لا تعرف أنّ العدو سيأتي من الداخل. لم يكونوا يعرفون أنّ المسربين سيفتحون الأبواب على مصراعيها في العامين السابقين خرجت التسريبات المتوالية على غرار ما قام به العميل سنودن قبل سنوات. لقد دارت عجلة العصر المجنون نحو تخوم حرب الأبواب الخلفية وأشباح المتسللين.

ليست مدينتك هي وحدها المقصودة، كل المدن صارت تتشابه. كم هناك في العالم من جائعين! كم هناك في العالم من ناقلين! المدن التي استفحلت صارت عبئاً على العالم. الغلاء يجتاح وطواير البطالة والسكن تزداد في كل مكان. الأناركيين يزدادون في الساحات ويرفعون شعارات اللاحوكمة. المدن المكدسة بالسكان صارت أعتى من قوات الشرطة، والجائعين توحدوا خلف موجات الإناركيين في كل مكان. الحكومات خدعت الشعوب والأجيال التي خرجت إلى الأرض لم تعد تعرف انتماء، الكل ينتمي إلى التكنولوجيا، ذلك هو منصّتهم التي يعترفون بها ويريدون تحقيق كل شيء عبرها

القرود الذي نبت في خلاء المستقبل الذي لا يجيء، صار هو المستقبل عينه. الفكرة التي خرجت من رحم الإحباط، عنيفة ومحصّنة ضد السقطات، تحوّلت إلى منصة للأحلام. الأناركيين يسطون على حاضر الدول التي ركبت تحت ركام السياسة لدهور، طبقات من القيود والتراكمات الثقيلة. الآن يهجم اللامنتمون بخفّة ويطبّقون على الحاضر المتبلّد. الأناركيون يهبطون إلى الأرض وشعاراتهم تكسو طرقات المدن. ألوف تدافعت من ضيق البحث عن الفرصة إلى ضجيج الثورة على النظم المهيمنة. الأناركيون ينتشرون

كالطوفان وينظرون إلى عالم جديد بلا سلطة. الأقنعة تقود المظاهرات في المدن التجارية الكبرى. لا أحد بمأمن من غضب اللامنتمين. الرأسماليون يتشبثون بآخر فرصة للحفاظ على ما يملكون ويحركون الحكومات لتبسط بخطر الأناركيين الجدد.

العالم يخرج عن السيطرة والثورات تتوالى في العواصم الكبرى. العالم يأكل بعضه بنهم. الكل الآن يتذوق طعم الفوضى تنتقل الأفكار كالعدوى من بلد إلى آخر الرأسمالية تترنح بينما يعتلي الأناركيون المشهد. الحكومات تقدّم استقالاتها والسياسات تتغيّر ولكن العالم لم يعد ينتظر الغد، الكل يعدو الآن بجنون. الأفكار القديمة تتساقط وتنشأ محلها أفكار أخرى في لمح البصر، العالم يتبدل وتترنح موازينه المعهودة. يخوض حربه الكبرى ضدّ نفسه، هذه المرة كانت الحروب كلها داخلية.

مرحباً بك في تخوم العالم المتعولم حتى النخاع، هنا ليست البضائع وحدها هي التي تنتشر، بل الأفكار أيضاً القرية الواحدة، أحيائها متلاصقة. أهلاً بك في العالم العنكبوتي الشّره للتغيير لم تعد تصلح معه المسكّنات، لم تعد توفقه الحواجز، يتجمهر خلف الأفكار الطائحة الفكرة ما أن تتشكّل حتى تجتذب المحبطين ثم تخرج وتصير حقيقة على الأرض حتى تجتذب الطامحين العالم يسقط في زمن الأفكار المضادة التي ترسبت واستفحلت طيلة سنوات في دهاليز الفضاء الإلكتروني. الأفكار المستعصية ترسخت وصارت مارداً لم يعلم أحد بقدومه.

إنك لا تتغير إلا عندما تصبح غير قادر على تحمل البقاء كما

أنت، عندما تصير حملاً ثقيلاً على نفسك . الآن تصطدم بذاتك التي تحاول الهروب منها يعصف الثقل بكلِّ مَنْ ضجروا من الحياة . تخرج أفكار القرد لتنتشر في كل مكان . الآن الأشياء تتغير، في طرفة عين، وللأبد .

المنظمة

أنا الدروب الميته

وأنت الحي الوحيد.

أربع سنوات مضت وهو يمرّ بين الحلم والبشر عندما ستبحث عنه ستجده في حكاياتهم. لقد ترك وراءه أثراً في كلّ من مرّ عليهم وعرفوه. ستسمع عنه الكثير من القصص والحكايات. سيقولون إنه كان دوماً يطارد أحلاماً بعيدة ويتحدث عن مشروع يستحيل تحقيقه، لكن لسبب ما ستلمع عيونهم بومضات من الأمل وهم يحكون حكايته، بالرغم من كل شيء كانوا يصدقونه. قالوا إنه في البداية أتى وحيداً يجوب الطرقات. بعد حين ظهر مساعدٌ له يلقَّب بالعقري، يتبعه أينما ذهب. حكوا كيف إنه بعد شهور قليلة تجمّع حوله الشباب وصاروا يعملون معه. تُحكى الكثير من الحكايات عن شباب نابغ يتجمعون حوله في حلقات عند ساحات الجامعات ويعرضون مشروعاتهم على الجموع. أفواجٌ من الشباب تأتي من كلّ صوب وتنضمّ لشارك. لم يتركوا جامعة إلا وانتشروا فيها يروون عنه أنه لم يبأس قط ولم يتوقف عن المضي قدماً حتى عندما كان وحده. يقال إنه وفي يومٍ ما خرج إلى العلن بفريق سمّي باسم «المنظمة».

كيف ومتى تطورت الفكرة؟ لم يكن أحد يعلم، ولكن المؤكد أنها أخذت سنوات من العمل لتهيمن على الكثيرين ممن تبعوها وانخرطوا فيها يُقال إن السنة الأولى كانت أصعب السنوات التي مرّ بها في طريقه. لم يكن أحد يعلم تحديداً أين بدأ وكيف استقطب رجاله السبعة عشر! هؤلاء كانوا بلا شك أهم رجال رأوهم. كيف انتقاهم وكيف أعدّهم ودرّبهم؟ لم يكن أحد يعلم، ولكن الثابت في المشهد أنهم كانوا جميعاً الأفضل على الإطلاق. يُقال إنه جمعهم من مدن كثيرة وإنهم يعملون وكأنهم على قلب رجل واحد، لا شيء يؤخّره عن المضي قدماً ولا أحد يفهم كيف صاروا هكذا!

تظنّ حكاياته تتردد في كل مكان ذهب إليه. يقال إنه في العام الأول لم يكن يسعى لانتشار المنظمة ولكن كان هدفه الأول هو اختيار رجاله في أروقة المعاهد التعليمية والجامعات قابلاً لوف الشباب وتناقش معهم. كانت لديه فكرة واحدة وهو يطالع الوجوه ويتفحصها، الرجال قبل المهمة. بعد أن اختار بعناية الرجال السبعة عشر شكّلوا نواة المنظمة، بدأ مهمة تكوين شبكة المنظمة الكبرى بمعاونتهم.

هذه المرة كان قد تعلّم من دروس الماضي أربعة سنوات قضاه في اتحاد الطلبة وسنتين في النقابة وقرابة السنة في الجبهة السياسية، أكسبته الخبرات التي يريد لها لتشكيل المنظمة. يطلّ في عيون مجموعته الجديدة. هؤلاء الشباب الصغار هم الأفضل على الإطلاق، انتقاهم بصبر من بين أوف الشباب. عيونهم تشعُّ بالأمل نحو المستقبل وإرادتهم لا تلين. تلك كانت خلية العمل الأولى والتي أطلق عليها اسم الفريق التنظيمي. كانت مهمتهم هي تشكيل

فرقهم في كلّ جامعة ومحافظة. اختارهم ليكونوا قيادات. كلهم كانت لديهم قدرات تنظيمية وحسّ قيادي عمل ياسين على تنميته وصقل قدراته. لَقَّنهم مهماتهم لينتشروا حاملين الحلم للأبعد. في كلّ بقعة على أرض الوطن كان هناك كثيرون منتظرين حلماً ما لا يعرفون شكله. كانوا يبحثون عن قدوة تقودهم. ذات مساء رأوه أمامهم. يقف بينهم على الأرض، يتحرك أمامهم ويصمد معهم حتى النهاية. هذا هو الحلم الذي راودهم طويلاً، أطلَّ فجأة قادماً من مكان غير معلوم. يمضي وحوله السبعة عشر شاباً منتشرين بين الجموع

لَقَّن رجاله المهمة الكبرى وبدأوا في رحلة البحث عن العقول. أوّل العقول التي مرّت بخاطرته كان بالطبع حسين شامة. ذات صباح اتصل ياسين بحسين شامة الذي كان قد التحق بالعمل مع فريق تقني للاتصالات في شركة دولية. سأله إن كان باستطاعته الانضمام إلى المنظمة. لم يتردّد حسين للحظة في قراره. في الصباح التالي لحق حسين شامة بياسين على الطريق. تنقلاً سويّاً بين النزل المتواضعة في المدن. اقتسما السرير والرغيف. يجوب ياسين مع فريقه الجامعات بحثاً عن العقول الشابة بينما كان حسين قابلاً أمام شاشة حاسوبه يعمل ليل نهار على برمجة منصة المنظمة وقاعدة بياناتها

المنظمة مصّت تفتّش عن العقول المتوارية في الزحام، يتفحصون مشروعات التخرج، يطالعون براءات الاختراع والأوراق البحثية، ينقّبون مدرجات الجامعات وفصول الدارسة، يجمعون أنبغ المهارات ويستقطبونها للمنظمة. في غضون أشهر اتّسعت شبكة العقول وغطّت نطاقات المدن من الشمال إلى الجنوب. شبكة

العقول بدأت تحريك الفكرة نحو آفاق جديدة. الأشياء التي تبنيها العقول أقوى من الأشياء التي تبنيها الأذرع. المنظمة جمعت العقول الشابة في منظومة كبرى متصلة بعضها ببعض عبر قاعدة بيانات ضخمة وفرق بحثية متشعبة بدأت في تشكيل أهداف كبرى. أهداف لم يكن حتى ياسين يحلم بها يوماً ما كان حلمه فقط في أن يجمع خيرة العقول الشابة على أرض الوطن ويصلها بعضها ببعض لتعمل سوياً المشروع تطلّب مجهوداً خرافياً وواجهته صعوبات كبيرة ولكنه كان عازماً على المضي حتى النهاية.

بدأت العقول المتجمعة داخل الشبكة تتواصل وتفكر وتحلّل. في خريف العام 2015 أطلقت شبكة العقول مشروع المنظمة الأكبر لتشكيل مجتمع موازٍ. المجتمع الموازي كان يقوم بكل شيء بنفسه. يضع المشاريع وينفذها ويشرف عليها الحكومات المتوالية كانت تنزعج من المنظمة وبدأت في عرقلة نشاطاتها ولكن المنظمة كانت قد اتّسعت بشكل كبير في كل جامعة ومدرسة، قاموا بتطوير نظام تعليم موازٍ مختلف وبدأت عقول المنظمة في وضع مناهج تعليمية متطورة. المناهج والكتب المنظمة بدأت في الانتشار وبدأت تدرّس في الفترات المسائية بعد أوقات الدراسة الرسمية. مع الوقت بدأت المناهج والسبل التعليمية المتطورة تجتذب الطلاب. تشكلت ورش عمل وأفكار مشروعات في كل مكان وشارك الطلاب في خلق حلول لمشكلات عديدة في المجتمع شبكة العقول ومشاريعها البحثية بدأت في التوسع في المجالات المختلفة وفكرة المجتمع الموازي بدأت تتسع لأفكار أكبر

ذات مساء وبينما كان ياسين وحسين يتنقلان في طرقات جامعة

الإسكندرية ليتفقدا مشروعاً تعليمياً موازياً أقامه طلاب المنظمة في كلية الهندسة توقف حسين فجأة وتسمّر أمام أحد الجدران. وقف مستغرقاً في التفكير دون أن ينبس بحرف. لم يعرف ياسين ما أصابه وأوقفه صامتاً أمام رسومات الجرافيتي المتشابكة على الجدار. حسين المبتسم دائماً تحولت قسماات وجهه فجأة لتعكس وجوماً شديداً لم يره ياسين من قبل. حسين لم يقل شيئاً ولكن ما أن غادرا مبنى الجامعة حتى أخبر ياسين بأنّ عليه العودة إلى القاهرة. كان ذلك في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2016 ومن يومها انقطعت أخبار حسين شامة تماماً. بعد شهور من اختفائه عاد حسين للظهور فجأة برسالة غامضة وصلت إلى ياسين بينما كان عائداً من جبال الجلالة. ما الذي حدث لحسين شامة؟ وكيف اختفى وكيف عاد رغم انقطاع الاتصالات؟ لماذا يستدعيه الآن؟

المحاكمة

أنا السر المفصوح

أنا كل لعنات ماضيك

أنا المواجهة المحتومة .

الحقيقة ، مَنْ منا الذي يريد الحقيقة؟ لا أحد في تلك البلد يريد

الحقيقة . لا أحد سيقدر على تحمّلها

القرذ يهدم الحوائط كلها بحثاً عن المواجهة . القرذ يريد أن

يعرّي السنوات كلها ويتركها بلا غطاء . هم الآن في مواجهة كل

الأشياء المحظورة . هم الآن يحاكمون الزمن ليعترف .

ترتفع المؤشرات وتضجّ اللعبة بالحركة في انتظار المرحلة

الموعودة . ينتشرون ويعودون محمّلين بالمتهمين . كم انتظروا من

سنوات بلا عدالة؟ كم فقدوا الأمل في أن يأتي يوم القصاص؟ كم

ظلّ الجنّة يسيرون طلقاء على أرض ذلك الوطن؟ كم أمضوا من

سنوات يعلقون المشانق على الحوائط فقط وفي رسوم الجرافيتي؟ كم

صفوا من أسماء الضحايا الواحد تلو الآخر على الجدران والأعلام؟

سنوات الثورة والمسيرات واليأس . خيبات من الأمل تكدّست فوق

بعضها وجثمت على صدورهم وهم يحلمون بالموت لكل الأوغاد .

الآن ، والآن فقط يحققون أحلامهم بأيديهم . لا تحكمهم السياسة

بأكاذيبها، لا تعرقلهم القوانين، لا يعترفون بالدولة ولا بدساتيرها المتعاقبة الآن يصطادون الأعداء في الخلاء.

توشك المرحلة على الانتهاء إلا من بعض الفرق التي ما زالت تتعقب الدمى الباقية. ارتفعت مؤشرات حصد النقاط للاعبين الفائزين. يجرون صيدهم في صفوف طويلة ويمرون به بين حشود القرد المتجمعة في الميدان منتظرة لحظة العدالة. تزار الجموع بهتافها الخالد «القصاص. القصاص» وتدبّ أقدامهم في الأرض فترتج الأركان. تزجّ الدمى المكبّلة في غرف مجمع التحرير في انتظار المستوى القادم. اعتلى كثيرون منهم مرتبة قرد كبير بعد نجاحهم في اصطياد من الوزن الثقيل وتأهبوا لما ستأتي به اللعبة من تحديات. الأدرينالين يحلّق عالياً في عروقهم ومشاهد الدمى وهي مكبلة تبعث على الزهو

مع ظهور قوائم النتائج النهائية تبيّن أن هناك فرق كثيرة فشلت في اجتياز تلك المرحلة التي وصفها بعضهم بأصعب مراحل اللعبة. بعض السياسيين كانوا قد لاذوا بالفرار مع بداية الهجمات، تبخروا وكأنهم لم يكونوا هنا يوماً ما أما المفاجأة الكبرى التي تابعوها على شاشات النتائج غير مصدقين فكانت فشل القرد الأول في حصد نقاط المرحلة. كيف يفشل القرد الأول في اصطياد دميته؟ اعتلى الدهول كافة اللاعبين، فقد كان بالنسبة إليهم أسطورة لا تقهر كذبوا أنفسهم، لا يمكن أن يفشل القرد الأول. ظلوا يراقبون كود القرد الأول على لوحة النتائج منتظرين أن تتغير يثقون بأن القرد سيفاجئهم وسيحرز نقاط المرحلة في أي لحظة.

في الرواق الطويل المظلم بمجمع التحرير، تناهى إلى مسامعه حوار جانبي بين اثنين من فرق الحراسة.

- شفت الكلب اللي جوا بارد إزاي؟

- أنا لو منه أنتحر

- الغريب إن ولا واحد منهم انتحر بعد كل الفضايح اللي بتتكشف.

تومض هواتفهم بعلامة القرد الأول تقترب فيتوقفوا عن الحديث محذقين في الظلام. يقترب منهم ثم يهمس قبل أن يواصل طريقه - في بلدنا السياسيين ما بيخافوش. عمرهم ما شافوا حدّ نال جزائه.

يتهامسون بينهم موافقين، كم هو محق. الساسة دائماً في تلك البلد يفلتون من العقاب.

يمرّ القرد الأول في أروقة المجمع الذي صار سجنًا عملاقاً مكدساً بالأسرى التي ظفرت بهم المرحلة. المجمع يقبع تحت سلطة فرق حراسة لا تنام. ينتقل بين غرف المبنى في الليل متفحصاً وجوه السجناء الواحد تلو الآخر ربما كان اللعين بينهم ولكن باسم مستعار. صعد إلى الدور الأخير في المبنى حيث تكدست الدمى الإعلامية وأخذ يمر بين أجسادهم المفترشة الأرض. يسلط كشاف ضوء صغير على الوجوه في محاولة يائسة للعثور على دميته.

يخرج من المجمع عائداً نحو مقرّه الدائم في قلب شارع محمد محمود. ينتقل بين وجوه الشهداء المرسومة على الجدران حتى يصل إلى الوجه الذي لم يفارقه قط، وجهه يطل من أعلى الجدار ليذكره.

الآن يعود القرد الكامن فيه، يعصف بكل خلاياه ويؤجج غضبه .
القرد يريد الوغد بأي ثمن . كيف هرب اللعين؟ لن ينام القرد، لن
يهدأ حتى يصل لما يريد .

* * *

أنا الدِّين القديم

أنا المستحق السداد

أنا لا أسقط بالتقادم .

يطلّ الصباح وتتسرب بعض خيوط الشمس من بين ضباب
الدخان الرمادي القابع فوق الميدان . تومض الشاشات بمرحلة
جديدة جاهزة للتحميل . تنتقل اللعبة إلى مستوى جديد . تعلق
الهتافات في كل مكان على الأرض عندما يظهر اسم المرحلة
الجديدة . ها هو الوعد المنتظر اليوم تبدأ المحاكمات الثورية . بدأ
التفعيل وظهرت أيقونة البث المباشر على شاشاتهم . الآن ينطلق
البث الحي من داخل اللعبة للعالم .

المشهد الأول يُظهر أروقة المجمع حيث بدأ المقتنعون اقتياد
الشخصيات السياسية للخارج . تدوي الهتافات في الميدان
«القصاص . القصاص» تعلق دقات الطبول بينما يمرّ المتهمون بين
الحشود . يقتادونهم نحو شارع القصر العيني .

ينقطع البث وتطلّ على الشاشات أيقونة لُقْبَة مجلس الشعب
وتحتها شعار «المحاكمات الثورية» . يتحرك مؤشر التحميل متقدماً
نحو لحظة المواجهة . تظهر الرسالة الجديدة :

«القرد الأحمر يعلن المحاكمات الثورية

لا تنازل عن حقوق من ماتوا

لا تنازل عن حقوق من سجنوا

لا تنازل عن حقوق من ضحّوا ودفَعوا الثمن

القرد الأحمر يحاكم

القرد الأحمر يطبق العدالة

كل السفاحين سيواجهون ضحاياهم

القرد يضع الجاني في مواجهة الضحية

القرد يفصح أعداء الوطن

بثوا المواجهات ليرى الجميع من هم الخونة

افضّحوا القتلة والعملاء

افضّحوا أعداء الثورة

القرد الأحمر

يعلن المحاكمة الشعبية الأولى في تاريخ هذا الوطن»

تبدأ التعليمات في التوالي على اللاعبين. ها هي النقاط تتحرك على الخريطة من جديد. الأهداف في تلك المرة كانت أهدافاً صديقة. قادوا حافلات النقل العام وانطلقوا في الطرقات يجمعون أهالي الشهداء ومصابي الثورة وألوفاً من المواطنين الآخرين من مناطق فقيرة معدمة. يجمعون كل الضحايا الذين يعرفونهم ليحضروا المحاكمة. بعد ساعات بدأت كل محطات التلفزيون تبثّ

المحاكمات من داخل نطاق اللعبة. أتاحت اللعبة عبر شاشاتها، بثاً
حياً من داخل قاعة مجلس الشعب الكبرى.
جاري تحميل «محاكمة قتلة الثوار».

يصطف كبار القروء فوق المنصة ولسبب ما لم يكن بينهم القرد
الأول. لم يكن عضواً في منصة المحاكمات. الجالسون على
المنصة لم يكونوا قضاة. محاكمات القرد لا تعرف قضاة ولا ممثلي
ادعاء ولا محامين. المتهم هنا يقف أمام قدره على خط المواجهة
بلا غطاء. القرد لا يحاكم، بل يكشف المستور. قانونهم علقوه
فوقهم على المنصة: «الحكم للشعب».

تلك كانت محاكماتهم التي خرجت للعلن. المواطنون مذهولين
أمام الشاشات يشاهدون بأعينهم وجوهاً من أعتى القيادات تدخل
القاعة. تزداد حيرتهم وتوسع أحداقهم في مواجهة المشهد المهيب.
كل الرؤوس التي تعاقبت على المناصب المسؤولة، تجرّ الآن مكبلة
في الأصفاد. هذه المرة ليست مسرحية هزلية كتلك التي اعتادوها من
قبل هذه المرة يعلمون أن القرد أعتى من أن يفلت أحد من قبضته.
لقد رأوا بطشه بأعينهم على مدار أيام. لقد فروا من جحيمه
واختبؤوا هذه المرة يعلمون يقيناً أن هؤلاء المقنعين لا يتراجعون
عن أي شيء يريدونه.

الاعتراف هو دليل الإدانة. ينادى على المتهم الأول ثم ينادى
على أسر الضحايا يتلى على المتهم قانون القرد الأحمر «اعترف
بكل ما فعلت» تثبت الكاميرات على المتهم أولاً ثم يبث ملف
كامل عن القضايا المتهم فيها وقضايا الانتهاك المنسوبة إليه. يواجه

المتهم بضحاياه من أهالي الضحايا ويطالب بالاعتراف أمام العالم بمسؤوليته. تهتف الحشود المتجمعة داخل القاعة وفي الخارج بالقصاص. يتبادل المتهمون الاتهامات ويسبون بعضهم بعضاً الهلاك قادم لا محالة. ماذا سيفعل بهم القرد الأحمر؟ هل ستركهم لضحاياهم ليفتكوا بهم؟ أم سيطلق عليهم جيوش المقنعين المكدسة داخل القاعة وخارجها؟ من سينقذهم الآن من هؤلاء الشياطين التي تقف فوق رؤوسهم كنذر الهلاك؟ هل سيتم التمثيل بهم؟ هل سيعدمون أمام أعين أولادهم وأسرههم؟ تمنوا لو كانوا قد غادروا البلاد عندما أتحت لهم الفرصة. تمنوا حتى لو كانوا مثل الآخرين المسجونين في سجون الدولة. هؤلاء المحظوظين نجوا من الجنون المحقق. تستعر صيحات الحشود في الخارج ويتأجج الفزع كالإعصار. تهوي قلوبهم في صدورهم ويطالعون غضب الضحايا ونحيبهم. يبدؤون في الاعتراف. يشيرون نحو بعضهم بعضاً ويلقون بالاتهامات على رؤوسهم. الكل يعترف على الآخر، الكل يريد أن يفرّ بنفسه. الفضائح تتوالى بعد أن ظلّت أسراراً لسنوات. جبال من الفضائح تتساقط وبحور من الأكاذيب تنكشف في معمعة المواجهات. يتواجه الجميع ويفضحون أكاذيب بعضهم بعضاً تنحلّ الصفقات من موثيقها ويتضح أن الكلّ شارك في الجريمة بالتستر أو الاتفاق. كثيرون اعترفوا ولأول مرة بعضهم على بعض بمسؤوليتهم عن العنف ضد الثوار. بعضهم قدّم الدعم وبعضهم اتخذ قرارات. تبث اللعبة وثائق وفيديوهات عن المصادمات التي حدثت. تزداد الملفات التي حصلوا عليها من خلال شاشات كبيرة ركبوها داخل قاعة المحاكمة. تستمر الاعترافات بلا توقف. كل المتهمين أيقنوا

أنّ القرد يعرف كل شيء . القرد يمتلك أدلة الإدانة جاهزة ويهدد بالكشف عن المزيد . لا بديل سوى الاعتراف . تدق النواقيس في القاعة ثم تخلى لتبدأ جولة جديدة .

جاري تحميل «محاكمة الكبار»

كانت تلك هي المحاكمات الأكبر والأكثر إثارة وجدلاً احتوت القاعة كبار السياسيين، كل الرؤوس الكبرى . تبدأ قائمة الاتهامات والساسة يخادعون في الردود، يلتفون حول الحقائق كعادتهم، يعترفون بتفاصيل صغيرة ثم يتصلون من كل شيء في السياق الأكبر علقوا رايات نياتهم لتبدو بيضاء أمام الجميع . تنصلوا من كل أتباعهم ومواليهم . تبرأوا حتى من أحزابهم ومن توجهاتهم السياسية . تراشقوا الاتهامات حتى كادوا يفتكون ببعضهم في ساحة القاعة لولا فصل قوات القرد بينهم . كل الساسة كانوا أعداء بعضهم . ضباع لا تشبع أبداً من الاقتتال على نهش جيفة السياسة . كذبوا ودلسوا وراوغوا بقذف التهم يميناً ويساراً أطالوا الأمد ولم يعترفوا بشيء يُذكر، كل شيء كذبه أو أخرجوه من سياقه، لكن القرد الأحمر كان مستعداً للالتفاف هو أيضاً يسلط عليهم القرد أعمالهم . انفتحت القاعة فجأة ودفع القرد بطوفان من الضحايا أدخلوا المواطنين المعدمين من كل الفئات وتركوا الساسة وجهاً لوجه أمام الأفواه التي جاعت لسنوات . يتخاطفونهم من وراء سياج الحديد الفاصل . يريد المواطنون الفتك بالساسة والملايين تشاهد الشاشات وتهتف في كل بيت «انتقموا منهم» أدمعت الأعين

وهي ترى رؤساء حكومات وواضعي الدساتير ووزراء تعاقبوا على خراب البلد، يرتعدون أمام فقراء مجهولين جاء بهم القرد من الأحياء المعدمة. الآن صار القرد على حافة المجد. القرد يحصد القلوب أمام المشهد الكبير القرد الآن ولأول مرة يكسب تعاطف الشعب مع محاكماته.

تفصل قوات القرد بين الجميع وتلقي اللعبة ورقتها الأخيرة الساحقة. يبدأ بث الوثائق الحكومية تباعاً وكشوف موازنات الدولة. فيلم تسجيلي كامل يكشف أرقام إبداعات في بنوك الخارج وتسويات مالية وأرقاماً متلاعب بها تُرسم دوائر حمراء حول الأرقام المتلاعب بها وخطوطاً تحت الأسماء. تبثّ وثائق لصفقات سياسية غير معلنة بين مسؤولين حكوميين وأحزاب سياسية. تلك الوثائق تكشف أسباب سياسة كانت وراء القرارات المهمة التي اتخذت في السنوات السابقة. تُكشف التريبطات الخفية لأول مرة وتذاع محادثات إلكترونية وتليفونية تمت بين سياسيين سجلتها جهات تمّ الكشف عنها لأول مرة. ما أن توالى تباعاً أسماء المصادر على الشاشة حتى انفجرت المفاجأة مدوية على وجوه الجميع. حتى السياسيين أنفسهم لم يصدقوا ما يحدث. لقد كانت المصادر هي عدة سفارات أجنبية قام القرد باختراق أجهزتها ومراسلاتها السفارات كانت لديها من الوثائق والتسجيلات ما هو كفيلاً بنسف أيّ شخصية سياسية وفضح الحكومات المتعاقبة. مع كل وثيقة تُنشر كان يظهر بأعلى الشاشة شعاراً لمجموعة ما من الأنومينوس. عشرات من مجموعات الأنومينوس في بلدان تلك السفارات اشتركوا مع القرد في عملية اختراق كبرى لوثائق السفارات في الشرق

الأوسط سميت «أوب دبلوماسيتيك» لقد كان القرد يعرف جيداً كيف ينتقل من خطوة إلى أخرى، لقد كان مستعداً لكل مرحلة ليضرب ضربته التي لا تخطيء.

أدين كل الساسة الذين وقفوا صامتين أمام الملفات التي بثت أمام الجميع. تمّ اقتيادهم مجدداً إلى محبسهم في المجمع وفرغت القاعة من المواطنين لتبدأ جولة جديدة.

* * *

جاري تحميل «محاكمة القوادين والعاشرات»

أتوا بالمذيعين والإعلاميين وملاك الصحف والقنوات الخاصة للقاعة. كشفت ملفات كبرى عن مصادر التمويل والعمولات والتريبيطات التي حدثت خلف الكواليس. تمّ بثّ اتصالات سرية تمّت بين الإعلاميين وسياسيين تكشف عن اتفاقات بترويج أشياء بعينها خرجت على الملأ صوراً تكشف مصادر أموالهم ورواتبهم. كشفت أرقام حسابات وتحويلات من الخارج والداخل. اعترف المئات منهم بأنهم كانوا يعملون بناء على توجيهات لرجال أعمال كانت لهم مصالح اقتصادية في أوقات معينة مع أطراف سياسية. بعض القنوات والصحف مؤّلت بشكل مباشر من دول خارجية تمّ الكشف عنها اعترف معدّو البرامج بألوف من الفضائح تمّت في دهاليز البرامج. الشكوك كلها صارت حقائق تنفشع للجميع. بعض الإعلاميين أنكروا الاتهامات ولكن القرد كان مستعداً كعادته بطرف المواجهة الآخر تمّ الزج ببعض رجال الأعمال الذين واجهوا أيقونات إعلامية كبرى وكشفوا عن المبالغ التي تلقوها مقابل توجيه

الرأي العام في اتجاه ما نشر القرد وثائق مالية تفضح فساد إعلاميين كبار وحجم البيزنس الذي تمّ على مدار سنوات. أعلنت المنصة قرارها بإدانة الجميع وتمّ جرّ الإعلاميين بعنف شديد إلى خارج القاعة. القرد كانت تتعامل معهم بحدّة وتعتمد إهانتهم.

يقف القرد الأول في الرواق الكبير المؤدي إلى القاعة منتظراً القادمون لجلسة المحاكمة الأخيرة. ها هم يأتون إليه مكبلين في حراسة فرق القرد. يعرف الوجوه التي تمرّ عليه. كم مرّ من الزمن؟ سنوات من الخيبات. يمرون عليه فيطلّ في عيونهم الواحد تلو الآخر أين العميل الأقدر بينهم؟ لم يستطع أن يسقطه.

جاري تحميل «محاكمة البلهاء»

تضج القاعة وتبدأ محاكمة النشطاء السياسيين. يقف عبد القادر مكبلاً إلى جوار شريف سماحة في صفّ طويل من الناشطين المتهمين. تحاصرهم لائحة طويلة من الاتهامات بدأت بتغليب المصالح الشخصية على مصالح الوطن، إفساد الثورة وتشتيت الثوار ثم انتهت بالخيانة. ضجّ النشطاء مكذّبين الاتهامات قبل أن يمارس القرد لعبته ويُخرج ما في جعبته.

يخرج ملف شريف سماحة على الملأ شريف عبدالغني سماحة هكذا تشير الحسابات البنكية التي كشفت اسمه ومحل إقامته في مصر الجديدة وتضخم رصيده ما بين عامي 2011 و2016 بصورة كبيرة. انفجرت الفضائح على صفحات مراسلاته، سفريات إلى الخارج وتسهيلات للحصول على تأشيرات وحجوزات طيران وفنادق تلقاها

من مؤسسات دولية ومحطة إخباريه أوروبية عمل بها كمراسل مستقل . لم يتوانَ الجوكر عن فرد الملفات الواحدة تلو الأخرى قبل أن يبث وثائقه الأكثر إثارة. تظهر على الشاشة وثنائق من سفارة أجنبية كبيرة تثبت أن شريف كان يعمل لحسابها إيصالات تلقي أموال ونسخ تقارير كان يقوم بتقديمها بشكل دوري وصور له داخل السفارة بصحبة سياسيين كبار. يهتف شريف بحقن في القاعة مكذباً كل ما يُعرض ولكن البث لا يتوقف. تخرج مراسلاته عبر مواقع التواصل وفضائح غرامية مخجلة، لقد استغل شهرته كناشط لاجتذاب المعجبات. كل شيء مكشوف في العراء الآن. تاريخه كله يبث على العلن. لم يكن يعلم أنّ كل هذا سيخرج ذات يوم على الملأ يهتف بلا توقف ولكن البث مستمر

بعد شريف سماحة يأتي الدور على الجميع تبعاً، الواحد تلو الآخر. تنهال على الشاشات الفضائح المتراكمة منذ سبع سنوات. يفتح الجوكر فمه الكبير ويلقي ما في جعبته. تفتح أرقام الحسابات البنكية المتضخمة ومراسلات هواتفهم وذاكرة أجهزتهم بكلّ ما فيها والجوكر ينتقي منها ما يريد بحرفية ومهارة. هيستريا الجوكر تطيح بالمتهمين الذين تكذّسوا خلف السياج الحديد. تنامى سخطهم ورفعوا سقف هتافهم. نادوا بسقوط المحاكمة التي لا يجب أن تحاكمهم لأنهم هم الثوار. نادوا بسقوط دولة القرد. ضجوا بقوة يهتفون ضد القرد وشعاراته ودولته.

لقد وقعوا في الفخ الكبير. لم يلحظوا أن محاكمتهم كانت بلا مواجهة مع أطراف أخرى مثل باقي المحاكمات. أعماهم غرورهم المعتاد عن خصمهم الذي لا يشبه أحداً إن خصمهم هو آلاف من

القرود تقف داخل القاعة منذ أيام. إنهم الغاضبون. إنهم جيل لا يشبه كلَّ من سبق، إنهم جيل لا يتوانى عمّا يريده. القرد لا يعرف السياسة، القرد لا ينتظر حلولاً ولا ينخرط في التراشقات وتبادل الاتهامات. القرد يبطش.

هتف النشطاء بسقوط دولة القرد ولم يعلموا أنّ القرد شرس. القرد الأول يطلّ في شاشة هاتفه غاضباً ودون تردّد يقوم بفتح قائمة الاختيارات. يعدل نهاية تلك المحاكمة ويتركها مفتوحة بلا تعليمات. يطلق يد اللعبة ويغادر المكان. بعد ثواني انفتحت الخيارات أمامهم على الشاشة فانطلقوا دون تردّد. فتحت الحواجز المعدنية وانسحبت الحراسات من حول النشطاء. انطلق الطوفان الذي لا يردعه أحد، يضرب بقبضته كل شيء. لم يعلم النشطاء وهم يهتفون أنّ هذا الجيل المقنع ليس مثلهم. لم يعلموا أن هؤلاء غضبهم أشرس وهو سهم أعتى. لم يعلموا أن دولة القرد تقع على درب النهايات حيث لا شيء يخسروه. لقد أتوا إلى هنا وسيذهبون حتى آخر المدى.

القرد يدهس النشطاء تحت أقدامه. القرد يجرحهم من أيديهم وأرجلهم إلى الخارج ويسحلهم في الطرقات. اللعبة مفتوحة على مصراعيها والقرد يسحق بلا رحمة. سقط المئات من مشاهير النشطاء الذين كانوا ذات يوم ملء السمع والشاشات، سقطوا تحت أقدام المقنعين.

ساد الرعب واحمرّت عين القرد غضباً لا أحد يختبر القرد إن غضب، لا أحد يستطيع أن يقتنص منه الفرصة أو أرض المعركة. إنهم دوماً على بُعد لحظة واحدة من الجنون، دوماً متأهبون للبطش

بكل ما كان على الأرض. إنهم يمقتون كل ما مضى، إنهم يمقتون كل الوجوه التي سكنت السبع السنوات. يريدون أن ينتقموا من تلك الحقبة بكلّ ما أوتوا من قوة. هذه المرة لم تكن اللعبة تحرضهم، لقد كانوا محرّضين بالفطرة، وغاضبين بالنشأة وثوريين بحجم الإحباط.

سقط قرابة المائتي ناشط سياسيٍ مخرجين بالدماء على طول الطريق من ساحة مجلس الشعب وحتى الميدان. لم ينجُ أحد ولم يبقَ أحد. تهدر الحشود في الميدان بالقصاص، يتعطشون للفتك ببقية السجناء. ولكن اللعبة لا أحد يستطيع توقُّع مسارها لا أحد يعرف ما هو قادم.

تتطلع عيونهم نحو السماء التي تطوف بها طائرات الهليكوبتر ولا يكثرثون بالإندار الأخير الذي أرسل صباح اليوم، أتهم الرسائل بأنّ عليهم أن يتركوا السجناء ويتراجعوا مع وعد بمحاكمات عاجلة لكل السياسيين الآن اقتربت الطائرات أكثر بعد أن تابع الجميع مذبحة النشطاء على الشاشات قبل دقائق.

لم يكونوا يأبهون بأحد ولا يعني لهم العالم أي شيء، كلّ ما كانوا ينتظرونه هو شيء واحد فقط ولا شيء سواه، كانوا في انتظار اللعبة لتأخذهم إلى مرحلة جديدة. يتابعون شاشات الهواتف متطلعين بشغف عظيم نحو المرحلة القادمة والقرود دوماً يفاجئهم. ثقتهم في القرود كانت بلا حدود.

زمن الغرباء

أنا زمن الغرباء

أتيت وحدي . وبقيت وحدي . وذهبت وحدي .

لا التاريخ انتهى ولا الزمن بدأ لا الحلم صمد ولا الواقع
ابتعد، هكذا مضت الأشياء .

مَن الذي كان يذكر الحلم؟ من منهم ضاع داخل القصة ومن
منهم بقي؟ من ذا الذي يذكر التواريخ التي مرت من هنا؟ كل
التواريخ تثبت الأشياء وعكسها في نوفمبر الأول تلاشى مروان
الناجي وفي نوفمبر الثالث تزوجت سما الضو، تزوجت في ذكرى
ميلاد مروان نفسها في ديسمبر الأول انسحب ياسين السحرتي من
الجبهة وفي ديسمبر الثاني قتل إبراهيم الكومي أمام القصر وفي
ديسمبر الثالث قتل مينا عندما مرّ خطأً بمظاهرة معادية . في يناير
الأول تأسست الجبهة وفي يناير الرابع انسحب الرفاق الباقون وفي
يناير السابع حلّ القرد محلّ كل شيء . في ذلك التاريخ كان هذا
الزمن لا يستحق سوى القرد ولا شيء سواه . لقد ظهر القرد وحده
عندما ضجرت الأرض بمن عليها أتى القرد ليدهس ما بقي على
الأرض من حطام .

في غرفة صغيرة جدرانها مكسوة بالرسومات كان عرفة الدب يتابع المحاكمات على الشاشة وهو يرسم رسوماته على أوراق جرائد قديمة. يطالع في التلفزيون وجه عبد القادر وسط الزحام والضجيج وهو يرنو نحو المحاكمة بعيون زائغة. تقف هنا الذكريات على حافة الجنون. تغمره الذكريات وهم يتلون أدلة الاتهام. تسقط دموع عرفة الصامته بلا توقف. إن القرد على حق، ليس عبد القادر وحده هو المُدان، يشعر بأنه هو أيضاً مُدان. الآن يتذكر كل شيء بوضوح. عتمة سنوات الإحباط، انقشعت وخرجت الحقائق في لحظة مواجهة مع الذات. لماذا قالها الناجي؟ لماذا قال إن «التاريخ سينتقم منا يوماً ما»؟ يسحلون النشطاء في الطرقات وعرفة يطلّ على المشهد ويتذكر كل ما قد كان.

هل تذكر حلمك النقي عندما لم تكن تلوثه أطماعك وضعفك؟ هل تذكر أين كنت تقف في البداية وأنت تسحل على قارعة النهاية؟ الآن فقط يتذكر الجبهة، تلك الفكرة التي تبدّلت وصارت موبوءة مع الزمن. هو الأخير الذي خرج من الجبهة، تلك الجبهة احتلّها الآخرون وصاروا هم أصحابها أما الرفاق المؤسسون فتبعثروا في ريح النسيان. خرجوا منها أحياء أو أموات واحتل آخرون مواقعهم. بعد السبع سنوات لم يكن هناك أحد باقٍ سوى عبد القادر وحده. مروان الناجي مات والكومي استشهد في أحداث الاتحادية وأدهم تلاشى بلا أثر بعدها، مثله مثل ياسين السحرتي. كان عرفة لا يلتقي أحداً من الرفاق سوى درويش وكريم على المقهى القديم، هم أيضاً كانوا قد تركوا الجبهة مثله بعد أن رحل الجميع، كان يلقاها على فترات متقطعة ويمضون الوقت صامتين. في بعض الأحيان كان

يلتقي بسلمى عبر الإنترنت، لقد هاجرت شرقاً نحو حقول النفط بعد أن تزوجت، تقضي حياتها في المولات، ترتدي العباءة وتدفع أمامها عربة أطفال، تبضع الملابس والحفاضات، سلمى التي كانت ذات يوم تتقدّم المسيرات. أما مينا فقد قُتل ذات يوم على يد متشددين عندما مرّ مصادفة بجوار مسيرة مطالبة بعودة رئيس معزول. لقد صدقت النبوءة وسقط مينا ضحية لما كان يخشاه، لقد صدقت مخاوفه. ضربوه حتى نزف ومات. شيماء البهي خرجت من السجن بعد أن تمّت تبرئتها ولكنها توارت بعيداً عن السياسة والتحقت بقسم التحقيقات في جريدة عربية. لم يكونا يلتقيان إلا فيما ندر.

عرفة الدب الساكن في غياهب العالم بين جدران غرفة صغيرة، يجلس وحيداً وأصابعه تمرّ بقلم يرسم على ورق صحف قديمة وجوه الرفاق. الكومي، وجه الأسد يصرخ بشموخ في الفضاء، مروان الناجي يطلّ بوجه مخفيّ تحت ظلّ غطاء الرأس، مينا في التابوت وخلفه شعار الهلال مع الصليب، ياسين واقفاً على شاطئ نهر يطفو على سطحه الموتى، أما الوجه الأخير فلم يستطع إنهاءه، تغالبه دموعه مع أول خطّ يسطره، لم يكمل ملامح أدهم.

عرفة وحده عالق في عالم لم يعد فيه شيء يخصّه. تمنى أن يكون في الشارع الآن، تمنى أن يكون قرداً أحمر

قرأ يوماً ما أن من يولدون بلا بصر لا يحلمون. لقد صار لا يحلم منذ عدة سنوات. لقد نسي آخر حلم رآه. مهما فتّش في دروب ذاكرته لم يكن يجد شيئاً لم يعد يطلّ عليه شيء من الماضي حتى

بدأ القرد الأحمر في تلك الليلة ظلّ يتابع ما يحدث على الشاشات إلى أن غلبه النعاس. رأى في منامه مروان الناجي يقف على ناصية محمد محمود ولا شيء حوله كأنه في انتظار شيء ما سيأتي من بعيد. أفاق عند الفجر من نومه على صوت جلبة عارمة في أروقة مستشفى القصر العيني، بعدها بدقائق علم أنهم عالقون والقرد قد حاصر كل الطرقات. لم يلقِ بالاً لما كان يحدث، لم يهتم بالذعر الذي اجتاح الجميع. لقد كان منتشياً بعودة أحلامه. لقد رأى حلمًا لأول مرة منذ سنوات.

مضت الأيام التالية عليه وهو يتجول بين عنابر المستشفى في الليل. يمر على الأسرة التي تكدّس فوقها وتحتها المصابين حتى أتى هذا اليوم الذي انطلقت فيه المحاكمات. في هذا المساء ألقوا أمامه بجث المسحولين على قارعة الطريق. تطلع نحو ملامحهم التي يعرفها جيداً وتعجّب من صمتهم. كيف هم الآن صامتون بعد أن ضجوا لسنوات على الشاشات؟ يجثو على ركبته مقترباً من صديقه القديم أحمد عبد القادر. يتحسّس قلمه ويكتب في التقرير «سبب الوفاة: تضخم في الذات نتج عنه ضمور في الضمير ممّا أدى إلى الهلاك» يتابع درويش طريقه بين جث المسحولين الملقاة على أرض الطرقات المظلمة وهو يعتريه رغبة ما غريبة تبدأ في السيطرة عليه. يريد أن يصير قرداً أحمر

إنها المدينة التي صارت الآن تشبه نفسها تماماً، إنها الآن لا تداري شيئاً، كل شيء الآن يشبه حقيقته. خرابة كبرى لا تتورع عن

التهام الأشياء. القروود الغاضبون يبيتون ليلتهم في الميدان منتظرين الغد، لقد تجمعوا منذ أن بدأت المحاكمات ويطشوا بالنشطاء قبل ساعات عندما انفتحت الخيارات أمامهم. في الغد هم ينتظرون المزيد، المزيد من هؤلاء القابعين تحت قبضته في المبنى الذي يطلّ من أعلاه على الميدان.

يقف كريم عمر في نافذة الطابق الثالث عشر بمجمع التحرير مطالعاً سماء المدينة. يشعل سيجارته الأخيرة في تلك الليلة وينفث دخانها من وراء القناع. يتفحص شاشة هاتفه مجدداً متابعاً المستجدات على ساحة اللعبة قبل أن يلتفت خلفه نحو الغرفة التي تكدّس بها العشرات من الإعلاميين المشهورين يفترشون الأرض. يدور عليهم محكماً الكمّات التي كَمّم بها أفواههم. إنه قائد فريق القروود المسؤول عن سجن الدمى. لقد اختار لنفسه تلك المهمة منذ أن بدأت عملية اصطيادهم. رصيده من النقاط أهله لشغل ذلك المنصب. لقد انضم إلى اللعبة منذ إصدارها الأول وتملّكت منه. اللعبة كانت بالنسبة إليه هو تماماً ما يريده ويتمناه. لقد نسي كل ما كانه من قبل، نسي السياسة، نسي أهله واغتتم الفرصة منضماً إلى الجيل الذي لا يُقهر، لقد أصبح قرداً أحمر

بوابات المدينة

أنا زمك العجيب

أنا القادم عندما كان الجميع يرحلون.

كان المرور من البوابات يشبه حلمًا غريبًا لا يتشابه مع أي شيء رآه من قبل. الألوف تتكسد على الأرصفة بلا مأوى. الرعب مسطور على الوجوه والضياع يحلّق فوق الرؤوس المتعبة. قوات الجيش تحاول تنظيم الداخلين وإغاثة الخارجين بمواد غذائية وأغطية وخيام. النازحون يحذرون على الطرقات من الدخول إلى العاصمة مهما كانت الأسباب. المتاريس ونقاط التفطيش التي وضعها الجيش تحذر من الدخول إلى العاصمة على طول الطريق رأى مدرعات جنود تصطف لعشرات الكيلومترات. أوقفوه أمام البوابات وتفحص أحد الضباط هويته طويلًا قبل أن يطلق تهيدة يأس أتبعها بسؤال عن سبب العودة. لم يكن لديه الكثير ليقوله ولكنه ردّد مثلما قال كل من طالبوا بالمرور «لدينا أسرة بالداخل»، كان على حقّ فقد كان ثلاثة من أخوته ما زالوا بالمدينة. الكل بدا قلقًا بشدة ويتطلع حوله حائرًا سمع بعض الأخبار من العابرين معه بأن الجيش يستعد لعملية كبرى لتفريق القرد الأحمر

من هو القرد الأحمر؟ النازحون يروون قصصاً مختلفة عن القرد، الكلّ ينسج أساطير عنهم. يقولون إن الهواء مسموم وسحابة سوداء تغطي المدينة منذ أسابيع الحرائق أكلت شوارع بأكملها والطرق مقطوعة. لا يوجد ماء أو كهرباء أو مواصلات. لا يوجد هناك سوى أسطورة لا يعرف أحد لها نهاية.

يمر عابراً البوابات نحو الطريق الصاعد، كلما مشى خطوة إلى الأمام استعاد صوراً مختلطة في رأسه. يستعيد دوي المذكرات التي يحفظها عن ظهر قلب.

«أنا البيئة التي تلد القرد»

يقفز إلى ذهنه الرسم الذي رآه من شهور قليلة، إنه هو، لقد كان قرداً أحمر مرسوماً وتحت عبارة «جاري التحميل» مروان الناجي مات منذ سنوات وحسين شامة اختفى منذ أن رأى العلامة. هل كانوا يعلمون بهذا؟ يتوه في ذاته ولا يعلم هل كل هذا مجرد مصادفة؟ أم أن كل شيء اختلط في رأسه؟ ديجا فوه (déjà vue) عملاق يتلعه، يشعر بأن كل ما يحدث الآن كان قد حدث من قبل حتى الرسالة التي تلقاها اليوم تبدو وكأنها رسالة أتت منذ زمن بعيد. ها هو يعود إلى العاصمة بعد سنوات ولديه شعور ما بأنه كان يعلم بكل هذا لقد كان مستعداً

على الطريق لم يجد سوى شاحنة قديمة لنقل الخضروات لتقلّه هو وعشرات آخرون، تكذّسوا في صندوق السيارة متشحين بالأغطية من برد الطريق الذي كان يلسع الوجوه بقسوة. هو الوحيد الذي ظلّ واقفاً بينهم طيلة الطريق يتطلع نحو الأمام والهواء البارد يلفح وجهه

وكوفيته، ياسين السحرتي دائماً واقفاً في الانتظار. تلوح المدينة مقتربة وهو يبحث في ذهنه عن صورة مقربة للأشياء. خياله يتسع ليأتي بكل شيء أمام عينيه، يرى الحرائق ويسمع الهتاف. تتدافع الحشود من كل مكان ساعية نحو قلب المدينة. كيف يرى كل شيء بهذا الوضوح؟ هاله ما رأى. لدقائق انفتح خياله على مصراعيه وخرجت منه معركة كبرى لم ير مثلها من قبل يتوه أكثر في ذاته قبل أن يصفعه سؤال دوى فجأة من قرار بعيد، هل كنت تريد كل ذلك؟ يهوي السؤال كالزلازل بلا إجابة تسكته بينما كانت العاصمة تلوح مقتربة. يمتزج الأفق القرمزي بضباب رمادي مع جنوح الشمس نحو غياب ثقيل.

«كيف لك أن تتخيل كل شيء بهذا الوضوح إلا إذا كنت تريده وتتمناه؟.. لا تقل لنفسك بأنك لست مثلنا.. كيف لك أن تصف القادم إلا إذا كنت تنتظره منذ زمن بعيد وتحلم به؟.. أنت كنت تنتظر النبوءة.. كنت تنتظرهم لينهوا ما بدأ ولم ينته.. ها هي النهايات تستحکم ليبدأ بعدها زمن جديد.. تؤتى المعركة من قلبها.. يقفز الشجاع فوق الخطر.. يضرب الزمن في مخاوفه.. تمحو المعركة كل أطرافها ويبقى الشجاع الأخير.. وحده سيقف على الأرض ويرفع الرايات»

توقف السائق عند طريق الأوتسترد الغارق في الظلام وأعلن أن عليهم أن يكملوا الطريق سيراً على الأقدام. أطل أمامه فرأى انهياراً أرضياً يسد الطريق أمام السيارات. غادر الشاحنة ومضى مواصلاً طريقه نحو داخل المدينة. الطريق الممتد أمامه كان قد تحوّل إلى بحور من الماء يصعب المرور فيها يقولون إن فرق القرد كسرت

أنايبب الماء الكبرى في طريق الأوتسترد ليحصنوا أنفسهم . يقفز
متنقلاً فوق أسطح المقابر التي غمر الماء الطرقات حولها يمضي
نحو تخوم الخطر كلما اقترب ازداد ضباب الحرائق الخانق كثافة .
الرؤية تنعدم رويداً رويداً يتحسس خطواته ببطء في الظلام وسط
الدخان . فجأة ، راوده حدسه قائلاً توقف ، هناك أحد ما يتبعك .
التفت ولكن لم يجد خلفه سوى الدخان يسد الطرقات . لقد التفت
بعقله وكل حواسه قبل أن يلتفت بجسده مفتشاً عن ما يكمن وراءه .
مرّت تلك اللحظات عليه وكأنها فجوة في الزمن . ظلّ ثابتاً في مكانه
بلا حراك . أحاط به حدسه الذي لا يخطئ قط ، ينبئه بالمزيد . لقد
كان يتبعه منذ أن مرّ من البوابات . لم يلحظه وسط الوجوه التي
تكدّست في صندوق الشاحنة ، لقد كان غارقاً في أفكاره طيلة الطريق
ولم يطلّ في الوجوه جيداً لقد كان معه في الشاحنة نفسها متوارياً
بين الوجوه . حدسه يقول له بأنه هو ولا أحد سواه . لقد تبعه منذ أن
مرّ من البوابات حتى هنا

على الطريق الضيق الواصل بين طريق الأوتسترد وصلاح سالم
المحفوف بالمقابر ، ثبت ياسين عينيه وسط الدخان الثقيل ونادى
بصوت عالٍ على الشيخ ليخرج ناداه ياسين باسمه .

على مشارف الدرب الأحمر حيث بيته القديم كانت المتاريس
منصوبة على النواصي سدت مداخل الحارات بأكوام الحجارة
والأثاث القديم . لم يجد أحد في الطرقات ، معظم سكان الحي
غادروه بعد انقطاع المرافق عن المنطقة . أبواه كانا قد توفيا منذ

سنوات . لم يتبقَّ في البيت من أخوته سوى الثلاثة الأصغر، سليمان وداوود ويوسف . أما الاثنان الأكبر منه فقد رحلا، يحيى انتقل للعمل في الخليج بينما استشهد صالح على الحدود في حادث انفجار قنبلة مفعَّخة استهدفت دوريته . الأخوة الثلاثة الباقيون يطالعون ياسين على ضوء الشموع بعد طول غياب . يتسمون دون حديث بينما هو يتطلع نحوهم شاردأً اقتلعه من شروده دقائق الهاتف الذي عاد إلى الحياة دون سابق إنذار . لم يظهر رقم المتصل ولكن ياسين كان يعلم أن حسين ولا أحد سواه، هو الوحيد في هذا العالم القادر على إجراء اتصال .

يدق باب البيت في منتصف الليل . لقد أتى أخيراً بعد طول انتظار . يفتح له الباب ويطالعان الطريق الغارق في ظلامه القلق . يبدو حسين مهموماً على غير عادته . بعد لحظات صمت ودون مقدمات هتف فيه حسين فجأة :

- مفيش وقت يا سحرتي !

ما الذي في جعبة المهرج؟ ما الذي يعرفه؟ لم يمنح حسين وقتاً لياسين ليفكر، أخرج على الفور قناعاً من جيبه وطلب من ياسين أن يرتديه . هزَّ ياسين رأسه مستنكراً، عندها أيقن حسين أن السحرتي لن يوارى وجهه بالقناع مهما ألحَّ عليه، عليه أن يخاطر ارتدى حسين قناعه وأشار لياسين بأن يتبعه . انطلقا تحت جناح الظلام ينتقلان من شارع إلى شارع ومن ممر إلى ممر يتقدمان بحذر نحو وسط المدينة .

وسط دروب المجهول المحفوفة بالخطر يمر اثنان، أحدهما

مقنع والآخر بلا قناع. يقفزان فوق برك الوحل متسرلين بظلال
الدخان الثقيلة. يضربان قفار المدينة المحطمة. يدخلان في غياهب
الخطر حيث تنكر الدروب الغرباء
على مشارف شارع بورسعيد مدَّ حسين ذراعه وأوقف صديقه،
التقطا أنفاسهما قبل أن يهمس وهو يشير نحو أضواء النيران هناك
على مشارف المتاريس:

- خلاص قَرَبنا

لأول مرة يرى ياسين نقاط ضوء تضيء ومتاريس منصوبة تلوح
من بعيد. أطلَّ حسين نحو شاشة هاتفه ثم فجأة رفع كَفَّه وبدأ إشارة
العدِّ بأصابعه، ثلاثة، اثنان، واحد.

انطلقا بأقصى سرعتهما عابرين نهر الطريق الواسع. يدلّفان
طريقاً ومنه إلى آخر مهرولين بلا توقف، اجتازا عدداً من التقاطعات
ثم انحرفا نحو دروب ضيقة حتى وصلا إلى الشارع الصغير الذي
يقبع فيه محل حسين القديم. توقف حسين وأطلَّ يميناً ويساراً ثم
تقدّم ببطء إلى شاحنة قديمة تربض على ناصية الشارع. فتح حسين
باب الشاحنة بحرص وأخرج من داخلها زجاجة بلاستيكية ثم مال
نحو خزان وقود الشاحنة وبدأ في تعبئة الزجاجة عبر خرطوم صغير.
ما أن فرغ حتى أشار نحو المتجر الصغير فتقدما نحوه ببطء وهما
يرقبان الشارع بحظر ما أن دلّفا إلى داخل المتجر حتى قام حسين
بإغلاق الباب خلفهما بإحكام. تحرك على ضوء هاتفه وقام بفتح
صندوق خشبي تحت طاولة كان قد أخفى فيه مولد كهرباء صغير.
قام بتعبئة المولد بالوقود ثم أداره. قام بتوصيله بجهاز كمبيوتر

أخرجه من درج سري في الطاولة ثم غطس برأسه في الملفات المتوالية على الشاشة ضارباً بأطراف أصابعه الحروف بلا توقف . يروح ياسين ويجيء في حيز المتجر الضيق . الأفكار بدأت تراوده الواحدة تلو الأخرى قبل أن يجمع الخطوط في رأسه . فجأة ثبَّت عينيه مواجهاً حسين ثم قال :

- إنت طرف في اللي بيحصل؟

ردَّ حسين بهز رأسه نافياً ولكن ياسين حدَّق في عينيه أكثر فلم يجد حسين منفذاً للهرب . أخفى وجهه بكفه ثم همس بصوت متردد :

- يمكن!

اقترب ياسين منه وأمسك بكتفه قائلاً

- قدامنا وقت قد إيه؟

- يوم أو أقل .

- وبعدين إيه هيحصل؟

مرَّر حسين كفه أفقياً في الهواء دلالة على الدمار الشامل أطلق ياسين زفرة يأس وواصل رحلته داخل حيز المكان الضيق ، ذهاباً وإياباً قبل أن يهتف بغضب مخاطباً الفراغ :

- يااا حسين!!

أمسك حسين رأسه بيأس ونظر بين قدميه . لم يجد بدأ سوى أن يروي ما لديه . أنصت ياسين للقصة كاملة دون أن يحرك ساكناً يحكي حسين من أول طرف الخيط الرفيع ، يحكي عن فكرته الأولى التي مرَّ عليها زمن قبل أن تتجسد في شكل الشعار الذي وجدوه

بالإسكندرية منذ عدة أشهر أنصت ياسين بتمعن حتى النهاية ثم ساد الصمت الطويل. مرّت اللحظات ثقيلة ومبهمة وياسين لا يحرك ساكناً وكأنه ذهب إلى مكان ما في آخر العالم. بعد حين طويل مضى كالدهر قال ياسين بنبرة هادئة وكأنها خرجت من خلف باب انفتح في قرار ما ساكن:

- أنا مستعد.

فكر حسين لوهلة ولم يفهم شيئاً نظر إلى ياسين الذي اقترب، تطلّع في وجهه للحظات فأصابه الهلع، لقد قرأ ما في حدقتي ياسين، تراجع في كرسيه فاغراً فمه بدهشة. خبط جبهته بكفّه غير مصدق وهتف مذعوراً

- مستحيل!!!

بهدوء أخرج ياسين هاتفه ووضع على الطاولة ثم أملى عليه ما يريد بلهجة أمر استمع حسين لما قاله ياسين قبل أن يمسك برأسه وكأنه يخشى أن تطير في الهواء. أيقن أنه في أزمة كبيرة. كيف سينفّذ ما قد طلبه ياسين للتو؟ لم يكن يعرف كيف سينفّذ طلبه؟ حتى وإن نفذ الطلب المستحيل، كيف سيترك ياسين يواجه هذا المصير؟ كيف يلقي بصديقه الأخير في قلب المجهول؟ يعلم يقيناً أن ياسين سيمضي نحو ما يريد به أو بدونه. يعلم أن ياسين السحرتي الواقف أمامه لا يتراجع عمّا يريد حتى لو كان العالم كله ينهار من حوله. لم يكن أمام حسين سوى أن ينجح في الجزء الخاص به. الجزء الذي يبدو مستحيلاً

ظل طيلة الليل ينقر الأرقام ويغوص في غياهب الشفرات

باستماتة بينما ياسين ممدداً على الأريكة يغطّ في نوم عميق. لأول مرة يرى ياسين نائماً هكذا وكأنه ذهب في إغماءة طويلة، ربما كان يتأهب للنهاية المجهولة التي كانت تنتظره.

لم يعلم حسين لماذا اختار أن يخفي عن ياسين السرّ الأكبر! لماذا أبقى على الاسم مخفياً تحت القناع لم يكن يعلم لما فعل هذا، ولكن هاتفياً ما قال له إن اللحظة لم تحن بعد.

البهلوان الحزين

أنا الوجه الذي لم يعد يضحك
وأنت البهلوان المثير للشفقة .

ما أن تفقد الأشياء التي تؤمن بها معانيها، فلن يتبقى لك سوى خيارين إما أن تدعها تقتلك أو أن تسخر منها كان يوماً ما يسخر من كل شيء والآن لم تعد لديه القدرة على هذا لقد خسر تلك الموهبة ويبدو أنها فُقدت للأبد. الآن، والآن فقط يخشى فكرته التي أطلقها كمزحة ذات يوم. الآن تعلو وجهه الصرامة ويدور ذهنه في متاهات اللغز بلا أمل. ها هو يقف على أبواب المعركة الكبرى وجهاً لوجه والمزحة الكبرى تجلّت بعنف، لم يكن يعلم على أيّ جانب من المعركة يقف. اللعنة على كل الأشياء التي لم نفهمها وظلت تلاحقنا

قبل عدة أشهر وبينما كان حسين يمر مع ياسين في طرقات جامعة الإسكندرية رأى شعار القرد على الجدار وتحتها عبارة «جاري التحميل هناك وفي تلك اللحظة تجمعت كل الخيوط في رأسه. تسمر في مكانه وبدأ يحلل تاريخ الأشياء ويربط بعضها

ببعض. لم يكن يتخيل أن هذا قد يحدث ولكن عقله يرفع مؤشر الخطر نحو عنان السماء. بعد أن فهم العلامة وبدأ في التخمين حتى تملك منه القلق الشديد. أيقن بأن شيئاً ما على وشك النزول إلى الشارع.

عاد إلى القاهرة ليجد نفسه أمام ما كان يخشاه. قرر أن يخترق الأمر وبدأ في التحايل على الأشياء ليجد منفذاً يمرّ منه إلى الداخل، لكن المفاجأة الكبرى كانت هناك في انتظاره، اللعبة كانت محصّنة ضده. حاول مراراً ولكنه لم يستطع النفاذ إلى ما وراء الأسوار المنيعة. كان هو المقصود أكثر من أيّ أحد آخر كيف لا يعلم وهو من فتح له الطريق. كل حيله كانت مرصودة ومحاصرة.

اختفى داخل متجره الصغير وغاص في غياهب الشبكة لشهور. أخفى هويته في ساحة المعركة الإلكترونية وبدأ في تحصين نفسه أولاً عندما أيقن أنّ القرد يراقبه. قام بالمرأوغة وأفلت من شباك القرد الإلكترونية بحرق كل الطرق التي تؤدي إليه. زرع نفسه في أماكن كثيرة وصار لا يتحرك على الشبكة إلا عبر مجموعات متفرقة وكأنه شيء عشوائي، لكن القرد كان قد تحرك متقدماً بخطى واسعة. القرد كان أكثر تطوراً من كلّ وسائل الشبكة التقليدية، كان لديه منصة قوية وشفرات متطورة. لقد بدأت منصته في التوغل بقوة وبدأت في عمليات واسعة لتفكيك تحصينات الخوادم. العملية التي قام بها القرد سميت بالجوكر، لقد كان بحق لوغاريتماً عظيماً الحيلة. توغل بسرعة ويتلقى دعماً من قراصنة كثيرين حول العالم. حصن حسين نفسه جيداً من خطر الجوكر ثم تحول نحو شبكة المنظمة. بنى درعاً قوياً حول قواعد بيانات المنظمة وطوّر

تحصيناتها قبل أن تبدأ الهجمة الكبرى. لقد توقع قدومها وتاريخ هبوطها إلى أرض الواقع.

في الرابع والعشرين من يناير كان حسين يتسلق برج الاتصالات اللاسلكية ويزرع جهازاً صغيراً يتيح اعتراض الإشارة وإتاحة منفذ للشبكة. ذلك المنفذ الذي أمّن لحسين إمكانية النفاذ إلى الشبكة في حالة انقطاع الاتصالات، كما أتاح له ذلك المنفذ، القدرة على الوصول دون أن يستطيع أحد تعقبه. نجح حسين في اختراق شبكة الاتصال ولكنه لم ينجح في الولوج إلى اللعبة أبداً الدخول إلى اللعبة أمرٌ مستحيلٌ ياسين قبل المخاطرة بشجاعة وقرر المضي قدماً بينما هو جالسٌ أمام شاشته يحاول محاولات يائسة للولوج. لا يعرف كيف سينفذ ما يريده ياسين؟ حتى وإن فعلها فكيف سيركه وحده في قلب المعركة؟ إنه الجنون نفسه.

المؤشرات التي استطاع قياسها تنبئ بأن المرحلة القادمة ستبدأ مع حلول ليل الغد. يستطيع حسين معرفة ذلك من طريق قياسه لحجم النشاط الزائد على الخوادم قبل الإعلان عن مرحلة جديدة. القرد الأحمر كان يتحرى الشبكة ويضعها تحت الاختبار قبل بدء كل مرحلة. إنه يقوم باختبارات قياس سرعة الشبكة وقدراتها قبل البدء في ممارسة فزعه المباغت. هذه الاختبارات كان حسين يتعقب حجم إشارات ويستطيع التنبؤ بما هو قادم. كان أيضاً يستطيع عبر برنامج على هاتفه قياس الإشارات المتبادله في المحيط الذي حوله مما أتاح التحرك أحياناً في الدروب من دون أن ينكشف.

لا يملك حسين سوى مجموعة من التوقعات والمؤشرات

ولكنها كلها لا تكفي لصنع شيء. توقعاته تقول إن القرد على وشك الانتقام من الجميع ها قد حكم بالإدانة والقادم سيكون لا شيء سوى إبادة. ما حجم الدمار القادم؟ لا أحد يستطيع أن يعرف مدى جنون القرد. يعلم حسين أن القرد الأحمر سيستمر حتى النهاية. يعلم يقيناً لأنها في البداية كانت فكرته هو.

الممر المحروق

أنا الشبح

أنا الصفقة الأخيرة.

في الظلام يتسلل إلى الممر المحروق عابراً إلى الناحية الأخرى، هناك كانوا يقفون متأهبين في انتظاره. الكاميرات الليلية كانت ترصده وهو يتقدم بثقة نحوهم غير آبه برسائل التحذير التي أطلقوها من مكبرات الصوت. تهامسوا، مَنْ هذا الانتحاري القادم نحو الممر المحروق؟ خرجت القوات الخاصة وطوقته من كل جانب مصوبين أسلحتهم. رفع يديه عالياً بهدوء وبدا هادئاً وكأنه يتنزه. أخرج لهم الكارت وذكر الاسم أمامهم فأصابتهم الدهشة. اقتادوه إلى أحد الضباط الكبار فطالعه بحيرة وهو يتفحص الكارت. سأله عن اسمه فردّ بثبات «طه الغريب» تفحص الضابط الكارت ثانية بحرص وعناية شديدين وأيقن أن عليه أن يقوم بالاتصال.

خرج من قلب غرفة العمليات مهرولاً وهو يرتدي معطفه الطويل، تبعه الحرس الخاص به فأشار لهم بيده أن ينصرفوا ومضى وحده. وقف على باب المبنى وأمال رأسه نحو الطريق المظلم الذي

اخترقته أضواء سيارة تقترب من بعيد. تطلّع في الساعة فوجدها قد
قاربت الثالثة صباحاً

هل هذا معقول؟ لقد أتى أخيراً، وبنفسه؟! ستة سنوات مضت
وهو يفتش عنه بلا أمل وكأنه شبح يخرج الزمن من جعبته عندما
تحتدم الأرض ثم يخفيه فجأة، ودون أثر أعتى جهاز في الدولة،
ذو الأذرع المتوغلة في كل مكان لم يصل إليه. لم يقترب حتى منه.
كان دوماً يبحث عنه وهو على يقين بأنه حي. الكاميرات كانت تؤكد
هذا عندما التقطت عدة صور له داخل قلب الأحداث، لكن الشبح
كان يتلاشى في لحظة وكأنه خيال لا وجود له. لم يستطع أحد أن
يتقفى أثره قط، كان دوماً يتبخر في الهواء. طيلة سنوات بحث عنه
في كل مكان. جمع عنه كل ما استطاع أن يصل إليه حتى صار
صديقين، صداقة عجيبة سكنت ملفاً لونه أزرق حملة طيلة سنوات
تنقله من مكتب إلى آخر

كان هناك خيط وحيد يربطه بالغريب، ذلك الشاب العنيد الذي
لا يتوقف عن المضي قدماً ذات يوم قرّر أن يصل الخيوط بينهم
الثلاثة ليكتمل المثلث. استدعى ذلك الشاب الهادئ إلى مكتبه
وسأله عن الغريب. كان على يقين بأن ياسين السحرتي لا يعلم شيئاً
عن الغريب ولكنه قرر أن يوصل الحلقة ويرمي ورقته الأخيرة لعل
الخيوط تكتمل يوماً ما ويجد الغريب. ترك الكارت لياسين وترك
الخيط الواهن ممدوداً الآن يهتز الخيط ويقود الشبح إليه. ها هو
طه الغريب يخرج من السيارة ويقترب.

يقف الغريب أمامه هادئاً يتسم بثقة. يهديه سيجارة ويطلقان

الدخان في الفضاء بنشوة. يشير طه الغريب نحو الحديقة المظلمة فيمضيان بين ممرات الأشجار صامتين ملامح طه الغريب لم تتغير وكأن ست سنوات لم تمرّ عليه. هو الشخص نفسه الذي ظهر أمامه فجأة في شارع القصر العيني عندما حوَّصر فجأة. لقد كان ليلتها مكلفاً بمهمة تقصي في محيط الأحداث التي نشبت أمام مجلس الوزراء. في تلك الليلة انطفأت الأنوار فجأة ودوت الرصاصات في كل مكان. أيقن على الفور أنه هو المقصود وأن هناك طرفاً يتعقبه. قرر أن ينسحب إلى الخلف ولكن بعد فوات الأوان، لقد أطبق عليه قناصة من لا يراهم في الظلام. انسحب محتمياً خلف شجرة كبيرة تقف أمام قصر الدوبارة قبل أن تنهال عليه الطلقات قادمة من كل صوب. إحدى الرصاصات اخترقت فخذه وأخرى جرحت ذراعه. كانت مهمته البحث عن طرف خفي يعمل في الخفاء ولكن يبدو أن هذا الطرف قد كشفه وقرر تصفيته وسط الفوضى التي اجتاحت المكان في تلك الليلة. لقد أصبح هدفاً مكشوفاً اشتد دوي الطلقات من حوله وبدا أنه يقترب أكثر منه. أيقن أنه سقط في فخ محكم وأنه هالك لا محالة قبل أن تدركه قوات التأمين.

في لحظة تشبه الحلم المستحيل سقطت قنبلة المولوتوف في وسط الطريق مشعلة كتلة لهب كبيرة على الأرض ثم تبعها أخرى. السماء أمطرت مولوتوف أضواء المنطقة بأسرها واندفع أحدهم مخترقاً محيط المكان. تراجع إطلاق النار وبدأ في التوقف. ظلّ الشبح يلقي بالمولوتوف دون توقف حتى فصل بينه وبين القناصة بساتر من النار والدخان. قبل أن يستجمع قواه ليتحرك محاولاً الخروج من الفخ كان طه الغريب يمدّ إليه يده ودون كلمات طوّقه

بذراعه وجره بعيداً عن مرمى النيران. مضى به حتى وصلا كوبري قصر النيل وعبرا إلى الناحية الأخرى ثم تلاشى مبتعداً دون وداع. لقد تقفى أثر من أصابوه في ذلك اليوم وتوصّل إليهم، أما طه الغريب فلم يصل إليه. كل ما عرفه عنه هو الاسم وبعض الحكايات الأسطورية المتناثرة التي يردّها الثوار. لم يعرف يوماً ما أهدافه ولا متى يظهر! لم يكن هناك سوى شخص واحد فقط ظلّ طه الغريب يتبعه بين الحين والآخر، ذلك الشخص هو الذي أرسل طه الغريب. هو ذاته الشخص الذي ترك له الكارت الخاص وهو ذاته الشخص الذي أرسل له طه الغريب ليطلب منه تسليم العميل. لقد كان مديناً لطه الغريب بحياته ولكن الأمر كان معقداً العميل كان يحمل في جعبته أسراراً لا تنتهي ومن الصعب تسليمه. هناك أطراف ستحميه بأي ثمن. كان عليه أن يفكر في طلب طه الغريب. أخذ نفساً عميقاً وبدأ يعيد حساباته. قبل أن يصل إلى إجابة عاجله الغريب بالعرض الذي يحمله. مضى الغريب يعرض عليه بنود الاتفاق الواحد تلو الآخر حتى تملّكته الدهشة. هل هذا معقول؟ من هو ياسين السحرتي حقاً؟

لم يعد يشغله طه الغريب الشبح الذي بحث عنه لسنوات. الآن يفكر في العرض المعروض عليه وفي المعركة التي ستبدأ في أي لحظة. لقد كانوا في غرفة العمليات يعدّون لساعة الصفر بالفعل. يعلم تماماً أنّ قبول العرض وتسليم العميل يعدّ مقامرة كبرى. يسأل طه الغريب ثانية عن شروط الاتفاق قبل أن يحسم أمره. يعلم أنه ليس وحده الذي يقامر الآن. ربما كان على الجميع أن يتغيّر بعد أن خسر الجميع كل شيء. يتطلع نحو الغريب الذي عبر الممر

المحروق مخاطراً بحياته ليحمل العرض الأخير لم يعد هناك شيء
يمنعه الآن من التصديق بأن الثورة سيجعلها غرباؤها جيلاً بعد جيل.
الآن يحسم مصير الصراع الذي لم ينته أبداً وداعاً أيتها الدولة
القديمة.

في ساعات الليل الأخيرة وقبل أن ينقشع الظلام كانا يتسللان
سويماً نحو وسط المدينة، نحو القصر القديم. من السور الخلفي قفزا
إلى داخل قصر عابدين. كانت هناك حراسة مقيمة تنتظرهم خلف
الأسوار. أتاحوا لهم الدخول إلى القصر الكبير الغارق في الظلام.
من بهو إلى طرفه ومن طرفه إلى باب خفي ومنه إلى سرداب حتى
وصلا أخيراً إلى العميل المحتجز في غرفة ضيقة تحت المبنى. لقد
اختطفوه قبل احتدام الأحداث وأبقوه بعيداً عن الأعين. معروف
أمناً بالعميل الصفر لقد تم استخدامه من قبل الأنظمة المتوالية،
لقد كان طوع نفسه ليبقى محصناً، يمتلك كل الحيل التي تمكّنه من
تغيير أرض المعركة. يلعب أحياناً في الخفاء وأحياناً أخرى في
العلن ولديه من الأعوان أعداد يصعب تخيلها ملفه يشير بأنه
استخدم في تصفية الثورة لحساب عدة أطراف اتفقت على تغيير
مسارها ظلّت الأذرع الكبرى تحميه طيلة الوقت وما زالوا يريدون
له البقاء وبأي ثمن.

عصب عيني العميل وربط ذراعيه وقدميه وسلمه لظه الغريب.
قبل أن يذهب به الغريب أكد عليه الاتفاق، سينتظرون أربعاً وعشرين
ساعة أخيرة فقط. يبتسم طه الغريب بثقة قبل أن يجرّ العميل إلى
الخارج ويرحل

الطريق إلى اللعبة

أنا حلم قديم

وأنت ندائي الأخير

إنها الصدفة التي تحوّل الأشياء نحو قدر غريب . إنه الحدث الذي يقف على الحافة وينتظر أن تأتي بشيء ما لا أحد يخرج من الأسطورة دون أن يخسر شيئاً ما ، لا أحد يعود أبداً حيث بدأ المخارج لا تشبه المدخل الضيق الذي ولجنا فيه الحكايات لا تتشابه في هذا الزمن .

عندما صحا ياسين من نوبة نوم طويلة أسقطته عن الوعي ، كان حسين قد رحل بلا أثر مسح وجهه جيداً مستعيداً وعيه . تحسّس كتفه الذي أصيب منذ سنوات ، تلك الندبة ما زالت تسكن تحتها شظية غادرة . أطل في ساعته فوجدها قد قاربت التاسعة صباحاً اختفى حسين كالعادة ، تبخّر وكأنه لم يكن موجود في هذا المكان من قبل هل كل هذا حلم؟ هل كان حسين قرداً آخر؟

يعاود تذكر الحديث الذي دار بينهما بالأمس . لقد حكى بداية القصة وكيف انطلقت فكرة القرد ذات ليلة ولكنه لم يذكر شيئاً عن من حضروا معه ، لم يذكر كيف انتقلت الفكرة وتضحّمت . لقد كان

معه طيلة الوقت ولم يفارقه سوى لأشهر قليلة. أين ذهب المهرج؟ لم يترك حاسوبه على الطاولة، أخذ كل شيء معه وترك المكان خاوياً فتح ياسين باب المتجر وأطل على الشارع الخالي. السماء كانت قد اتّسحت بالغيوم الرمادية، الغيوم هذه المرة لم تكن ضباب الدخان، لقد كانت غيوم المطر تلوح في السماء. أخذ نفساً عميقاً واستعاد في رأسه كلّ ما قاله حسين في الليلة الماضية. يعيد ترتيب الحكاية في رأسه ويتخيل القادم. كيف يمرّ الآن؟ معلق مصيره باثنين، أحدهما اختفى والآخر ميعاده بعد ساعة من الآن، ترى هل سينجح في المهمة المستحيلة. مجدداً إنه حدسه يناجيه من خلف الحجب، يقول له امض حتى النهاية. حدسه يمضي معه دوماً ولا يفارقه، ذلك الحدس الذي أنزله إلى الطرقات منذ سنوات ومضى به نحو الميدان، هو الحدس نفسه الذي أدار عينيه نحو الشاب الهزيل في أقصى الزنزانة ودلّه عليه، هو الحدس الذي أوقفه في الظلام بالأمس وقال إنه خلفك تماماً، هو الحدس الذي يقول له الآن إنه يعرف القرد. إن القرد هناك يناديه أن يأتي إليه.

ارتدى معطفه المُلقب على الكرسي وخرج إلى الشارع. قبل أن يصل أول الطريق، شعر بهزّة ما داخل معطفه. تذكر هاتفه الذي تركه على الطاولة بالأمس، لقد كان يهتّز بجيب معطفه.

القرد الأحمر يطلّ عليه مفتوحاً على مصراعيه. تظهر الرسالة الأولى المنتظرة بعد التحميل.

«تمّ تفعيل اللعبة بنجاح».

ومضت الشاشة بعدها برسالة شخصية من حسين

«الطريق مفتوح أمامك. أنت الآن مروان الناجي»

الغرفة

أنا الغرفة الغامضة

أنا الحيز الضيق الذي ابتلع العالم الكبير في لحظة .

يقف في المنتصف مسلطاً ضوء الكشاف الصغير على الحوائط من حوله، المشهد مهيب كأنه يقف في عقل عالم كبير متشابك . على الجدار يعتلي المشهد رأس الأسد شامخاً يناجيه الكومي من خلف ضباب الذكريات فيتحسّس الوجه بأطراف أصابعه بحزن جارف . على الجانب يطلّ شعار الثورة كما رسمه عرفة الدب منذ سنوات . على طرف المكتب كانت هناك صورة داخل برواز قديم، يقف فيها مروان الناجي وياسين السحرتي وبينهما القرد . يلقي نظرة فاحصة على الغرفة من حوله، تلك الغرفة كانت هي الحلّ الأخير بعد أن فشل في كل محاولاته لاختراق اللعبة طيلة شهور . لم يكن لديه حلّ آخر، لم يكن ليخذل ياسين مهما حدث .

لم يذق طعم النوم منذ أمس، ظلّ يضرب في تيه الشفرات المطلسمة طيلة الليل بلا أمل حتى وافته فجأة الفكرة، شقت غياهب رأسه الغارق في ظلمات من الحيرة، كيف تاهت عنه تلك الفكرة من قبل؟ دقت الفكرة المجنونة جنبات رأسه المشحون وفرضت نفسها .

تسلسلت الأشياء المربوطة بخط رفيع، استحضر من أرفف الذكريات عنواناً قديماً عقله انقاد بأقصى طاقته على أرض المجازفة الوعرة قبل أن يحسم أمره. كان عليه أن يأتي إلى تلك الغرفة، لم يكن أمامه حلٌّ آخر سوى أن يلعب لعبته مع الحظ لعلّه يجد المنفذ الذي يريده. ألقى نظرة أخيرة على صديقه النائم وانطلق تحت جنح الليل المفروش في الدروب كالزمن الغائب.

قبل أن يبوح الفجر بسرّه كان يتسلل عبر الطرقات الملتوية صاعداً نحو مشارف المقطم، هناك كان يقع البيت القديم الذي ينشده. كان يخشى أن يجد المكان خاوياً، كان يخشى أن تكون حساباته خاطئة ولكنه هذه المرة تحالف معه حظه ونفذ إلى الثغرة. في تلك الغرفة المظلمة الواقعة على حافة المدينة يكمن موطن القرد الأصلي. ها هي شاشاته تعمل بأقصى طاقتها

يقف أمام الحواسب المتراسة متأهباً قبل أن يهمس في سره «اعذرني عزيزي القرد!»! ينفخ في أصابعه متأهباً قبل البدء في رحلة الهبوط على سطح أرض القروود الوعرة. تنفتح القوائم، تتحرك المؤشرات، يطل العالم العجيب كخلفية نحل بالغة التعقيد. الوقت ينفد منه وعليه أن يلحق به قبل أن يتحرك ياسين العنيد، ياسين لن يوقفه شيء. دفن رأسه في دهاليز اللعبة المتشعبة على الشاشة ضارباً بأصابعه في جوف المارد الأحمر نفذ إلى قوائم اللاعبين وقام بإدراج بيانات اللاعب الجديد، لكنه فجأة وقبل أن يضغط زر الإدخال، دفعه الفضول ليذهب إلى أعلى القائمة. اتسعت حدقيه على وقع المفاجأة، اقترب من الشاشة أكثر ليتأكد. خبط رأسه بكفه غير مصدق ما تراه عيناه!

ظل متجمداً في مكانه يحاول ربط الأشياء ببعضها، كيف هذا؟
نقر على الاسم المسجّل على قمة اللعبة فانفتحت أيقونات
الخصائص الخاصة باللاعب. لا توجد أي أنشطة سابقة أو نقاط
مسجلة ولا حتى هاتف مفعّل كل اللاعبين يحملون أرقاماً فقط إلا
هذا اللاعب، كان الوحيد الذي يحمل اسماً وأيقونة خاصة.

أنا المدعو حسين شامة، لقد أرسلت صديقي الأخير ياسين
السحرتي داخل غياهب الطوفان. لقد أدخلته داخل الزمن الخطر
وأعطيته المرتبة العليا التي تركها القرد الأول خاوية. أنا حسين شامة
المهرج الكبير، لم أعد أعرف سوى القلق، لم أعد أمتلك قدرات
المهرج لأن كل الأشياء كانت تسخر مني الآن.

فعلّ هاتف صديقه ثم أرسل له الرسالة. قبع يتابع الشاشة بتوتر
لم يعرفه من قبل طيلة حياته. ها هو الاسم يومض بالأيقونة على
الخريطة مرسلًا إشارته نحو العالم بينما تقف نقطة القرد الأول في
منتصف الخريطة على حافة الميدان. الأيقونة تتحرك ولكنها لا
تقترب. مضت في اتجاه آخر إلى أين كان يمضي؟!

الرجل الغريب

المجد للغرباء

أبناء الحلم المستحيل

سيأتون مهما طال الأمد.

على المفروق يطلّ على الشارع الذي يمتدّ كالزمن. تبدأ السماء في إرسال قطرات من المطر الخفيف فيطل لأعلى ويقول لنفسه «متى ستضع تلك الحرب أوزارها؟». يرتاد الطريق تاركاً وراءه المحل الصغير الذي اختفى صاحبه. تفتح دروب اللعبة على شاشة هاتفه بينما كان يمضي نحو وجهته.

عندما اقترب، فتحوا له المتاريس الموضوععة بميدان الأوبرا القديم وأشاروا نحوه وهم يتهامسون مندهشين. كلهم مقنّعون بلا وجوه. لا أحد منهم يقترب منه أو يتكلم معه، يتعدون عن طريقه فقط ويطلون عليه مندهشين. واصل طريقه حتى وصل مشارف ميدان العتبة. حطام البضائع والعربات يصطف على الجانبين وبشر قليلون يظهرون ثم يتوارون كالأشباح. تراوده المخاوف بينما يجتاز الميدان، هل سيجده؟ يضرب في قفار السوق الخرب مجتازاً الحطام حتى وصل إلى شارع محمد علي. هناك تحت أقواس المباني

القديمة وزخات المطر وقف ينتظر هذا هو المكان الذي اتفقا عليه بالأمس بين القبور .

حدسه يقول له ، إنه هو القادم من هناك يجرّ خلفه عربة خشبية صغيرة ، متنكراً في ثياب البائعين . لقد أتى في مواعده كعادته . مهما تحتدم الأزمنة ستُخرج الأرض من شقوقها الرجل الغريب . في داخل الدرب يمضي مخترقاً المطر حتى يصل إليه . يمسح وجهه المبلل ويشير إلى داخل العربة ، هناك يتكوّم جسد الشخص المطلوب داخل جوال قديم . يشعل الغريب سيجارته ببطء وهو يطلّ على الطريق قبل أن يقول لياسين

- قدأما أربع وعشرين ساعة لتقديم الشروط .

يطل عليه ياسين طويلاً ثم يرنو إلى الشارع الخاوي . يتحرك طه الغريب مقترباً من العربة ، يطلّ على الجوال بتمعن ثم يقول :

- تفكر هينتهي؟!!

يسرح ياسين لبرهة قبل أن يقول :

- في كلّ زمن لازم هيظهر واحد زيّه . عاطف ليس نهاية المطاف .

يقترّب الغريب منه ثم يضمّه يشعر بشيء ما صلبٍ يقوم الغريب بدسه ما بين حزامه وخصره . يطلّ في عيني الغريب بنظرة حائرة فيومي الغريب بنظرة ثقة قبل أن يتسم قائلاً :

- مكملين يا صديقي راجعلك!

يرفع ياسين الجوال من العربة ويطلّ على طه الغريب الذي

مضى متوارياً بين الحطام المتراكم على الجانبين يجر التاريخ العفن
في جوال قديم ماضياً نحو قلب المدينة، نحو الميدان. الآن تمضي
النقطة على الخريطة قادمة. يضرب المطر أركان الطرقات بعنف
ويتدفق العالم كله نحو عتبات اللحظة المرتقبة.

مروان الناجي

أنا الاسم الحي

أنا مروان الناجي

هكذا تقول اللعبة .

يمر بالاسم المعلق على جبينه، يمضي نحو الطريق الذي رسم
أقداره يوماً ما على الممر نفسه تغير كل شيء هنا استعصى الحلم
على الفهم وهنا دار الزمان دورته طيلة سبع سنوات. يقترب أكثر
ويلوح المارد في الأفق .

شيء ما يبدأ هنا وتنتهي كل الأشياء الأخرى. يدق لحن حزين
في زقاق بعيد، يذكره اللحن بصوت شجي، يعود إليه بلامح وجه
بريء كان ينبض بالحياة والأمل كلما غنى للحرية. يعلق اللحن
بأغواره بينما يمضي ويناجيه بسؤال حزين. أين هو الآن؟ حدسه
يقول له بأنه هنا في مكان ما وسط الأفتعة التي ترقبه .

صيحات القرد الأحمر تدوي من حناجر شرسة غاضبة. ألوف
القردة الحمر متراصة في تشكيلات جبارة تسد أفق الميدان. كتائب
تم تشكيلها كالصفوف وفوقها ترفرف الأعلام كأشعة جبارة لأسطول
خرافي ضخمة. أعلام الشهداء تكدست في السماء لتكسو أفقاً غاضباً

لا يمل تاريخه، شهداء بالآلاف مرفوعون فوق الرؤوس. يهتفون للشهداء بالاسم. يرجون جنات الميدان الذي اتسعت حوافه بعد أن سقطت أغلب المباني القديمة من ناحية شارع طلعت حرب وقصر النيل، لقد أكلتها الحرائق وسقطت.

هذه الأحداث التي تراها درب من دروب الخيال، بُنيت على أحداث حقيقة سابقة. هذه الأعلام كانت قد مرت من هنا منذ سنوات ولكنها الآن كبرت بحجم الخيالات. هذه الصيحات ضجت هنا من قبل ولكنها تضخمت بحجم الجنون الذي لطخ المدينة. هم كانوا هنا وعلى تلك الأرض تشكلوا وتزايدوا ثم أتى يومٌ عاتٍ اكتسحوا فيه الطرقات. الطبول تقرع بقوة كدقات النهايات. يفتحون له وسط الصفوف ممراً ليمر

تومض نقطة القرد الأول في مكانها ثابتة على الخريطة. تقبع في شارع محمد محمود على حافة الميدان. يتحرك قدماً نحوها يشق حشود الميدان بينما يجرّ خلفه جوالاً ثقيلاً تقترب النقطتان على الخريطة في المكان نفسه الذي جمعهم منذ سنوات.

هذا ليس بشتاء، هذا البرق الذي يومض ليس سوى وقع الذكريات كلها التي عادت. من أنت أيها القادم من هناك؟ جئتني حاملاً اسم الأسطورة، الاسم الذي زرعت في اللعبة قبل إطلاقها وأردته أن يبقى رمزاً، رمزاً لكل القادمين عبر الأزمان.

أعلم أنك مثلي، جئتني لنقف على الأرض سوياً بعد طول غياب. لقد انتظرتك طويلاً لتعود. أعلم أن حسين هناك يجلس في

مكمني، أعلم أنه هو الوحيد القادر على الوصول إليّ كما أعلم أنك أنت الوحيد الذي لا يخشى المعركة. ها أنا أقف في انتظاركم، القوا بما لديكم. يقلّب في جيبه عملتين معدنيتين وينتظر.

في قلب شارع محمد محمود يقف القرد الأول مقتنعاً وحول رقبتة وشاح الكومي الملطخ بآثار الدماء التي لم تمحها السنوات. يتطلع نحو ياسين القادم مطلقاً بوجهه المكشوف وسط الأتعة. يدق المطر الطرقات محتتماً يصلي المطر صلواته الجنازية المهيبة.

* * *

أنا الصدى البعيد

هنا تلامس الأشياء طيفها

هنا تقترب منا الأزمنة التي نسينها

من أنت أيها المتشح بالسواد؟ لما تخفق في صدري هكذا كراية محاربٍ أخير عاد ناجياً من أرض الهلاك.

يقترّب ياسين من القرد الأول الذي أشارت إليه الخريطة. يقترّب أكثر حتى يصير في مواجهته تماماً يطالع في العينين المطلتين من فتحات القناع فيتجمد مكانه. تصطكّ الذكريات في رأسه متتابعة بسرعة البرق. تدمع عيناه ويصمت الكون.

هنا لا شيء يسقط عنا هنا نعود كما انتهينا هنا الزمن يضرب نفسه في جوف المجهول. هنا تخرج حقيقتنا كما نسيناها على ذلك الدرب نلتقي كما كنا نبتعد. بين تلك الحوائط كنا ندفع الثمن. هنا سقط الشبح الحزين. هنا صرخ الراحلون بنداء الوداع. هنا نواجه أنفسنا ونتذكر كلّ ما كان. هنا قبل سنوات أمسك بيده واجتذبه. هنا

صرخ فيه وقال اتركني . لقد تضخمت و صار قرداً كبيراً لا يوقفه شيء .
هنا لم يبقَ من المدينة سوى الركام ودوي القصاص .

تومض اللعبة بسقوط الدمية الكبرى . تشتعل الحشود حولهم
بهتافات القصاص بينما يقف الاثنان على خط المواجهة الأخيرة .
يلقي ياسين بالجوال أمام أدهم ويفتحه ليظهر بداخله عاطف معصوب
العينين ، جائئاً على ركبتيه . يتجمد أدهم من هول المفاجأة ولكن
ياسين لا ينتظر في لمحة بصر أخرج المسدس وصوبه نحو جبهة
عاطف . نزع عن عينيه العصابة وحدق للحظة ثم دوى صوت الطلقة .
سقطت الدمية الأخيرة مخضبة بالدماء وسقط المسدس من يد
ياسين . ساد الصمت للحظات قبل أن يطلق أدهم صرخة مزقت
الفضاء ، صرخة القرد الكبرى !

الكود

أنا الحدّ الفاصل
مَنْ يقترب سيحترق
أنا الكود.

يسود الصمت منتظراً الزمن ليهدر في الأفق المشحون. أيها القادمون من زمنٍ ما بعد الطوفان، أنا المدعو حسين شامة، أكتب لكم مسجلاً الوقائع العجيبة التي شهدتها في هذا اليوم. لم أكن أعرف ما الذي كان في جعبة ياسين السحرتي في ذلك اليوم الذي نفّذت فيه طلبه وأرسلته داخل اللعبة. لم أكن أعرف من أوصله إلى الدمية الأخيرة؟ ومن أعطاه المسدس؟ لم أكن أعرف أنّ ياسين سيجذب الزناد!

رأيته ثابتاً لا يتحرك وأمامه القرد الأول لزمن طويل وأنا لا أستطيع احتمال كل هذا الشاشات تنقل لي المشهد ولا تنقل لي الكلمات. هل من أحد على الأرض يخبرني بما في رأسيهما؟ أنقر بأصابعي أيقونات المستقبل الكامنة في متون اللعبة، أفتش عن الطالع في دروب اللعبة ولا أجد شيئاً اللعبة صامته أمام فوهة القادم. لا مراحل قادمة متاحة للتحميل ولا علامات في الأفق تلوح. رأيتهما سوياً يخططان لشيء ما ولم أعرف به. تلك كانت آخر مرة أرى فيها

القرد الأول، لقد اختفى منذ ذاك الحين تبخّر في الهواء في لحظات ولم يُعثَر له على أثر. اختفى القناع الأكبر من الساحة ولم يُعرف أبداً مَنْ كان لتبقى الأسطورة راسخة في الأذهان. اثنان فقط كانا يعلمان بالسر، أنا والملقب بمروان الناجي. هو الوحيد الذي ظهر على أرض اللعبة بلا قناع واستمر على الشاشات تشير المؤشرات بأنّ حامل أيقونة هو الآن الذي يتحكم وحده. لقد فتح اللعبة على القروء في ذلك اليوم وأرسل الرسالة قبل الأخيرة.

«الثورة تحكم

الثورة تملّي الشروط

الثورة تمحو العصر القديم ليحل عصر جديد

تخلصوا من الماضي

تخلصوا من الدولة المريضة

اختاروا بكامل إرادتكم ما تريدونه الآن

اللعبة تعطيك الإرادة الحرة

الحرية ملككم»

في عشية هذا اليوم رأيت بعيني الأيقونة تقف بالميدان وسطهم وهم يستشيرون بعضهم بعضاً الهتافات تضحّ بالقصاص ويتفاعلون عبر اللعبة ثم يصوتون على الخيارات. الخيار الذي اعتلى القائمة وحصل على أعلى نسبة تصويت كان الحلبة الروماني يتحركون صوب تفعيل خيارهم، يفرغون الساحة الكبرى في وسط الميدان ويبدوون في إخراج الدمى السياسية ويلقون بها في قلب الساحة. انجُ بنفسك من الآخرين، صارع من أجل البقاء. أيها الساسة

اقتلوا بعضهم بعضاً الآن في وسط الدائرة. لا أحد منكم سيخرج من تلك الدائرة حتى يجهز على خصومه، أجهز عليه أو هو سيُجهز عليك. كم اقتتلُّم من أجل المناصب، الآن اقتتلوا من أجل النجاة. تستعر الحلقة الرومانية وتضج حشود القرد تحت زخات المطر الذي لم يتوقف. تتقاتل الدمى حتى آخر رمق. يدهسون بعضهم بعضاً في محاولة أخيرة للخلاص. يتقاتلون حتى النهاية، كل فريق يصرع خصماً، عليه أن يواجه فريقاً جديداً يزعج به في الحلقة. يُظهرون وحشيتهم في مواجهة بعضهم بعضاً يتساقطون في الوحل تباعاً لا أحد يخرج من الدائرة، لا أحد ينجو

يدور الليلة دورته الكبرى على المشهد حتى يبتلع آخرهم. ينتهي الساسة ويخرجون المشهد بينما يستعد القرد للدمى التالية. ينتلقون نحو دمي المسؤولين عن الضحايا من الشهداء. بدأت الاقتراحات ثم قاموا بالتصويت. الاختيارات كانت لانهاية ولكن أحدهم نجح في اعتلاء القمة وحصد نسبة كبيرة من الأصوات. تحركت الفرق على الفور للتنفيذ. أوصدوا غرف الدور الأول بالمبنى على الدمى بعد أن ألقوا داخلها قنابل الغاز. تركوهم يموتوا مختنقين بغازهم الذين أطلقوه لسنوات على الثوار. الآن يكتونون بالنار نفسها

لم يتبق سوى الدمى الأخيرة، العاهرات والقوادين المحتجزين في الطابق الثالث عشر، ذلك الطابق المسمى بطابق شرطة الآداب. خرج الخيار الأول من مقرّ المجمع، من قائد فريق الاحتجاز نفسه المعروف بأنه من كبار اللاعبين. لم يأت أحدٌ بخيار آخر وبدؤوا بالاستفتاء عليه. التصويت شهد إجماعاً من كل القروود. تتحرك فرق القرد لتنفيذ خيارها يجلبون قناني الوقود من كل مكان، يغرِقون

الطابق الثالث عشر بالبنزين، يسدون النوافذ والأبواب، يشعلون النيران ويغادرون المبنى .

رأيت بعيني النهاية في الساعة الأخيرة من الليل وهي تلوح فوق المبنى، رأيت النيران تشتعل في الطابق الأخير لقد حرقوا العاهرات والقوادين وهم أحياء. تطلق القروود صيحاتها الأخيرة. وتبث الشاشات رسالة القرد الأخيرة:

«يتحد القرد مع الأرض

يتحد القرد تحت علم الوطن

الآن نعلن الكود

لا أحد يعلو على الكود

القرد يحمي الكود

بنار الثورة والغضب

من يخرق الكود سيخرج القرد من مكمنه

سيلاحقه القرد أينما ذهب

الكود غير قابل للمساس

الكود مسطورٌ فيه أحلامنا»

الكود يطلّ على الشاشات وتتوارى اللعبة وراءه في الخلفية .

سطروا مطالبهم بالدماء والشهداء داخل أتون الكود. من يدنو من

الكود، من يخرق الكود، من يتحايل على الكود، سيخرج القرد

الأحمر من مكمنه. القرد مرابض في الانتظار.

ستظل الأسطورة تتردّد عن الكود في كلّ زمان ومكان. لقد

خطوه في قلب الوطن ليبقى. سَطَّروا فيه ما يريدون وما هتفوا له

سنوات تلو سنوات. تأتي نداءات المظلومين طيلة عقود من الزمن
ويتردد صداها عالياً تتجمع الأحلام المسجونة بعد عصور من القهر
لتحلق. يقف الكود في المنتصف ويملي دستورته على الجميع لم
يبقَ أحد على الأرض يستطيع أن يمسه الكود أو يدنو منه. يعرفون
أن الاقتراب من الكود يعني حلول القرد على الأرض.

أنا حلمك الجميل

مهما ابتعدت سأعود

لم يبقَ أحد سواه، كان يقف وسط الميدان الخالي وحده بعد
أن خرج كلّ المقنّعون قبل الشروق وسحبوا معهم ضحاياهم. خرجوا
بعد أن محوا عهداً بكلّ ما كان فيه. يشعر بالغريب يقترب، يقف إلى
جواره ويطلان سوياً على الميدان المتسع كأفق لانهاضي. تشرق
الشمس على الأرض وتنتفح السماء الصافية. من بعيد يقترب سبعة
عشر شاباً قادمين من أفق الطريق.

«شيء ما ينتهي الآن ولا يعود.

كل الأصوات الأخرى تتوارى.

أنا الآن أرفع راياتي لتحلق في السماء.

أنا الحلم.

أنا أقوى من كل الأشياء».

ياسر أحمد

آذار/ مارس 2014

~

~

ياسر أحمد

جمهورية القرد الأحمر

أنا القرد الأحمر

انس كل ما مضى

انس كل ما كنت تعرفه

نحن الدولة الجديدة

اجمعوا كل شيء تعرفونه وتعلمتوه واضربوه في ألف.. نحن هذا الرقم

اضرب خوفك في ألف.. أنا هذا الفرع

اضرب ضياعك في ألف.. أنا هذا الزمن

اضرب عقدتك في ألف.. أنا هذا الألم

أنا القرد الأحمر

أعلن تأسيس الجمهورية الجديدة

اجمع كل نخبك السياسية.. اجمع كل مؤسساتك وأجهزتك البوليسية.. اجمع

حشودك وإعلامك وكل قوتك الضاربة واضربها في ألف.. وستنهزم.



نحن القرد الأحمر

نحن الغاضبون

من القمع والذل والخيانة

نحن القرد الأحمر

نحن كلنا واحد

أتينا من أجل هدف واحد

الحرية

المجد للشورة.. المجد للشهداء.

Kinokuniya



AB-AHL00-0001



المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدينا)

بيروت: ص. ب. 113/5158

markaz.casablanca@gmail.com

cca_casa_bey@yahoo.com